القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يوليو - أغسطس 2010



الـوداع
غازي الـقـصـيـبـي

العدد 4
المجلد 59

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة القافلة نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

تحية إلى الأديب والشاعر والسياسي، الدكتور غازي القصيبي، الذي انتقل إلى ذمة الله بعد حياة حافلة بالعطاء، وقراءة بانورامية لأدبه في هذا العدد.

لوحة الغلاف: المحترف السعودي، عمر صبير

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
عصام زين العابدين توفيق

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

نائب رئيس التحرير
محمد الدميني

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، **دينا الشهوان**
بيروت، **رولان قطان**
القاهرة، **ليلى أمل**
أمريكا الشمالية، **أشرف إحسان فقيه**

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2010
رجب - شعبان 1431

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

اتخذت المنافسة ما بين الكتاب الورقي والكتاب الإلكتروني منعطفاً جديداً في الآونة الأخيرة، مع إعلان بعض الشركات المنتجة للتكنولوجيا الرقمية عن تطوير أشكال من الكتاب الإلكتروني، يقال إنه قريب جداً من صيغة الكتاب الورقي لجهة تعامل القارئ معه، ولا يحتوي على ما كان يراه البعض «سلبيات» القراءة الإلكترونية على شاشة الكمبيوتر التقليدية، الأمر الذي أنعش من جديد الجدال حول مصير الكتاب الورقي في مواجهة مزاحمة الجديد الإلكتروني. وهذه هي القضية التي تناولتها «القافلة» في مستهل رحلتها لهذا العدد.



ويبحث باب «قول في مقال» في الدور الذي يمكن للرعاية أن تلعبه على صعيد دعم الإبداع، سواء أكانت هذه الرعاية مستحقة وتدعم المبدعين فعلاً الذين يحتاجون للدعم، أم كانت مجرد استثمار لا يتوخى منه الراعي غير العوائد لصالحه.



2 طاقة واقتصاد

أما مناخ الطاقة والاقتصاد، فيتضمَّن موضوعين: الأول هو حول كيمياء النفط الذي أصبح بتطور الصناعات الحيوية مصدر عدد لا يحصى من المشتقات والمنتجات التي تحيط بنا في حياتنا اليومية، إضافة إلى كونه المصدر الأول للطاقة في العالم.
أما الموضوع الثاني، فهو إداري ويتعلق بانفتاح عالم الشركات والصناعات على مفهوم جديد للابتكار لا يقف عند الدراسات والحسابات الباردة، بل يجنح ليحلِّق في مجالات لم تكن مفتوحة أمامه حتى الأمس القريب.





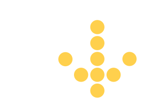
3 علوم وبيئة

بعد ذلك، ينقلنا مناخ العلوم والبيئة إلى الفضاء الخارجي ورحاب الكون، بمناسبة مرور خمسين سنة على بداية أول جهد علمي حديث بحثاً عن احتمالات وجود حياة على كواكب أخرى غير الأرض، أو على أقل تقدير وجود العناصر التي تسمح بوجود شكل من أشكال الحياة عليها. ويستعرض لنا البحث الذي تنشره «القافلة» ما توصَّل إليه العلم في هذا المجال، وهو لا يزال حتى اليوم قليلاً، ويشرح لنا أسباب هذه القلة.

الفاصل المصوَّر



وفي الفاصل المصوَّر، تستضيف القافلة المصوِّر الفرنسي أوليفر كوبي، الذي يعمل في المركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية في الطائف، وتخصِّص صفحات الفاصل لبعض الصور التي التقطها للطيور التي تعيش في المملكة.





4 حياتنا اليوم

وعلى الرغم من أن المواطن السعودي قد يكون أقل تعرضاً لمتاعب تكلفة التعليم العالي، بسبب مستوى التعليم الجامعي الرسمي، وبرنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي، فإن ارتفاع كلفة التعليم العالي عربياً وعالمياً أصبح قضية شائكة ذات انعكاسات اجتماعية واقتصادية تطال بذيولها مستوى المعيشة في دول عديدة، وهذا ما يتوقَّف أمامه مناخ الحياة اليومية في هذا العدد.

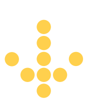


5 الثقافة والأدب

ويتسم مناخ الثقافة والأدب في هذا العدد بوسامة خاصة إذ يتوقف فيه القارئ أمام عملاقين من عمالقة الأدب المعاصر في موضوعين منفصلين: الأول حول الأديب والشاعر والسياسي غازي القصيبي - يرحمه الله - ويتضمَّن قراءة بانورامية تسعى إلى استخلاص العناصر التي جعلت هذا العملاق ينتقل من نجاح إلى آخر في شتى الألوان الأدبية التي أعمل فيها قلمه، وحتى المجالات الإدارية والسياسية التي عمل فيها.

أما الموضوع الثاني، فهو حول الروائية الألمانية، الرومانية الأصل، هيرتا مولر، الحائزة لجائزة نوبل للآداب للعام الماضي، والتي لم تنل قبل حصولها على هذه الجائزة الشهرة التي تستحقها، ولا تزال عملياً شبه مجهولة من قِبَلْ القرَّاء العرب، لقلة ما ترجم من أعمالها إلى العربية.







6 ملف العدد

وفي الختام، تترك «القافلة» القارئ مع ملف «التوأم».. بكل ما يثيره التوائم من أسئلة علمية واجتماعية ونفسية، ليس عند ذويهم فقط، بل أيضاً في مجتمعهم، حيث يبدو أن لكل مجتمع أجوبته الخاصة.

الرحلة معاً

غازي القصيبي
مالئ الدنيا وشاغل الناس

يضم عددنا هذا مجموعة من المواد عن معالي المرحوم الدكتور غازي بن عبدالرحمن القصيبي، وزير العمل السعودي، الذي كان خلال مرحلة إنتاج العدد لا يزال على فراش المرض بعد فترة العلاج التي أمضاها في الولايات المتحدة. وقد انتقل - يرحمه الله - إلى جوار ربه، يوم الأحد 5 رمضان 1431هـ (15 أغسطس 2010م) في مستشفى الملك فيصل التخصصي في مدينة الرياض. نسأل الله للدكتور غازي الرحمة والمغفرة وأن يسكنه فسيح جناته. لقد كان الدكتور القصيبي هرماً من أهرام المملكة، أبدع في عدة مجالات، وصار في بعض الأحيان مالئ الدنيا وشاغل الناس، بسبب إنجازاته الإدارية في الوزارات التي تحمّل مسؤولياتها منذ منتصف السبعينيات الميلادية، وإبداعاته الأدبية والشعرية والفكرية.

لقد تميَّز الدكتور غازي برؤية ثاقبة، تركِّز على الخطوط العريضة، ولا تضيع وسط التفاصيل التي تعالج عادة في مستويات أخرى. كما أنه اتسم بمواجهة المشكلات ووضع الحلول والخطط للتعامل معها بأسلوب علمي فعّال. وكلنا يتذكر دوره في إحداث نقلة نوعية كبيرة في المملكة في أكثر من مجال.

فحين كان وزيراً للصناعة والكهرباء في أواخر السبعينيات عمل، وبدعم من جلالة الملك خالد وولي عهده الأمير (الملك) فهد - رحمهما الله - لإعادة بناء قطاع الكهرباء في المملكة، وتحويله من مجموعة شركات صغيرة متناثرة هنا وهناك إلى شركة عملاقة تخطط للمستقبل وتتوقع المشكلات وتضع لها الحلول.

وكلنا يتذكَّر دوره في بناء مدينتي الجبيل وينبع الصناعيتين وإنشاء شركة سابك التي أصبحت عضواً ثابتاً في قطاع الصناعة البتروكيميائية العالمية. واليوم نرى سابك، التي واجهت بعض المشكلات في احتلال مكانها الطبيعي في السوق في البداية، تتحوَّل إلى عضو رسمي في هذا السوق، ومصدر دخل رئيس للمملكة يضيف قيمة لمواردها البترولية ويزيد من دخلها.



وحين كان وزيراً للصحة أحدث نقلة نوعية في الخدمات الصحية في المملكة إلى درجة أن الألسن لا تزال تلهج بذكره والدعاء له حتى اليوم. لقد ركَّز على رفع مستوى الأداء في المستشفيات العامة والخاصة، ففاجأ تلك المستشفيات بزيارات ليتأكد من جودة الخدمات التي تقدَّم للمرضى. وكان النشر عن تلك الزيارات يمثل رادعاً للمقصرين المنتمين للمؤسسات الصحية الأخرى في البلاد.

ولا أريد أن أتحدث في هذه الافتتاحية عن أدب وشعر الدكتور غازي فهو عَلَمٌ في مجال الرواية والشعر، ولكنني أود أن أعيد إلى الذاكرة دوره، الذي سبق زمانه، في مجال الأمن الفكري، حين حاور عدداً من المتشددين في ذلك الوقت بشكل علني.

كما أننا لا ننسى أنه كان بعد غزو الكويت وزارة إعلام بحالها حين تصدى للمعتدي وأعوانه في الدول الأخرى في عمود (في عين العاصفة) الذي كان ينشر يومياً في جريدة الشرق الأوسط. كان عموده يعالج أهم الموضوعات، وبأسلوب بليغ ومؤثر، فتتناقله أجهزة الفاكس (البريد الإلكتروني لم يكن شائعاً في ذلك الوقت)، ويكون موضوع الحوار في المجالس.

كما تميز الدكتور غازي بحسن استغلاله لوقته. ولذلك فقد ألَّف الكتب والدواوين وهو على رأس الوزارات. ولكنه حين خرج من الوزارة إلى السفارة، في فترة من فترات خدمته، استفاد من الوقت الإضافي المتوافر فأتحفنا بالكثير من الروايات والدواوين التي كانت من أكثر الكتب مبيعاً.

أما أدواره الإنسانية فحدِّث ولا حرج. وأول ما يخطر في البال هنا أعماله في وزارة الصحة. كما لا ننسى أنه هو صاحب فكرة جمعية الأطفال المعاقين التي أصبحت من أهم الجمعيات الإنسانية في بلادنا. وهو منشئ جمعية أصدقاء المرضى التي لا يعرف قيمتها إلا المرضى الذين لا يحظون بزيارات لأسباب مختلفة.

الدكتور غازي القصيبي عملاق من عمالقة الوطن العربي، بتعدد الفنون التي أبدع فيها، وبأدواره الرسمية والوزارات والسفارات التي تحمَّل مسؤولياتها وأحدث فيها نقلة نوعية. أتذكر أنه حين كان سفيراً للمملكة في المنامة ولندن أنه كان ينظِّم لقاءً أسبوعياً غير رسمي للسعوديين المقيمين والزائرين، يكون فرصة للتعارف والتآلف وحل المشكلات، إن وجدت.

وبالإضافة إلى كل ما ذكر فقد كان الدكتور غازي يتصف بثقة في النفس ترفض التواضع المزيف ولكنها لا تصل إلى درجة الكبرياء. كما كان محط ثقة ولاة الأمر في هذه البلاد فقدَّموا له الدعم وأعطوه الصلاحيات لرفع مستوى القطاعات التي تولاها فقام بالدور خير قيام في كل قطاع مرّ عليه.

معالي الدكتور غازي:
باسم كل من استفاد من تحسين خدمة كنت خلف تحسينها، سواءً في مجال الكهرباء أو في مجال الصحة أو في المجالات الإنسانية الأخرى، وباسم من يتمتعون بقراءة كتبك، الروايات والدواوين الشعرية وغيرها، نسأل الله - العلي القدير — أن يشملك بعفوه ومغفرته، وأن يجعلك من سكان الفردوس الأعلى، وأن يلهم أهلك وذويك ومحبيك، الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

شكر للانتظام

أتقدَّم لسعادتكم وإلى كافة العاملين بهذه المجلة بجزيل الشكر والعرفان للجهود المبذولة ولتواصلكم الدائم بإرسال المجلة بشكل منتظم، حيث إنني من القرَّاء المتابعين لها والمنتفعين بها لما تحويه من معلومات قيِّمة ومقالات هادفة ومميزة.
وختاماً أسأل الله العلي القدير أن يمتعكم بالصحة والعافية والثواب الجزيل.
ولكم فائق التحية والتقدير

صالح محمد الثنيان
الأحساء

تستحق الاقتناء

مجلة القافلة مجلة تستحق أن تُقتنى، وأن تحفظ في المكتبة حتى نتمكن من قراءتها بين وقت وآخر. وفي بعض الأحيان، نعود إلى بعض الأعداد القديمة لتصفح بعض الموضوعات المميزة. وهذا هو حال هذه المجلة، وأتمنى لو تصبح نوعية المادة اللاصقة لأوراق المجلة أقوى مما هي عليه الآن لتعمر المجلة في مكتباتنا لوقت طويل.
تمنياتي لكم بالتوفيق.

ليلى صالح عبدالله الأحمري
الرياض - العليا

غنية بالأفكار والموضوعات

اطلعت على «القافلة» فأعجبتني إعجاباً شديداً، بسبب موضوعاتها الشيقة والمفيدة وعمق عباراتها وجودتها وتبويبها وتنسيقها وكتَّابها والمشرفين عليها. فهي غنية بالأفكار والموضوعات المفيدة لمن يطالعها، فتجعله يواصل قراءتها باستمرار لسهولة أسلوبها



المشتركون الجدد

الإخوة: العميد الطيار الركن عبدالله عايض الشمراني، الرياض - وديع بن محمد عبدالله الطيار، القصيم - علي حسين الحكيم، الجبيل - هدى البوعينين، الدمام - صالح بن محمد ابن الرميح، القصيم - أحمد فهد القحطاني، خميس مشيط - نبيل عبدالله الداوود، الجبيل الصناعية - سميرة محمد أحمد، أبوظبي - صيد أسامة، الجزائر - ناصر بن سعيد الإسماعيلي، نزوى، عُمان - المصطفى قلاف، المغرب - أحمد محسن الرويلي، الجوف - عبدالله أبو ريدة، الظهران - عبدالله طاهر الحجي، الأحساء - وليد بن عبدالله الطويرق، المذنب - محمد خلف، حلب - خالد بن جابر الغريب، الأحساء - جميل سلات، حلب - علي بن صالح الربع، القصيم - عبدالعزيز بخاري، مكة المكرمة - محمد عبدالرحمن السعدي، الدمام - حامد عباس، حلب - زهير أحمد الحياك، الأحساء - علي عبدالله الجعفر، الأحساء - محمد الجوهر، الأحساء - كراع عبدالسلام، الجزائر - مدرسة مؤتة المتوسطة، القطيف - جوج صومي كورية، سوريا - خالد ابن محمد العبدلي، عُمان - عبدالعزيز التميمي، حائل - سالم بن سلمان الرهيمان، الأحساء - سحر عبدالمطلب جبر، جامعة عدن - محمد عبدالحميد الجعراني، الإسكندرية - علي محمد الحمين، الدمام - إبراهيم أحمد الخباز، سيهات - سيد مهدي المرزوق، البحرين - محمد فرج رمضان، ليبيا - أحمد بن فهد العنقري، الرياض - عبداللطيف أبو القسم، المدينة المنورة.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

وعذوبة عباراتها الجميلة، وتفتح آفاقاً جديدة أمام القارئ، وتزوده بالعلم والمعرفة.

صالح عبدالله الداوود
الزلفي

مهمة للطلاب

يسرنا إعلامكم بأن مجلتكم «القافلة» تحظى باهتمام طلابنا، وإذ نهتم في الكلية العربية بتنمية ثقافتهم؛ فإننا نأمل أن تصل مجلتكم إلينا بشكل مستمر على سبيل الإهداء وذلك على العنوان المبين أدناه.
شاكرين لكم حسن تعاونكم، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

العميد الدكتور محمد عرابي نخلة
الكلية العربية، عمَّان، الأردن

القافلة: تعتز القافلة باهتمام طلابكم بها، وستصلكم بانتظام -إن شاء الله-.

قبول كبير

سعدنا جداً بإهدائكم لأننا نتوخى الفائدة والجديد من إصداراتكم، ونأمل من سعادتكم التكرم باستمرار التواصل وتزويد الكلية بإبداعات «القافلة»، المجلة العريقة المتجددة دائماً والتي تلقى القبول الكبير من كافة منسوبي الكلية.
وتفضلوا بقبول وافر المحبة والشكر وخالص الدعوات بدوام التقدم والتطور.

د. زينب عبدالعزيز السحيباني
عميدة كلية التربية - الأقسام الأدبية، بريدة

شكر

تلقيت ببالغ الشكر والامتنان نسخة من مجلتكم الموقَّرة والتي تحمل بين جنباتها أجمل وأرق الموضوعات. وإن دلَّ ذلك فإنما يدل على عطائكم المتميز وتفننكم المستمر، والشكر ممتد إلى القائمين عليها.

صالح محمد الخميس
الهفوف

للبصر والبصيرة

أفيدكم بأنني إحدى المتابعات لمجلتكم الغرَّاء وذلك عن طريق إحدى الزميلات. وقد لفت نظري أن ما ينشر فيها من علوم وتكنولوجيا هو في غاية الروعة. فجميع الأبواب شيقة تجذب القارئ إلى تصفح المجلة من الغلاف إلى الغلاف. ولا يكتفي بذلك، بل يحتفظ بالنسخة للرجوع إليها، لأنها كالذهب إذا لم تكن أثمن. إذا صحَّ التعبير لأن العلوم هي التي تنير البصر والبصيرة.
وأرجو المعذرة على الإطالة، ولكن أنتم تستحقون أكثر من ذلك.
لذا آمل التفضل بعد قراءة رسالتي أن أكون من مشتركي هذه المجلة الموقرة.

المعلمة منيرة محمد المطلق
الهفوف

القافلة: أحلنا اسمك وعنوانك إلى قسم الاشتراكات، وستصلك المجلة بانتظام -إن شاء الله-.

ياولدي

للخير والحق عش دنياك يا ولدي
عن منهج الحق في يومٍ فلا تحد
وكن طموحاً لنيل المجد مرتقياً
وصافح النجم في العليا يداً بيد
لا تركنن لآمال تقول بها:
عساي أحظى، لعل، غداً، وبعد غد
واقنع برزقٍ أتى لا تغْلُ في طمع
لكن من العلم لا تقنع بل استزد
وبه ففاخر إذا جاوزت أبحره
فالمجد للفكر والإنسان لا العَمَد
كالغيث للأرض لا تحيا بغير حَيَا
كذلك العلم مثل الروح للجسد
والنفس تغنى بغير المال تسعد إذ
ليس الغنى دائماً في المال والعدد
ذو الفقر ليس تعيساً في الحياة كما
لا ليس دوماً سعيداً صاحب الرغد
إن السعادة أن ترضى بما قسمتْ
يد الكريم، وعدلُ الواهب الصمد

أحمد بشار بركات
حماة، سورية

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

القصة القصيرة جداً.. تطور لفن الخبر في التراث العربي

إن المتتبع للمشهد القصصي العربي من جوانبه المختلفة يجد أن القصة القصيرة جداً أصبحت الآن واقعاً ملموساً ومتميزاً، وأنها تحتل مكان خاصة في هذا المشهد، وأن المبدعين العرب قد ولجوا هذا المجال منذ مدة طويلة، فأصبح المصطلح راسخاً في المشهد الأدبي المعاصر.

وإن كنا لا نرى توصيف «قصص قصيرة جداً» عبارة ظاهرة على غلاف عدد كبير من المجموعات القصصية على الساحة الأدبية العربية اليوم، إلا أن معظم المجموعات القصصية التي تحتويها المكتبة الآن تحتفي بهذه الصيغة من الكتابة.

فالتجريب في هذا المجال أضحى من الأركان الأساسية لدى معظم كتَّاب القصة العرب، كتَّاباً كانوا أم كاتبات. وقد لقي صدى قوياً على مستوى النشر في الدوريات المختلفة لاعتبارات التكثيف الشديد في حجم القصة وانطباعاتها الموحية والدالة لدى القرَّاء.

لكن هناك بعض الحذر الذي يمنع كُتَّابها من نشر مجموعات خاصة تقتصر على هذا الجنس الأدبي وحده. فيفضِّلون أن يعرضوا تجاربهم فيها منثورة وسط إنتاجهم من القصة القصيرة التقليدية، لأن هناك مشكلة يواجهها هذا الجنس الأدبي، وهي أن هذا اللون من الكتابة لا يحظى بالقبول الكافي والمطلق لدى بعض كبار الكُتَّاب والنقاد، ويقفون حجر عثرة أمامه ويرفضون الاعتراف به، وكأنهم يمثلون الحرس الحديدي القديم أمام التغيرات التي يمر بها القالب التقليدي للسرد القصصي.

كيف ظهرت القصة القصيرة جداً؟

في بداية القرن العشرين ظهرت القصة القصيرة، ومن بعدها ظهرت الأقصوصة، على يد الأديب والقاص المصري محمود تيمور. وفي نهاية السبعينيات وأوائل الثمانينيات الميلادية من القرن الماضي عاد هذا الفن -القصص القصيرة جداً- على يد القاص المصري الدكتور محمد المخزنجي والكاتبة الصحفية سناء البيسي. المخزنجي في مجموعاته القصصية «الآتي»، و«رشق السكين»، و«الموت يضحك»، و«أوتار الماء»، و«الغزلان تطير»، و«سفر». والبيسي في مجموعتيها «في الهواء الطلق»، و«هو وهي». ومن ثم انتشرت وأصبحت فناً قصصياً قائماً بذاته.

تعتمد القصة القصيرة جداً على العناصر نفسها التي تعتمد عليها القصة القصيرة الأم، من شخصيات وأحداث وزمان ومكان وحبكة ونهاية، ولكن القاص هنا يستخدم عدداً محدوداً للغاية من الكلمات. ويذكر الدكتور حسين محمد علي في دراسته «القصة القصيرة جداً ..قراءة في التشكيل والرؤية» أن هذه القصة تطور لفن الخبر في التراث العربي، وخاصة تلك الأخبار أو الحكايات القصيرة التي كانت تجمع بين السخرية والمفارقة. كالأخبار الواردة في كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي». وذكر الدكتور حسين أمثلة من هذه الأخبار نورد منها مثالاً ورد عن الكتاب السالف الذكر:

«حُكي أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً، فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل، فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شر عمال: يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما وليَ العراق شر منه، قبحه الله، وقبح من استعمله! قال: أتعرف من أنا؟ قال:لا. قال: أنا الحجاج! قال: جُعلت فداك! أو تعرف من أنا؟ قال: لا. قال: فلان بن فلان، مجنون بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين. قال: فضحك الحجاج منه، وأمر له بصلة».

من صفات القصة القصيرة جداً

هناك صفات ملتصقة أكثر بالقصة القصيرة جداً نعدها من السمات الخاصة بها. فهي تعبِّر عن الإنسان العادي في الخبر، وتنفي البطولة الواحدة، فكل شخصيات القصة أبطال، ليس منهم من تستطيع أن تصمه بالثانوية؛ لأن القصة القصيرة جداً تتخلى عن كل زائد لتبقي الضروري. وأهم عنصر متحكم في القصة القصيرة جداً بالإضافة إلى التفاصيل البنائية كعدد الكلمات هو المفارقة. أما كلمة (جداً) المضافة إلى وصفها (القصة القصيرة جداً) فهي لزيادة التعريف. والقصة القصيرة جداً هي ابنة هذا العصر الذي يتسم بسرعة الإيقاع وثورة الاتصالات وتحول العالم إلى قرية كونية واحدة.. وهي أيضاً نوع من التجديد الذي يحاول أن يرتاد أفقاً جديداً بعد أن تعود القرَّاء على الرواية الطويلة والقصة القصيرة والأقصوصة المتوسطة الطول. وهي -القصة القصيرة جداً- سلعة سهلة التداول لأنها لا تستغرق حيزاً مكانياً كبيراً ومن ثم يسهل نشرها على صفحات الكتب والمجلات.

سهير أبوبكر عبد الوهاب الشاذلي

طنطا- مصر

تعقيباً على مقال «القصة القصيرة جداً.. من التبعية نحو الاستقلال»

«القافلة» عدد مارس-أبريل 2010

حول

هل الصورة تغني عن ألف كلمة؟

لم تعد الصورة مجرد تسجيل لحدث ما في زمان ومكان محددين، بل تحوَّلت إلى فن متطور يجسِّد أفكاراً معينة ومشاعر دقيقة، شأنها شأن أي فن إبداعي آخر.

ويرى البعض أن للصورة قيمة عالية من الصدق. فهي ترصد الحركات التلقائية، والقيم الجمالية المحيطة بنا، حيث تتوحد الكاميرا بلحظة عناق إبداعي ما بين الحس الفطري والموهبة الفنية، فتخرج عندها اللقطة المهمة التي تحتاج إلى إعداد ومعاناة، وأحياناً إلى تفرغ الفنان وترحاله.

لقد بدأت تترسخ في الوطن العربي جملة من التقاليد في الحياة الثقافية، من بينها ظاهرة الاهتمام بالصورة التي ظلَّت إلى حين أسيرة الحرف والفن التطبيقي، ولكنها أخذت الآن تتدرج بالصعود إلى رحاب الفن الخلاق المبدع.

فالصورة المتقنة تنفيذاً والمنفردة حدثاً وتعبيراً أصبحت اليوم مادة أساسية مطلوبة بإلحاح. وهي من أهم لغات التعبير في عصرنا، وذلك لما لها من قوة تأثير مباشرة. فهي تفرض نفسها على الجميع.

إن الصورة لغة تعبِّر من خلالها مكنونات الإنسان المكتظة بالكثير، وهي بالتأكيد لا تنضب أبداً. ومع ولادتها ولد نوع جديد من الثقافة. إن قرار المثقف بقيمة الصورة، وأخذه لها بنفس الجدية التي يأخذ بها الكتابة لأمر مهم جداً، فالصورة لا تناقش القضايا العقلية فقط، لكنها تؤثر أيضاً على مراكز الأعصاب والمزاج والنفس.

فقد باتت الصورة أشبه بالقنبلة التي يمكن لأي شخص أن يفجرها. ولربما حان الوقت الآن للاهتمام بخطورتها. فالجمهور يدين بالكثير من معلوماته للصورة التي لا تعكس -بالضرورة- الحقيقة كما هي، رغم أنه يأخذها كعين الحقيقة.

لم يتردد الفنان الرومانتيكي ديلاكروا (1798 - 1863م) وهو يدنو من مشارف الشيخوخة، أن يهتف من أعماق قلبه لأحدث الاكتشافات على عهده: (آلة التصوير). وهذا الفنان لم يلجأ إلى نقل الصورة، بل كان يتأملها بعمق ويدرس تكوينها ويبحث عمَّا لا تستطيع العين أن تلتقطه من عالم المرئيات، وخاصة الجانب الحركي الذي كان يستأثر باهتمامه الكبير. ويعلِّق ديلاكروا أهمية كبرى على ضرورة وجود ذلك الإحساس في الصورة التي تعجز الكلمات عن التعبير عنها.

علي السياب

فيكتوريا - أستراليا

تعقيباً على مقال «الصورة.. كم كلمة تساوي فعلاً؟»، «القافلة» عدد نوفمبر-ديسمبر 2008



وكأن شيئاً لم يكن

بعد يوم واحد من نهاية بطولة العالم في كرة القدم التي أقيمت في جنوب إفريقيا، كان هناك خبر واحد في وسائل الإعلام يتعلَّق بتكريم الفريق الإسباني الفائز بالبطولة في وطنه بعد عودته إليه بكأس العالم.

وبعد يومين، لم يكن هناك أي خبر.. ولو عدنا بذاكرتنا قليلاً إلى الوراء، إلى تلك الليالي التي تابعنا فيها بشغف مجريات المباريات، ولو استعدنا تعليقات المعلقين، لكانت كلمة «التاريخ» هي المفردة الأولى التي تقفز إلى أذهاننا لكثرة ما سمعناها تتكرر على ألسنة المعلِّقين.

فقد ربط بعضهم، على سبيل المثال، بين تاريخ الباراغواي ومسار مباراة منتخبها، وطمأننا إلى أن هذه الدولة لن تزول من الوجود نتيجة لمسار المباراة مؤكداً بلهجة جازمة «أن الباراغواي ستبقى الباراغواي، ولكن التاريخ يُكتب الآن..». وربط بعضهم بين «تاريخ» إفريقيا (القارة بكاملها) بالنتيجة التي يمكن أن يحققها منتخب غانا، وأكثر من ذلك رُبط تاريخ القارة بركلة الجزاء (التي أهدرها اللاعب الغاني لاحقاً)..

وعلى المنوال نفسه رُبط «تاريخ» هولندا وإسبانيا وغيرهما من البلدان بأداء منتخباتها في هذه البطولة. وانتهت مباريات البطولة. فلا إسبانيا تربعت على رئاسة الاتحاد الأوروبي بسبب فوزها، ولا تغيَّر شيء في المشكلات العديدة التي تتخبط فيها إفريقيا بسبب خسارة منتخب غانا..

نعم، لقد صاغ المونديال جزءاً (محدوداً) من تاريخ العالم على مدى شهر كامل، بسبب المتابعة التي حظي بها من كافة أصقاع الأرض وشغف شعوب العالم بلعبة كرة القدم، وضخامة الإعداد والتنظيم. ولكن..

هناك معلِّقون يعتقدون أن مهمتهم إثارة حماسة الجماهير ومتابعي المباريات على شاشة التلفزيون، وكأن هذه المباريات ليست مثيرة بحد ذاتها، أو كأنها لن تكتسب أهميتها الحقيقية من دون أن يضيف إليها تقييمهم لها مزيداً من القيمة، فيلجأون إلى تضخيم الأمور، ويستخدمون عبارات طنانة ورنانة تكاد تكون مضحكة.. وكيف لا نضحك عندما تخرج الكرة من الملعب نتيجة تمريرة طويلة فيقول المعلق إنها وصلت إلى «مدرجات التاريخ».

من حق المعلقين أن يعتقدوا ما يشاءون حول دورهم ومهمتهم. ولكن أليس من حقنا ومن حق العقل والمنطق أن نطلب منهم إبقاء عواطفهم وخيالاتهم ضمن حدود معقولة كي يكونوا مقنعين أكثر؟

أذكر أن «القافلة» نشرت قبل بضع سنوات موضوعاً عن المعلِّقين الرياضيين العرب. وعلى الرغم من أنني لم أعد أذكر جيداً كل ما جاء فيه، فإنني على يقين من أن فن التعليق كان في الماضي أفضل مما هو عليه الآن.

يمكن للبعض أن يقول إن هذه هي مهنة المعلِّق، وإن الأمر لا يختلف في أي بلد من بلدان العالم، وخاصة في البلدان المشاركة في المباريات عندما تتابع منتخباتها. ولكن ألا يكشف المثل الذي سقناه حول «التاريخ» أننا نعاني من مشكلة قد لا يكون المعلِّقون الرياضيون مسؤولين عنها، بل إنها وصلتهم من بيئة أوسع.. بيئتنا نحن، واستخفافنا بقيمة الكلمة وبمعناها الحقيقي..

فأي تاريخ كتب في جنوب إفريقيا، غير تاريخ منشآتها الرياضية؟ علينا أن نتطلع اليوم من حولنا لنعرف الجواب.. إن هذا المهرجان برمته على ضخامته وجاذبيته والضجيج العالمي الذي صاحبه.. يبدو الآن وكأنه لم يكن.

سالم العطار

دمشق

تعقيباً على مقال «التعصُّب الرياضي»، «القافلة» عدد مايو-يونيو 2010

قافلة النشر

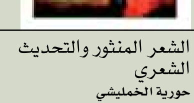
إصدارات جديدة

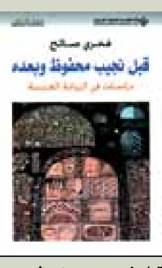
الدار العربية للعلوم ناشرون













الشعر المنثور والتحديث الشعري
حورية الخمليشي

القاهرة الصغيرة (رواية)
عمارة لخوص

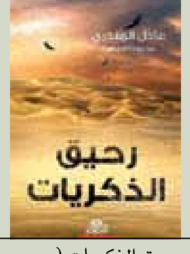
قبل نجيب محفوظ وبعده
فخري صالح

بسم الأم والابن
إبراهيم نصر الله

الكتاب بين الأمس واليوم والغد
روبرت دارنتون

دار الفكر العربي









رحيق الذكريات (مجموعة قصصية)
عادل المنذري

امرأة بكل الألوان (مجموعة قصصية)
إيمان شراب

أعناق ملتوية (مجموعة قصصية)
شروق الخالد

أوراق معلمة في مدرسة القرية
رحمة العتيبي

مكتبة جرير











الفوز في لعبة الحياة
كيفين عبدالرحمن

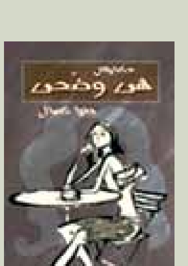
الحقيقة بشأن الكذب
ستان بي. والترز

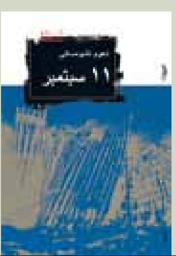
فن تنظيم كل شيء
روزالي ماجيو

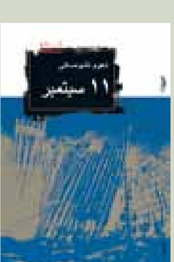
كيف تبسِّط حبك؟
ماريون كوستينماتشر، فيرنر تيكي كوستينماتشر

البيلاتس.. كل النصائح للحصول على جسد نشيط

دار ميريت للنشر











حكايتا هي وضحى
دنيا كمال

الغريب (قصائد بالمصري)
رامي يحيى

العولمة والطريق الثالث
السيد يسين

11 سبتمبر
نعوم تشومسكي

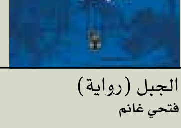
عُمق البحر (رواية)
شريف حتاتة

دار العين للنشر













هوس العبقرية.. الحياة السرية لماري كوري
باربارا جولدسميث

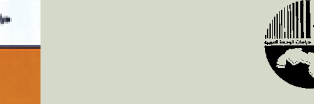
الجبل (رواية)
فتحي غانم

من الأدب التركي المعاصر
د. محمد عبداللطيف هريدي

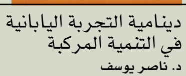
وراء الفردوس (رواية)
منصورة عزالدين

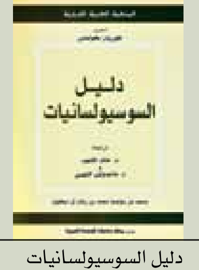
حكايات أم نهى
يوسف الشريف، فادية النجار

مركز دراسات الوحدة العربية
المنظمة العربية للترجمة











دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة
د. ناصر يوسف

رياضيات الخوارزمي.. تأسيس علم الجبر
د. رشدي راشد

دليل السوسيولسانيات
فلوريان كولماس

النظرية النحوية
جيفري بوول

تأويل الثقافات
كليفورد غيرتز

المؤسسة العربية للدراسات والنشر















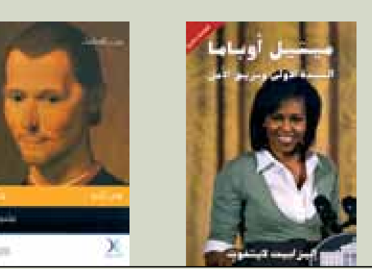
القطيعة (رواية)
خليل النعيمي

شجاعة العقل (دراسة)
حاتم بن عبدالله الزهراني

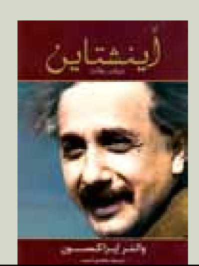
بالخط العريض.. أوراق في أحوال العرب
شاكر النابلسي

هندسة أقل.. خرائط أقل
أمين صالح

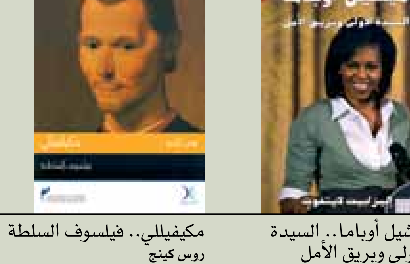
كلمات عربية











أينشتاين.. حياته وعالمه
والتر إيزاكسون

ميشيل أوباما.. السيدة الأولى وبريق الأمل
إليزابيث لايتفوت

مكيفيللي.. فيلسوف السلطة
روس كينغ

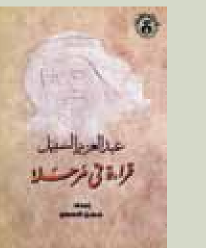
عصر الآلات الرُّوحية
راي كيرزويل

كتب متفرقة

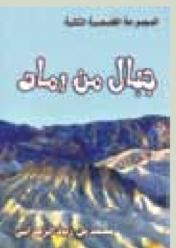














تهريب أبيات الشعر - قافلة الشعر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر / فنديز هورن

الدراما التلفزيونية، أساسيات الإنتاج ومعايير العرض
د. عبدالعزيز بن حمد الحسن

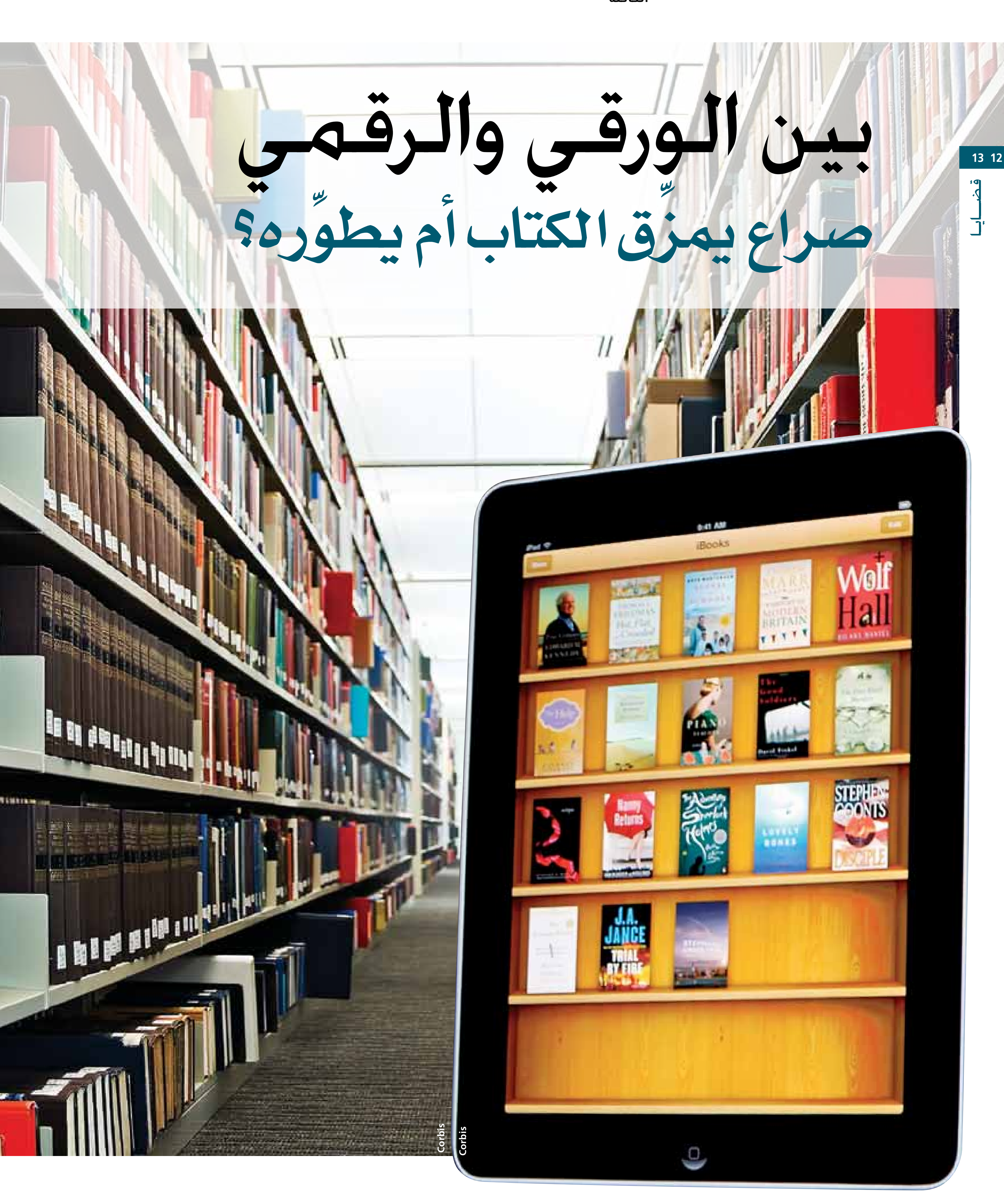
عبدالعزيز السبيل.. قراءة في مرحلة
حسن النعمي

ليلٌ ثقيل على الليل (شعر)
نجوم الغانم

جبال من رماد (قصص)
محمد بن زياد الزهراني

بين الورقي والرقمي

صراع يمزِّق الكتاب أم يطوِّره؟



Corbis

Corbis



التكهنات التي أطلقت في أواخر القرن العشرين والقائلة بأن التكنولوجيا الرقمية وشبكة الإنترنت تحديداً ستقضي على الكتاب المطبوع على الورق لصالح الكتاب الرقمي، تبدو أنها كانت مندفعة بعض الشيء، على الأقل حتى وقتنا الحاضر.

فعلى الرغم من التطور الكبير الذي تحقَّق في مجال صناعة الكتاب الرقمي، لا يزال الكتاب الورقي حاضراً، يُنتج ويسوَّق وكأن شيئاً لم يكن من حوله. وإذا كان هناك من صراع بين الورقي والرقمي، فالمؤكد أن الكتاب الورقي لا يزال محصناً في عرينه التقليدي القائم أساساً على اعتياد الناس عليه وعلى صيغته المألوفة والمحببة منذ مئات السنين، في حين أن حراكاً صاخباً وعنيفاً يشهده الخندق المقابل.. خندق الكتاب الرقمي والشركات الساعية إلى تطويره أملاً في انتزاع حصة من سوق الكتاب التقليدي الكبير.

فاضل التركي يتناول ما تشهده الساحة حالياً من عمليات تطوير متتابعة للكتاب الرقمي، والحراك الكبير القائم في الشركات المنتجة له، وآخر ما توصلت إليه في هذا المجال، حيث يبدو أن مقاييس تحسين الكتاب الرقمي هو جعله يبدو أقرب ما يمكن إلى الكتاب التقليدي. فلماذا تكبد كل هذا العناء للانتقال من الكتاب الورقي إلى الكتاب الرقمي؟..

الأجوبة كثيرة.



- أنا لا أحب أن أقرأ من الشاشة.. وأفضِّل الطباعة ثم القراءة!

- لكنك لا تستطيع أن تبحث بضغطة زر في المطبوع، ولا أن تصغِّر أو تكبِّر ولا ولا!

- القراءة من الشاشة شاقة على العينين ومتعبة.

- هناك أجهزة الكتب الإلكترونية التي لا تشع ضوءاً وتعمل بالحبر الإلكتروني، نأخذها إلى أي مكان مثل أي كتاب.. وتحمل مئات الكتب.

- يكفيك حديثاً عن الأجهزة والكتب الإلكترونية والمسموعة والمرئية.. كلها ستذهب ويبقى الكتاب التقليدي..

هكذا يمضي الجدل الذي لا ينتهي عن مصير الكتاب الذي نعزّ ونكرم ونعشق. الكتاب، خير جليس، بقية ما بقي طيلة هذه القرون، نشمُّه ونضمُّه، ونرحل عبره إلى عوالم الفكر والعلم والإبداع والأسئلة؛ إلى أزمنة وأمكنة وأنساقٍ وأذواقٍ شتى.

أما تقنيته فقد ظلت لقرون هي نفسها، مجموعة أوراق سُطِّرت، قُصَّت في حجم واحد، ورقِّمت وربطت إلى حزام وجمعت بين غلاف وغلاف. ولربما كانت هذه البساطة، بوابة للغور في الأعماق ومدعاة لسفرنا بين شاطئين نتقلب بين أمواجهما!

مشاعر مختلطة تعتري عشاق الكتب الذين لا يكفُّون عن حملها معهم أينما ذهبوا، يتحدثون مع ذويهم وأقرانهم عنها، عمَّا بين صفحاتها من فكر وإبداع وعوالم الماضي والحاضر والمستقبل، عوالم الأسئلة والآراء، المعارف والحوارات والحكي والفن.

مشاعر مختلطة تعتريهم وهم يرون الكتب تتغير أوجهها وجلودها وطبيعتها. كل ما حولنا ينبئ بكتب بلا رائحة ولا ملمس، ولا بياض ولا صفرة، ولا بقية من حياتنا اليومية،

أثـراً مـن قهـوة هنـا وأثـراً هنـاك، ولا جلـودَ ولا علاماتٍ وفهارس ومسارد.

كـم ملأت علينا بيوتنـا ومكاتبنا، بنسخ مكـررة! ألن نشعر بالوحشـة لو تخلينـا عن كتبنا.. وأصبحنـا نملكها ولكننا لا نراهـا تؤنس وحشتنـا وتملأ علينـا الأركان؟ كيف سنذهب إلـى مكتبة عامـة أو دار للكتب لنتعرف إلـى أصدقاء جدد نصافحهم ونقرأهم فور اللقاء؟

اليـوم، نأخـذ كتابنا معنا أينمـا ذهبنا، لا يزعجنـا ثقله ولا ألمـه. نجلس إلـى الطاولة التي يغيب عنهـا كل شيء إلا قلم وأوراق وكـوب شـاي أو قهـوة. ومهمـا اكتظـت الأشياء حول كتابنـا، فلا نشعر بشيء بعدها إلا سريان الفكر ومتعة العقل والروح، حتى ننتبه إلى حلول الوقت لوضع العلامة في مكانها لنغفو قليلاً قبل أن نعيد التقاطه من جديد. لا يزعجنا النظر فـي المسرد، أو البحـث في كتب بلا مسارد عـن نص ملهم أو فكـرة حرجة توقفنا عندها، نراهن على وجودها، ونمضي الوقتَ بحثاً عن أثر لها في مكان ما على اليسار أو اليمين.

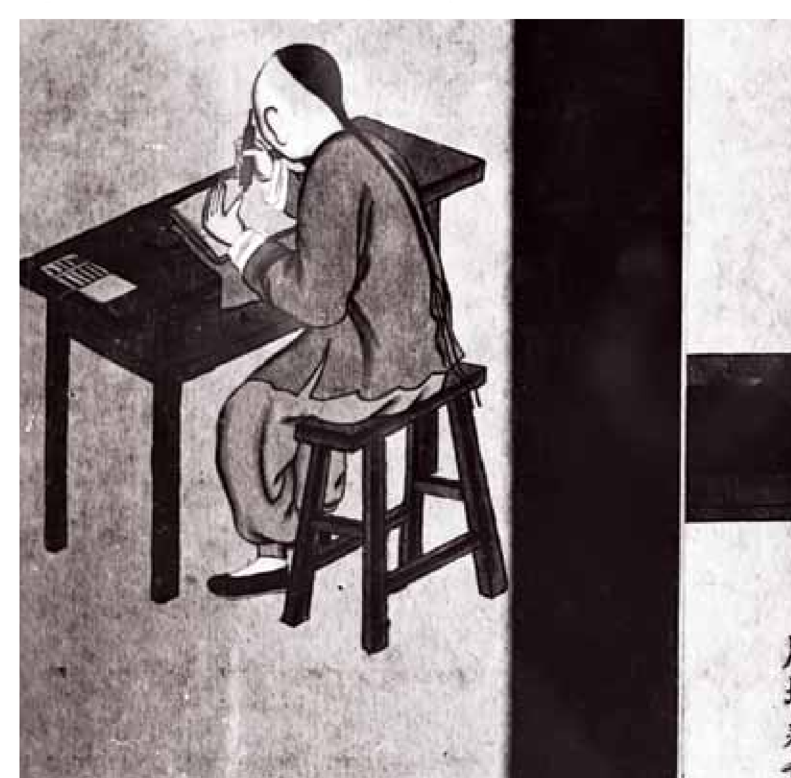
لنتابـع معاً ما الذي حدث والذي يحدث للكتاب؟ كيف وصل الكتـاب إلى هذا الشكل التقليـدي، وإلى أين يتجه؟ لنسأل: ما هي إمكانات اليوم وإمكانات الغد وعادات اليوم وعادات الغد وما هي الطموحات والمخاوف؟

ما الذي يحدث هذه الأيام؟

منذ عام 1971م، حين ظهر مشروع غوتنبرغ لرقمنة الكتب ذات الملكيـة العامة، بدأ توجه لا محيـد عنه نحو ظهور ما يسمَّـى بالكتاب الإلكتروني أو الرقمـي. لم نعد نتحدث عن صـورة لكتاب تم مسحه، ورقيّ في شكل ملف، بل عن صيغة جديدة تبتعد بنا عن كتابنا التقليدي.


Corbis




Corbis

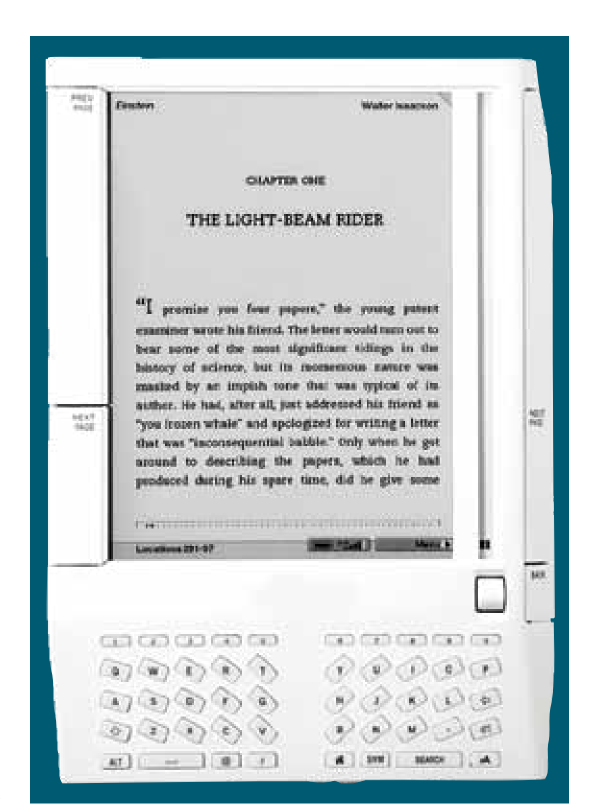
الكتاب الورقي.. هل عاش بما فيه الكفاية؟

بدأ هذا المشـروع، وتوالت المبادرات في توفير كتب رقمية علـى أسطوانات ووسائط التخزين الأخرى. ثم بدأت تظهر الحاجـة إلـى برامج لقـراءة الكتـب الرقميـة وتصفحها. برامـج لحماية حقوق الملكية والنسـخ والتوزيع وللمساعدة فـي التصفـح والبحـث والقـراءة. ثـم ظهـرت الكتب على الإنترنت بحلول عام 1993م، وكانت هيمنة الكتب الرقمية آنذاك احتمالاً غير وارد.

هل آن أوان أجهزة مصممة خصيصاً لقراءة الكتب، كتب لم تُطبع، نتصفحها ونقرأها ونبحث فيها؟

لكـن، سرعـان مـا بـدأت الكتـب الرقمية تكتسـب احترامـاً أسوة بالكتـب التقليدية! وشرعت الطموحات في تصور كتب مقروءة بالصـوت مزينة بالصور والألوان والميديا. أصبـح هنـاك توجه لبيـع الكتـب الرقمية وسوق يتبلور فـي يوم كانت هذه الكتب تُقرأ علـى الحواسيب الشخصية. ثـم آن أوان أجهـزة مصممة خصيصـاً لقـراءة الكتـب، وكان لنا أن نتصـوَّر بين أيدينا كتاباً لم يُطبعْ، نتصفحه ونقرأه ونبحث فيه بين أيدينا.

مـع توافر التقنية وتوافر الأجهـزة والحواسيب بكلفة قليلة، وتوافـر الأجهـزة فـي الجامعـات والمؤسسـات والمكتبات العامـة والبيوت، أصبحت الطموحـات والإمكانات الخاصة بالعتـاد والبرمجيات أكثر وأكبر. صـار بإمكاننا أن نتصور كتباً بلا وزن ولا رائحة، كتباً تنسخ، كتباً مجانية وكتباً تطبع حسب الحاجة؛ تطلب للطباعة في حلة قشيبة ساخنة وقتما نريد بثمن زهيد. لم تعد الكتبُ الكتبَ، ولا الموادُّ هي الموادَ



هل يشبه الكتاب فعلاً؟

التقليديـة؛ لقد تغيَّـر كل شيء. لكن هل تغيَّـر كل شيء إلى الأبد؟ هل هو طريق بلا رجعة؟

كيف وصلنا الكتاب التقليدي؟

لنرجع قليـلاً إلى الـوراء نتابع تقنية الكتـب التقليدية منذ البدايـة ولنـرَ كيـف وصلنا مـا نطلق عليـه اسـم «الكتاب التقليـدي». لقـد تلى زمـن الكتابة علـى الحجـارة وأوراق النبات والخشب والحرير وألواح الطين، ظهور ورق البردي فـي مصر بتقنيـة متقدمة نسبيـاً على كل مـا سبقها. لكن الصينيين جاءوا باختـراع الورق في القرن الأول الميلادي واخترعـوا معـه الطباعة بقطـع الخشب. أمـا العرب، فقد تعلَّمـوا صناعـة الورق مـن الصينييـن ثم خلقـوا ثورة في صناعة الكتاب الذي اتخذ الشكل الذي نراه عليه اليوم.

لقـد تطوَّر لـدى العرب فن الخط والتزييـن وتجليد الكتب. وظهـرت عندهـم طائفة مـن الحرفيين أطلـق عليهم اسم «الورَّاقين» و«الكتبيّين». وتـم إنتاج نسخ من الكتب بكميات كبيرة بعد أن كان كل كتاب ينتج على حدة. لقد طوَّر العرب هـذه الصناعـة حتـى تمكنوا مـن صناعة نسخ مـن الكتب بطريقة معتمدة بكميات كبيـرة. كان ذلك بطريقة الإملاء حيـث يملي المؤلف أو الناسخ علـى الورَّاقين أو الخطاطين النصـ وهم يكتبـون فوراً، الأمـر الـذي كان يضمن وحدة النصـ المكتوب، ويضمن توافق كل النسخ بطريقة معيارية أوليـة. ومهَّـد هـذا إلى ظاهـرة صناعـة الكتـب وتداولها وتجارتهـا. وفي مدن قرب مراكش وُجدَ شارع باسم الكُتُبيِّة ومسجدٌ باسـم مسجد الكتبيـة، وكان في ذلـك الشارع ما يقرب من 100 مكتبة.

ثـم ظهرت فنـون الطباعـة وتقنياتها البدائيـة ولحقت بها المتطـورة، وكَثُرت النسـخ. ومرَّ زمن، وتطـورت الصناعة والتقنيـة، وتطور معها شـكل الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم. اختلفت الأحجام وجودة الورق والتزيين والخفة والثقـل والتجليد واستخـدام النصوص والرسـوم والصور والألـوان العاليـة. وفـي العقـود الأخيرة، تم إدمـاج الكتب بسماعـات وأجهزة إلكترونية داعمة وتم تعطيرها وتزيينها بقطع تعزف الموسيقى. أما كتب الأطفال، فقد زادها مرحاً بعض الألعاب الملحقة بها في حالات معيَّنة.

لكـن كل هذا لم يخرجنا من إطـار الكتاب التقليدي. فأول عتبـة على سلم الرقمنة، كانت في مسح الكتب كصورة في ملف إلكترونـي ثم صف وكتابة الكتـاب وإدخاله إلكترونياً فـي الحاسـوب. وفـي أواخـر القـرن العشريـن، فوجئنـا بظاهـرة الانفجار المعلوماتي الذي لـم ينقذ البشرية منه إلا عبورهـا إلـى الصيغـة الرقمية. وحين دخلـت البشرية إلى هـذه الصيغة الرقميـة، توافرت على شبكـة الإنترنت

ووسائـل التخزين كتب لم نضطر إلى طباعتها. وظلت هذه الكتب خارج المكتبات التقليديـة. الأمر الذي أوجد حاجة إلى توفيـر طرق لقراءتهـا وتداولها واستعارتهـا وشرائها وطباعتهـا عند الحاجة. بعبارة أخـرى، الحاجة إلى إنشاء سوق للكتاب الإلكتروني.

أين نتجه؟

بـدأ الكتاب الرقمي أو الإلكتروني في دخول عالمنا عندما مسحنـا وصوَّرنـا الكتاب التقليدي، وعندمـا قمنا بإدخال النص إلـى الحاسوب. ثـم ظهـرت أجهـزة متخصصة فـي قـراءة الكتب، لكـن كل هــذه الجهود لـم تخـرج الكتـاب مـن هيئتــه التقليدية التي مـا زلنا نتمسـك بها حتى اليـوم. إن رسـوخ مفهـوم الكتاب فـي أذهاننـا طيلة هــذه القرون أبقانـا متمسكين بـه. وقد لا يكـون ذلك غريبـاً ولا مدهشاً، وربما يكون المدهش أن يبقى الكتاب طيلة هذه القرون قائماً على تقنية لم تتغيَّر وسط كل ما تطوَّر وتبدَّل في مناحي الحياة مـن وسائل وتقنيات واختراعات وتسهيلات!

> **لم يتبدَّل الكتاب ظاهرياً، ولكن طارئاً طرأ على طريقة القراءة وتحصيل المعرفة**

بين الماضي والحاضر

لـم يتبدَّل الكتاب ظاهرياً كثيراً، لكن هناك ظواهر لم تكن فـي الحسبان، ومنها التغيـر في العـادات وطريقة التعامل مـع الكتب وتداولها. فهناك طارئ طرأ على طريقة القراءة وتحصيـل المعرفـة وإنتاجهـا. لقـد تبـدَّل كل شـيء حول الكتـاب، إلا شكلـه السهل الممتنـع الساحـر العملي. نقول «العملي»، وليكن ذلك حتى حين.

في الماضي، كان بإمكاننا أن نستشعر شخصية الكتاب من ثقلـه ولون الورق وجـودة الطباعة والرسومـات والزخرفة. نتصوَّر الكتاب واسمنا مكتوباً عليه مقروناً بالتاريخ والمكان والسعر أو مقرونـاً بالإهداء والتوقيع. لقد كنا نستمتع بتلك الكتب التـي خلت من كل شيء إلا نص حيّ، أو تلك المزينة والمليئـة بالرسومات والألوان والصـور ذات الدقة العالية. لقد كنـا نستعين باختراع اسمه المســارد، حيث نذهب في المسرد إلى كلمة أو فكرة واسم علمٍ، ثم نرجع إلى الصفحة برقمها في المسرد، ولا نستغني عن التطلع هنا وهناك بحثاً في الصفحة التي دلَّتنا عليها المسرد إلى ما نريد. الفهرس والمســرد والمحتويات وإيضاحات المؤلـف لأسرار الكتاب فـي المقدمـة والخاتمة كان يسعـف أحياناً. وقـد يساعدنا فـي تحصيل الأشكال والرسومات وجـود فهرس لها. ورغم إسهـام الحاسـوب وتقـدم التقنيات فـي تطويـر المسارد وجعلهـا أكثـر شمولية إلا أننـا حتماً، سنحتـاج إلى خبرتنا ومِراسنا في القراءة في تحصيل ما ضاع بين كل هذا.

لقـد تعودنـا علـى إمسـاك الكتب بطـرق معيَّنـة والجلوس والقـراءة فـي أوضـاع محـددة. ومهمـا تطـوَّرت القــراءة وأساليبهـا سواء أكانت سريعـة، أو استكشافية، أو بحثية أو تفصيلية متأنيـة، فهي محكومة بخبرتنـا ومراسنا وحركة العيـن وإمسـاك اليد وعـادات أخذ الملاحظـات والتفكير والتحليـل أو التـذوق السريع. كل شـيء كان محكوماً بقيود فيزيائية.

أما اليوم، فمع لوحـة المفاتيح وقدرتنا على الكتابة بسرعة تضاهي ما نستطيـع بالقلم والورقة بكل مهارات الاختصار وأخـذ الملاحظات -هذا لو تحدثنا عن لوحة مفاتيح وفأرة



وحسب- فإننا نستخدم تقنيات بدأت تتدفَّق إلى عالم القراءة الرقمية، أصبحنا نفتقدها في نفس الوقت إن التفتنا إلى كتاب تقليدي بجوارنا. إنه يُمكِّننا من البحث عن أية كلمة بلا حاجة إلى إجهاد أعيننا وتسخير تركيزنا وكامل وعينا. ثم يظللها لنا الحاسوب فوراً دون الحاجة إلى مسرد ولا إلى بحث في الصفحة ذات العلاقة بعد أن نظهرها في المسرد. إن هذه الإمكانية بحد ذاتها ولوحدها جعلتنا نغيِّر طريقة القراءة واستخدامنا للوقت.

أصبحت متصفحات الإنترنت منذ زمن تظلِّل كل كلمة بلون مختلف وتظهر أدوات الترجمة الفورية، فضلاً عن الروابط الحيّة التي تدلك إلى مثيلات هذه الفكرة أو مواقع ذات صلة بهذا الموضوع. إذ يمكن اليوم البحث عن جملة أو كلمة، ويستخرج لنا الحاسوب كل ما له علاقة في متن الكتاب وما ارتبط به من جمل وكلمات تحمل المعنى نفسه وترتبط به. هذا فضلاً عن أنه يمكن أخذ الملاحظات وكتابتها وتبادلها ومناقشتها مع الآخرين. ويمكننا وضع علامات للرجوع لاحقاً إليها، كما يمكن نسخ ولصق المحتوى وتزيينه وتغيير مظهره ويمكننا إنتاج مواد نحتاجها لتصميم العروض وللبحث والكتابة. لقد تغيَّر كل شيء.

> **إذا كانت غاية الكتاب الرقمي الاقتراب حتى أكثر حد ممكن من الورقي، فما هو مبرِّر تطويره؟**

كنا نحاذر من استعباد الكتاب لنا بقراءة كل حرف فيه وكل كلمة وكل مقطع صفحةً صفحةً وسطراً سطراً. قليلٌ منا يتقن الخروج من هذه السيطرة تحت رحمة الكتاب التقليدي.

لكننا في هذا العالم الرقمي، بالطبيعة، قد خرجنا منها وأصبح علينا أن نتعلَّم عادات جديدة للقراءة الجيدة في عالم فوضوي، رحب زخم، يمكِّننا من القفز فوق الأسطر والمحتويات بكل أنواعها. أصبحت تواجهنا صعوبات أخرى تتعلَّق بالتركيز والتحصيل والشعور بالانتهاء من القراءة. لقد أدى كل هذا إلى ظهور حالات لم نعهدها من قبل. هل أصبحنا قليلي القراءة أم كثيريها؟ هل أصبحنا نختار، أم نضيع وسط كل هذا الزخم؟ هل تترسخ المعلومة أكثر في أذهاننا أم لا؟ هل ماتت «القراءة» كما يدعي البعض؟

مواقع للقراءة والتأليف

إضافة إلى التقنيات التي ذكرناها سابقاً، فإن هناك اتجاهات جديدة تُسلك بالكتب والصحف والإنتاج الفكري والأدبي، سبلًا جديدة في القراءة والكتابة والتفاعل الاجتماعي يتعدَّى القراءة إلى التأليف. فقد تم تصميم وإخراج مواقع لبيع الكتب وعرضها على الإنترنت بمقابل وبدون مقابل. أصبح في مقدور مجموعة من القرَّاء قراءة مادة واحدة والتعليق عليها والتفاعل من خلالها. كما أصبح هناك من المؤلفين من ينتج مادته فصلاً فصلاً ويعرضها على القرَّاء الأذكياء والخبراء للتفاعل والدردشة عن المحتوى وتلقي التعليقات، ويتأثر بذلك، ويغير مساره ويضيف ويبدل في قديم ما نشر وجديده. ويمكن التجول في موقع «بوك غلوتن» (www.bookglutton.com) الرائد للتمتع بهذه الخبرة الجديدة. يوفر هذا الموقع مجالاً للقراءة الجماعية، وهامشاً للقرَّاء للدردشة وترك التعليقات والتواصل مع المؤلفين وباقي المتصفحين من ذوي الاهتمامات المشتركة. وبهذا، أصبح في مقدورنا


Corbis



علي أحمد الأحمد

كل هذه الكتب في الجيب

أن نقيِّم الكتب بمقياس آخر لمعرفة الكتب الجيدة، وهو البحث عن القرَّاء الأذكياء وذوي الاهتمامات المشتركة والاطلاع على المحتوى الذي رافق قراءة هذا الكتاب أو ذاك والنقاش والتعليقات والانطباعات التي أثارها.

أما موقع «فوك» (www.vook.com)، فهو مسار آخر يُقدَّم فيه الكتاب في صيغة جديدة ويربط فيها بمادة فيديو وروابط من الإنترنت معروضة للقارئ بشكل جديد ويمكن تصفُّح هذا الكتاب على الإنترنت وعلى أجهزة الهاتف. وتقدِّم «غوغل» حالياً في مختبرها، خدمة تجريبية هي خدمة «التصفح السريع» على موقع (www.fastflip.googlelabs.com). وتشبه هذه الخدمة من «جوجل» إلى حد ما، خدمته لتصفح الأخبار وتجميعها والبحث فيها.

وهناك ظاهرة الروايات التي يطلق عليها اسم روايات الهواتف المحمولة، التي ظهرت في اليابان أول الأمر عام 2003م. وكانت الرواية تروى على شكل رسائل قصيرة ترسل إلى الهواتف. ويأتي موقع (www.textnovel.com) ليدعم هذه الموضة من الروايات. أما موقع (www.fourthstorymedia.com) فهو لشركة تطمح إلى توفير قصص وحكايات في صيغ متعددة لا تقتصر على الكتب والنصوص أو الصوت أو الفيديو، كلاً على حدة؛ ولكن كما يطيب لرواة القصص، ستوفر قصصاً وروايات تروى في صيغة تشمل أصناف الميديا المتعددة الممكنة.

عصر الآيباد

أما على صعيد الأجهزة، فهناك الحواسيب والهواتف المحمولة، وهناك أجهزة جديدة تعد بكثير من التغيير في عادات القراءة الرقمية. وهناك تلك الشبيهة بشاشات الحواسيب التي تبث الضوء في عيون القرَّاء وتعرض الكتاب بشكله التقليدي، أو بشكل مشابه للتقليدي في التصفح وتقليب الصفحات، وينطبق هذا أيضاً على الصحف الرقمية. وفي مقدمة هذه الأجهزة، يأتي جهاز شركة «أبل» المسمى «آيباد» الذي يقدِّم في أناقة حالة جديدة من القراءة، دفعاً لناشري الكتب والصحف ليسهموا في المجال التجاري الجديد. ويعمل هذا الجهاز بواسطة بطارية قد تصل قدرتها إلى عشر ساعات. وفي المقابل، هناك الأجهزة المخصصة لقراءة الكتب مثل قارئ سوني وكندل وبوكين. هذه الأجهزة تعتمد تقنية الورق والحبر الإلكتروني، وتحاول أن تقدِّم إلى مستخدميها إحساساً شبيهاً بالورق والحبر التقليدي، ولا تبث ضوءاً في عين القارئ، وإنما تُقرأ مثلما تُقرأ الكتب التقليدية، اعتماداً على الضوء المتوافر في المحيط. وتقدِّم تقنية الحبر

الإلكترونـي استهلاكاً فعالاً للبطاريـة ويصل استخدامها إلى شهور، وتمكن من قـراءة كتب كثيرة قبل أن نحتاج إلى توصيلهـا بالكهرباء لشحنها. غير أن تقنية الحبر الإلكترونـي التي تسعف البطارية تحد من قدرات هذه الأجهزة التـي تفتقر إلى الألوان والرسومات المتقدمة والمتحركة وإمكانات القراءة على الحواسيب.

فاليـوم، يتوافـر الكثيـر من الأجهـزة التي تقـرأ الكتب الرقميـة بـكل صيغهـا المختلفة وموادهـا النصية والوسائط المتعددة، وتمتد من الأجهزة الحاسوبية العاديـة إلى أجهزة الهاتف إلـى الأجهزة المتعددة الاستخـدام والأجهـزة المتخصصـة. لكننـا لـم نفلـت تماماً مـن صيغة الكتـاب التقليـدي وفكرته البسيطـة، حتى ولو بدا لنا أننا تطورنا كثيراً. وهناك من لا يستسيغ أن يبقى الكتاب الرقمي مشابهاً للكتاب التقليـدي، وبـوده أن يتغيَّـر كل شيء، لأنـه لا سبب يدعو إلى الإبقاء على هذا الشبه غير اعتياد القارئ والصانع على ذلك.

في هـذه الأجـواء من الابتـكار والتجديـد والتطوير، يجـري حراك تجـاري وتقني فـي مجال إنتـاج الكتب وتوفيرها، تتصارع فيه كبرى الشركات والمؤسسات على الاحتكار والملكية الفكرية. صراع على التقنية والوسائل والطـرق وتصميـم عـادات جديـدة للتعامـل مـع الكتب وشرائهـا. وهناك الآن إمكانيـة عرض الكتب على القرَّاء قبل شرائهـا وإمكانية البحث والاستفـادة منها مجاناً، كمـا يحدث في موقع «جوجل» للكتب وموقع «أمازون» وغيرهمـا. وهناك صراع علـى نوعيـة التقنية التي تصمم عليها هذه التجارة والكتب والصحف والمواد المقروءة والمسموعة والمرئيـة بشكل عام. وهناك تحـدٍّ من أجل إقنـاع الكُتَّاب والمؤلفيـن والناشرين والمكتبـات بدخـول هـذا العالـم الجديـد الـذي يختلف فـي نموذج الربح والعوائـد والتفاعل وتقييم المـواد المنشورة وطريقة نسخهـا وإصدارها وتوزيعها وإدارتهـا. إن الكتابَ لم يعد الكتابَ والقراءة لم تعد القراءة ولا القارئ ولا المؤلف.

هل تصبح المكتبات متاحف؟

مـا الـذي سيحـدث للمكتبـات العامـة ومكتبات الجامعـات والمكتبـات الأخـرى؟ هل ستتحـول إلى متاحف؟ هل ستحتاج إلى ثورة جديدة هي الأخرى؟ هـل سنحتاج إلى نظام إعارة جديد ونظاماً أمنياً على الكتب يقنِّن نسخها وتداولهـا والاستفادة منها؟ هل سنحتـاج إلـى وسائل جديـدة في عالـم تتغيَّر فيه طبيعـة القـراءة والمتعـة والاستفـادة؟ هناك من يحـذِّر من موت القراءة في زمن قريـب؟ هل سيحدث هذا أم أن القـراءة تحتـاج إلى ثورة جديدة فـي عالم الانفجار المعلوماتي والتقني والإبداعي؟

الانفجـار المعلوماتي والمعرفـي والإبداعي لم يعد يرهبنا. لقـد أصبح كل التـراث الإنساني -الغابـر والحاضر- عند أطـراف أصابعنـا. وأصبـح بإمكاننـا أن نستحضـر كل ما كُتب عـن مسرحيات شكسبيـر والوصول إلـى آخر الأخبار وصيحات العلـم ومتون الكتب، ونربط الشيء بالشيء مهما اختلفت الصيـغ. إن إمكانات اليوم مرعبـة وإمكانات الغد لا يمكـن حدّهـا بحدّ. هـل ستمـوت القراءة ويعـزف عنها الإنسـان؟ هل سيتبـدل وجهها وتتغيَّر عاداتنـا أم سنحاول التمسك بالتقاليد ولـو تغيَّر المظهر؟ هل نحن مقبلون على طريقة جديدة في تحصيـل المعارف لا تعتمد على النص، ونستخدم النـص للحفظ والتدوين والتوثيـق ونعيد إنتاجه في صيـغ فيديو وأفلام وصوت ووسائل أخـرى أسهل وأكثر رفاهية لنا؟

لن يكون هذا مدعاة للبهجة والسرور لعشاق الكتب والكلمة والفكـرة المكتوبة. لن يقنعهم كل التقدم والإمكانات التي لـن يتأخروا عـن استخدامها، لكنهم حتمـاً سيذكرون أن الدقة في التعبيـر والتفنن في التفصيـل وغنى الأساليب مـازال سيده النص وإن سانده فـي ذلك غيره. من وجهة نظرهـم، هنـاك وقـت طويل قبـل أن يظهر بديـل مقنع. وفي وسط كل هـذه الإمكانات والرفاهيـة، مازال عاشقو الكتب يسمعـون الكتاب ويشاهدون صيغـة الوثائقي منه، ويشاهـدون كل مـا يتعلق من قريب أو بعيـد به ويناقشونه ويتابعونـه، وهـا هـم بعـد كل هذا يعـودون إلـى النسخة التقليديـة يقرأونهـا بإطلالـة علـى الغـلاف البديع، ثم الصفحـة الأولى، ثم نظرة إلى الإصدار وتفاصيل الطبعة والإهداء والمقدمـة والفهرس، ثم يواصلون القراءة. إنها متعـة أخرى غير متعـة تقنيات الرقمـي وتقنيات القراءة الجديـدة، إن كانت «قـراءة». كتابهم هذا بـاقٍ والأجهزة ليسـت كذلـك. كتبهم لها أرفـف تؤثث بهـا، يعرفون أين يقطـن كل منهـا. هي أثيـرة عزيزة ترافقهم فـي القطار والطائـرة ومكتـب العمـل والبيـت. تعيش معهـم الحياة وتسجِّـل من يومياتهم أثراً وتاريخاً. وعندما يتركونها إلى غيرها، تبقـى ذكرياتها حاضرة، تشغـل فيهم نار الشوق للعـودة إليها قـراءة وتصفحاً وبحثاً فيهـا وتأملاً. تسافر معهـم، يسافرون بحثاً عنها، يشترون منها نسخاً جديدة، وفـاءً واعتزازاً، نسخـاً لهم ونسخاً لمـن يحبون. وعندما يشتـد الشوق، فلـن يثنيهم لـوم العذال عـن قراءتها من جديـد، يلقـون نظرة على الغـلاف البديع، ثـم الصفحة الأولى، ثم نظـرة إلى الإصدار وتفاصيل الطبعة والإهداء والمقدمة والفهرس، ثم يواصلون القراءة.

قول في مقال

حول المبدع الفقير والمبدع الثري والفرق بينهما

تعقيباً على السؤال الذي طرحته «القافلة» في عدد يناير/فبراير 2010م (العدد 1 مجلد 59) السابق حول قدرة الإبداع على توفير العيش الكريم لصاحبه، يتطرَّق هنا أشرف فقيه إلى الأدوار المختلفة التي يمكن أن تلعبها الرعاية في هذا المجال، بدءاً بأشكالها الراقية كمسؤولية اجتماعية، وصولاً إلى «صناعة النجوم» في العصر الحديث.

بعدما فاز الروائي السعودي عبده خال بجائزة «بوكر» (Booker) المرموقة للرواية العربية، تم تكريمه مباشرة في أكبر محفل اجتماعي-ثقافي بجدّة، هو إثنينية الشيخ عبد المقصود خوجة. وكان من المدهش أن الصحف نقلت حواراً علنياً دار بين الحضور عن ضرورة تفريغ خال للكتابة الإبداعية.. ودار نقاش ساخن حول: «من يتحمل تكاليف هذا التفرغ؟».. أعيان المجتمع من الحاضرين؟ أم الدولة؟ أم غيرهم؟

يعبِّر هذا الموقف «المحرج» عن جوهر أزمة المثقف -في كل مكان- مع الحياة الكريمة. بل إن مصطلح «الحياة الكريمة» هذا يبدو ضبابياً وغامضاً. فهل يفترض أن يعيش الفنان أو الأديب فقيراً قريباً من نبض الشارع والطبقات الكادحة ليعبِّر عن همها؟ أم هل يكفيه أن يعيش «مستوراً»؟ وما المانع في أن يكون ثرياً؟

عند البعض، فإن المبدع الثري هو مبدع خائن لرسالته الفنية. سنذكِّر هنا أيضاً أن قائمة بأغنى المطربين العرب قد صدرت في 2009م.. فاجأت الكثيرين بوجود بعض الأسماء غير المتوقعة في مراكز متقدمة منها!

وقبل أن نتساءل عن قدرة الإبداع على ضمان حياة كريمة لصاحبه إذاً، علينا أن نحلّل العلاقة بين شظف العيش والإبداع الأصيل. البعض سيجادل بأن المعاناة هي الرحم الأوحد الذي تولد منه عبقرية المبدع. وهذه نظرية تستحق التأمل. ولها أمثلة لا نهائية عبر التاريخ: فنسنت فان جوخ، وإدغار آلان بو، وعبد الحليم حافظ، ومحمد شكري وغيرهم الكثيرون.

الحاجة إلى الرعاية

والتأمل في الأسماء الواردة أعلاه بالذات سيعيدنا إلى استنتاج آخر: فالمبدع هو بحاجة أكيدة لـ «راعٍ» أو «عرّاب» لأدبه ولفنه ولإبداعه. إنه مهما بلغ مستوى عبقريته لن يحلّق في سماء النجومية لو لم يجد من يتبناه ويروِّج له ولمنجزه الإبداعي. سواء في حياته أو بعد مماته. هذا الترويج قد يصدر من لدن ناقد أو ندّ أديب أو فنان، وفي هذه الحالة فإن مبدعنا سيحظى بنجومية معنوية.. ولكنها لا تسمن ولا تغني من جوع!

أما إذا كانت الرعاية والاحتضان مقدمة من لدن شخصية اجتماعية أو رسمية ثرية ونافذة، فإن إبداع هذا المبدع سيتحول إلى «موضة». وسيحرص الخاصة ومن ورائهم العامة على اقتناء «منتجه» الإبداعي فتروج سلعته ويتحصل على الثروة والشهرة معاً.. وهذه غاية المراد.

حتى الأمثلة التي ذكرها الأستاذان إبراهيم العريس وناصر سعد الأخرس تصب في هذا السياق. فالرسام سلفادور دالي بكل قدِّه وقدره احتاج لراعٍ اسكتلندي كي ينفق على إبداعاته

المدهشة -وهذه صفة تحتمل المعنيين-. ولو عدنا إلى بدايات عصر النهضة الأوروبية مثلاً فسنجد أن طبقة حاكمة نبيلة مثل أسرة ميديتشي الإيطالية كانت وراء إبداعات ليوناردو دافينشي وسواه من أعلام الفن في ذلك الزمان، وكرست لتوجه في رعاية الإبداع رسم ملامح الثقافة الأوروبية لقرون تلت.

وحتى عبر مطالعة سريعة للعصر الإسلامي الذهبي، سنجد أن بعض الخلفاء المثقفين -كالمأمون العباسي ابن هارون الرشيد- كانوا هم شخصياً وراء ازدهار الفنون والعلوم في عصورهم. وعبر الحقب المختلفة كان إنفاق الخلفاء والسلاطين على طلبة العلم وتفريغهم التام لإبداعهم الفكري عبر تخصيص المخصصات والأوقاف للنفقة عليهم، كل ذلك كان معلماً أساسياً للنهضة الفكرية كما يقرر المؤرخون.

دور الطبقات العليا في المجتمع

نستطيع أن نقول إذاً إن ازدهار الإبداع ورواجه في مجتمع هو شهادة لصالح الطبقة المخملية النافذة في ذلك المجتمع.. والعكس بالعكس صحيح. ذلك أن النخب الاجتماعية والاقتصادية هي الممرات التي من خلالها تظهر النخب المثقفة وتقدِّم أفكارها. تلك هي المسؤولية الثقافية للطبقة البرجوازية إن صح التعبير: أن تقدم لباقي الشعب نمطاً ثقافياً معيناً.. وأن تكون هي مدرج إقلاع الفعل الإبداعي.

إننا نرى كيف يقوم الأثرياء بإنشاء المتاحف والإنفاق على كراسي الأبحاث بالجامعات وتدشين المراكز الفنية.. لكن ما يلي هذه المشاريع الآنية هو موجة من الاهتمام الفني والثقافي التي تمس المجتمع ككل. الإغداق على الفكر والفن ليس محض نزوة تصيب الثري. إنها خطوة في المسيرة الحضارية للمجتمع ككل. لنتذكر ما فعله طلعت حرب بإنشاء «ستوديو مصر» في أوائل القرن الماضي مثلاً.

بعد توافر الراعي الرسمي.. تأتي موهبة الفنان نفسه وعبقريته في تكوين شبكة علاقات عامة تضمن رواجه. السياسة هي ركن أصيل في خلق صورة النجم المبدع. وليس من الغريب أن المبدعين محدودي الذكاء الاجتماعي أو الانطوائيين قد نالوا إما الشهرة المطبقة والمجد لكن بعد موتهم، وإما نالوا المجد أحياء إنما بدون مردود مادي مجزٍ.

أحياناً، وكحالة استثنائية تتكفل الدولة بدور الطبقة البرجوازية، وتتحمَّل كلياً هَمّ الترويج للإبداع. وهذه الحالة على استثنائيتها تظل شاذة وغير متسقة مع الفعل الإبداعي ككل. لأن المبدع حينئذ يكون محصوراً ضمن الخط السياسي لراعيه. وهذه معلومة تظل صحيحة مع رعاية الثري الفرد أيضاً. لكن التملص من سلطة الفرد هي أهون بكثير من سلطة الدولة. وإذا ما عارض المثقف السلطة التي تنفق عليه فإنه سيخسر نفقتها.. وإن كان سيتحوَّل إلى رمز نضالي. وما أكثر المناضلين الفقراء.

هناك إذاً منظومة لصناعة النجوم. والإقرار بهذه الفكرة سيقودنا إلى سؤال حول مدى أخلاقيتها أيضاً. لأن سوق النجوم خاضع لشروط العرض والطلب، وخاضع لشروط السماسرة والمعلنين والخبراء في تشكيل الذائقة الجماهيرية وفق مصلحة السوق.

لهذا، فإن الإبداعات الشاطحة في غرابتها تُرفض مبدئياً، لأن السوق لن يستوعبها. أحياناً، لا يمكن للعرَّاب أو الداعم للفنان أن يفرض ثمة بضاعة على المتلقي.. وأحياناً ينجح في ذلك فيخلق فرقعة عظيمة ويجعل من فنانه نجماً ثرياً.

وأحياناً يجد الجمهور نفسه مجبراً على «ازدراد» فن عجيب غير مفهوم وصادم.. لكنه مفروض عليه ومنصوص على «عظمته» من قبل سدنة -أو سماسرة- سوق الإبداع!

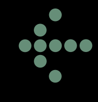
نظرية «صناعة النجم» هذه قائمة اليوم في عالمنا العربي، وتحمل رايتها القنوات الفضائية وشبكات الإعلام الرقمي. فنحن نجد فنوناً وفنانين بلغوا من الشهرة والثراء مبلغهما، رغم أن هؤلاء يقدِّمون فنوناً «هابطة» كما يصر النقاد والذواقة.

لكننا لا نتناول القيمة الإبداعية هنا. إننا نتكلم عن المبدع الثري الذي تمكن من أساليب الثراء. وكما نرى، فإن ملاَّك الفضائيات والقائمين على الإعلام الفني العربي اليوم هم من يرسمون خطوط الإبداع وهم من يصنعون النجوم. إنه ليس ذنب المبدع إذاً ولا هي مهارته.. إنه الحظ الذي قد يلقيه أمام راعٍ أوعرَّاب نافذ فيصنع منه ومن إبداعه سلعة يدفع الناس لأجل اقتنائها الأموال!



بفضلها تتعدد استخداماته

كيمياء البترول



لأنه سيبقى خلال المستقبل المنظور، كما هو حالياً وكما كان منذ قرن من الزمن، المصدر الأول للطاقة في العالم، ترتبط صورة البترول في أذهان الكثيرين بالوقود فقط. وإن كان لهذه الصورة ما يبرر شيوعها، فإنها تفتقر إلى الدقة، لأن النفط هو في الواقع أكثر بكثير من كونه وقوداً. إذ إنه وبفضل التطور السريع والمستمر في طرق التصنيع العضوي، أضحت مشتقات البترول تحيط بنا أينما كان في حياتنا اليومية لتشمل الأصباغ والدهانات والمنسوجات ومساحيق التجميل والصابون والعطورات والأدوية والطرق المسفلتة وأدوات المطبخ البلاستيكية.. وما وفرة المجالات الصناعية بمنتجاتها المختلفة التي قامت على البترول كلقيم إلا نتيجة لتركيبته الكيميائية الخاصة التي تفتح باب استخداماته المتنوعة على مصراعيه.

المهندس خالد الغامدي يحلل لنا كيمياء البترول الخام التي تجعله لقيم كل هذه الصناعات المختلفة، إضافة إلى كونه مصدر الأنواع العديدة من المحروقات، ويفسر المعاني الحقيقية لبعض المفردات والمصطلحات التي تلتبس على الكثيرين.



Corbis



البترول.. عرفه الأقدمون وبعض مشتقاته من تسرباته عبر الشقوق الأرضية إلى سطح الأرض. فاستخدم البابليون الأسفلت في البناء وفي طلاء المراكب.

واستُعمل كذلك بدل الإسمنت في لحم قوالب الطوب بعضها ببعض. وعرفته الشعوب التي سكنت في كنف بحر قزوين وشمال العراق منذ حوالي 6000 سنة قبل الميلاد.

تعني كلمة البترول (Petroleum) باللغة اللاتينية زيت الصخر (زيت Oleum، صخر Petra) وهذه الكلمة تتضمَّن مفهوماً يشمل جميع الهيدروكربونات الطبيعية في حالاتها الثلاث (الغازية والسائلة والصلبة) التي هي عليها في الصخر. عربياً، تطلق كلمة «الزيت الخام» على الجزء السائل من النفط غير المُعالج.

هناك أكثر من نظرية تتحدث عن نشأة النفط، ولكن النظرية الأقرب للصواب والأكثر شيوعاً هي أن النفط من أصل عضوي، ومن تراكمات هائلة من الكائنات العضوية التي تواجدت خلال الزمن الكامبري إما على اليابسة أو الكائنات البحرية. حيث تعرَّضت هذه البقايا العضوية إلى ضغط وحرارة ولمدة تتجاوز ملايين السنين، نشأ عنه النفط. (يقع الزمن الكامبري في حقبة الدهر القديمة، واستمر هذا العصر نحو 600 مليون سنة).

والزيت سائل قابل للاشتعال يتواجد في ألوان مختلفة، ابتداءً من اللون الأصفر إلى الأسود الداكن. وتختلف شدّة قتامة الزيت باختلاف نوع وتركيز المواد الكيميائية التي يحتوي عليها.

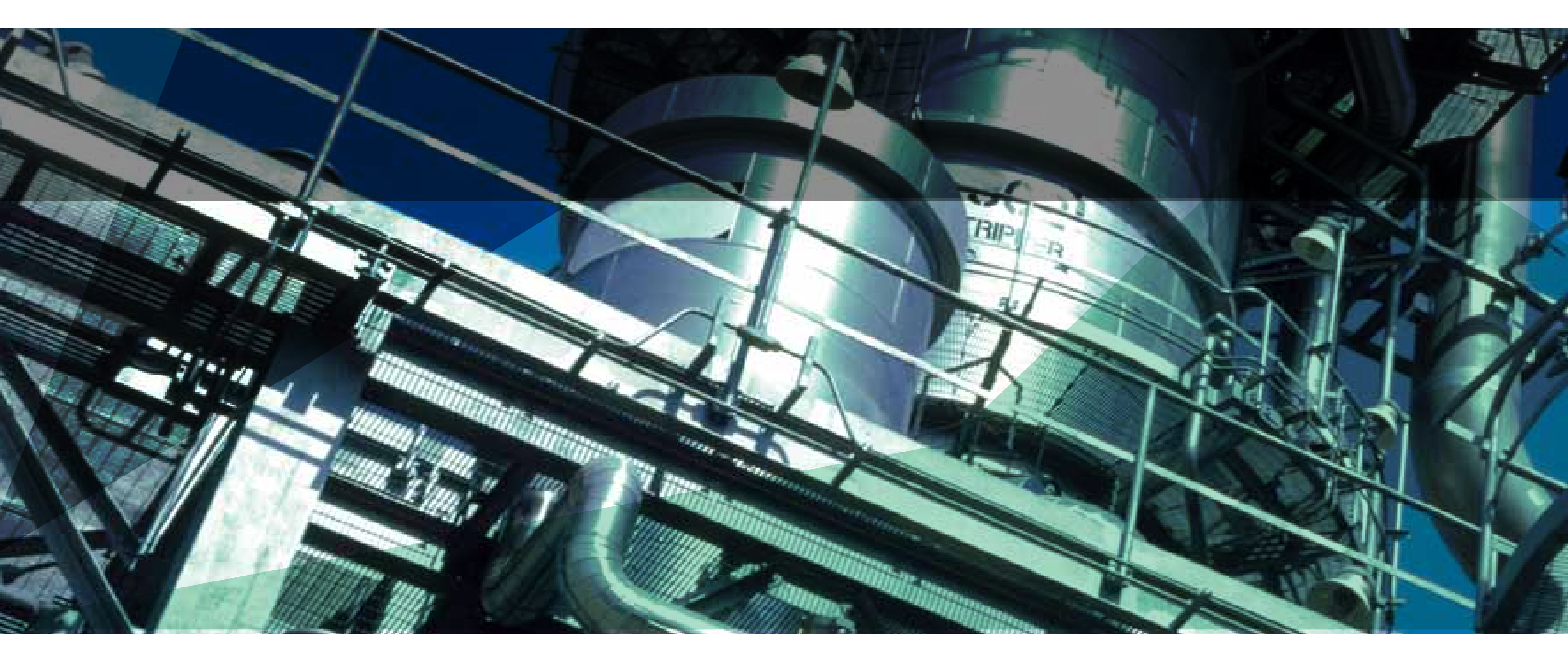
أصل تنوعه

هناك أسباب عديدة تسهم في وجود أنواع مختلفة من النفط من حيث اللون والخواص، بعض هذه الأسباب هي: نوع الكائنات الحيّة التي تكوَّن فيها النفط، ونوع المنطقة الجيولوجية، وكذلك وجود بكتيريا في الزيت. حيث تعمل البكتيريا على استهلاك المواد العضوية ذات الوزن الجزئي القليل الموجودة في النفط، ومن ثم يؤدي هذا بدوره إلى قلة المواد العضوية خفيفة الوزن، وزيادة في تركيز المواد العضوية ثقيلة الوزن، وبالتالي يُصبح النفط أكثر لزوجة وأقل درجة في قيمته السوقية.

التركيب الكيميائي للزيت

بما أن الزيت نشأ عن تحلل عدد هائل من بقايا الغطاء النباتي والحيواني، فإن قطرة واحدة منه تحتوي على عدد هائل من المركبات العضوية التي لم يستطع العلم الحديث حصرها حتى اليوم. ولكننا نستطيع أن نقول إن 85% من النفط هو عبارة عن كربون، 12% عبارة عن هيدروجين والباقي هو خليط من مركبات تحتوي على عناصر مثل: الأكسجين، والكبريت، والنيتروجين والمعادن. وتلعب المركبات الهيدروكربونية الموجودة في النفط دوراً رئيساً في تحديد جودة النفط. وتقسَّم هذه المركبات الهيدروكربونية بشكل عام إلى الأصناف التالية:

1. البارافينات، وهي مادة شمعيّة ذات صيغة جزيئية (C_nH_{2n+2})
2. نافثين، صيغتها العامة (CnH2n) وهي مركبات دائرية مُشبعة بذرات الهيدروجين
3. المركبات العطرية، صيغتها العامة (C_6H_5-R) ومن أشهرها مادة البنزين (C_6H_6)
4. مركبات كيميائية أخرى عديدة مثل (الكينات، الكين، ...الخ)



التكرير.. استخراج الكثير من المواد المختلفة من المادة الخام الواحدة

ومن باب السعي وراء الاستخدام الأمثل للزيت ولآخر قطرة، عمد الباحثون منذ عشرات السنين إلى ابتكار طريقة تحليل مخبري يُمكن من خلالها تحديد أكبر عدد ممكن من المركبات الكيميائية المكونة للزيت. وعليه طوّر العلماء طريقة مخبرية تُعرف بـ بترولوميكس (Petroleomics). وهدف هذه الطريقة هو تحديد جميع المركبات الكيميائية التي يحتوي عليها الزيت. وفكرتها مستوحاة من طريقة (Genomics) والتي تستخدم في المجال الطبي والبيولوجي لتحديد جميع أنواع البروتينات المكونة للحمض النووي (DNA).

العمليات الكيميائية في المصافي

عند تكرير البترول والحصول على مشتقاته الأولية (مثل: غاز الميثان، غاز الطبخ، النفثا، الكيروسين، الديزل، ...الخ) فإن هذه المشتقات تُعد مواداً أولية تدخل كلقيم في صناعات كيميائية أخرى بُغية تحسينها ورفع قيمتها السوقية. فمثلاً، تُعالج النفثا بإزالة عنصري الكبريت والنيتروجين ومن ثم تهذيب النفثا من خلال عملية حفزية تعمل على رفع مستوى رقم الأوكتان، وتُسمَّى هذه العملية (Catalytic Reforming).

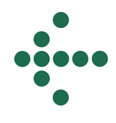
وتعالج الغازات الناتجة عن أبراج التقطير هي الأخرى، وتُستخدم في عمليات كيميائية أخرى في مصفاة التكرير نفسها. فعلى سبيل المثال، يستخدم غاز البروبان في عملية كيميائية تُسمّى (Steam Reforming)، حيث يُنتج غاز الهيدروجين الذي يستخدم لاحقاً في معالجة النفثا أو أي استخدام آخر. كذلك الحال بالنسبة لغازات البروبان والبيوتان ذات الاستخدامات العديدة، وأبسط استخدام لهما هو غاز الطبخ الذي هو خليط ما بين غازي البروبان والبيوتان. يُضاف إلى هذا، أن غازي البروبان والبيوتان يُعدان لقيمين قيِّمين جداً في الصناعات البتروكيميائية كصناعة اللدائن (Plastics).

ومن المنتوجات الجانبية في مصافي التكرير خليط من البنزين (Benzene C6 H6)، التولوين (Toluene C7H8) والزيالين (Xylene C8H10)، وتُعرف هذه المذيبات القيّمة بالاختصار (BTX)، كما أن هذه المركبات الكيميائية (BTX) تستخدم في صناعات بتروكيميائية عديدة.

بشكل مختصر، يُمكن وصف مصفاة تكرير النفط على أنها منظومة متكاملة من المعامل الهندسية التي تعمل بشكل متزامن وذلك لتفكيك النفط الخام إلى منتجات هيدروكربونية ذات قيمة سوقية أعلى من قيمة النفط نفسه. وقد سبق للقافلة أن تناولت قبل فترة وجيزة هذه المشتقات بشيء من التفصيل.

لا بديل

إن ما تقدّم يؤكد لنا أن البترول قد يكون المادة الخام المهمة التي يستخرجها الإنسان من باطن الأرض. ورفاهية الإنسان في حياته المعاصرة تزداد ارتباطاً بالبترول، ليس فقط كمصدر للطاقة، بل كمصدر للباسه وأثاث بيته وعمران مدينته.. ولهذا، ومهما اجتهد الساعون إلى إيجاد مصادر بديلة للطاقة مثل الطاقة النووية أو الطاقة الشمسية، ومهما تكللت جهودهم بالنجاح، فإن ذلك لن يصل في أي حال من الأحوال سوى إلى الاستغناء الجزئي عن واحد فقط من استخدامات البترول، وليس عن البترول.



مصطلحات علمية ومفاهيم مفتاحية

- **الطاقة (Energy)**: تُعرّف في الفيزياء بأنها القدرة على أداء شغل، فمثلاً زيادة سرعة السيارة أو رفع حجر يتطلب شغلاً. والقيام بهذا الشغل يتطلّب وجود وقود.

- **الوقود (Fuel)**: مادة تمدنا بالطاقة. يُصنّف الوقود إلى عدّة أنواع اعتماداً على مصدره وطبيعته. هناك الوقود الأحفوري مثل النفط، الغاز الطبيعي، الفحم، وهناك وقود من صنع الإنسان كالوقود النووي.

- **"الفرق مابين منتجات التكرير والبتروكيماويات (Petroleum Refining Products vs. Petrochemicals)**
عند تكرير النفط بواسطة أبراج التقطير، تنتج عدّة مركبات هيدروكربونية كلُ منها يحتوي على العديد من المركبات الفرعية، مثل الكيروسين، الديزل، النفثا،.... إلخ. هذه المنتوجات تُسمَّى منتجات تكرير النفط ولا تُعد من البتروكيمائيات. لاحظ أن كل مُنتج من هذه المواد يتكون من كم هائل من المركبات الكيميائية. أما البتروكيمائيات فتُعرف بصفة عامة بأنها الكيمائيات و/أو المنتجات المصنَّعة من منتجات التكرير النفطية السائلة والغاز الطبيعي، وهي بذلك تمثّل في التنظيم الهيكلي للصناعات الكيميائية القاعدة الأساسية للصناعات الكيميائية العضوية الثقيلة.

- **التقطير (Distillation)**: عملية تسخين المحلول (السائل) إلى درجة غليان مرتفعة، وبشكل تدريجي

Corbis

تحـت ظروف ضغط جـوي إمّا ثابتـة أو متغيرة، وحيث إن هذا السائل يتكـوَّن من مواد مختلفة عن بعضها في درجـة الغليان، لذا سيحـدث انفصال للمـواد المكّونه للخليـط بشـكل تتابعـي وتنتقـل إلـى الحالـة الغازية وعندئـذ تُكثف كل مادة (المـواد الأساسية التي يتكون منهـا الخليط) علـى حدة وهكذا يحـدث فصل للمواد المكّونة للخليط.

- **القُطارة (Distillate):** الناتج المكّثف لعملية التقطير.

- **الغاز الطبيعي (Natural Gas):** خليط من الهيدروكربون يكون فيه تركيز غاز الميثان (CH_4) هو الأكثر.

- **الغاز الطبيعي المُسال (Natural Gas Liquid):** خليط مـن الهيدروكربون يتواجد تحت الظروف المعيارية (25 درجـة مئوية وواحد ضغط جوي) على هيئة سائل. يُشكل كُلاً من غاز البروبـان (Propane C_3H_8) وغاز البيوتان (Butane C_4H_{10}) النسبة الأكبر في تركيبة هذا الخليط.

- **التحـويـل «التهـذيـب» الهـنـدسـي (Reforming):** سيرورة هندسية كيميائية وهي عبارة عن تحويل حراري (Thermal) ومحفـزي (Catalytic) لمركبـات النفثـا (Naphtha) إلى نافثا مهذبة (Reformate) ذات رقم أوكتاني أعلى.

- **التصنيـع العضـوي (Organic Synthesis):** هي عملية خلـق مركبات كيميائيـة بالطُرق المخبريـة لإيجاد مواد كيميائية ذات تواجد في الطبيعة ولكن لإيجادها بكميات كبيرة وبطرق اقتصادية. فمثلاً، رائحة الزهور، منكّهات الطعام، المـواد الكيميائية المستخلصـة من الأعشاب، هـذه المـواد وغيرها غير مجـد اقتصاديـاً إنتاجها من الطبيعـة، لـذا لجـأ الكيميائيـون إلـى تحديـد التركيبة الكيميائيـة لهـذه المـواد، ومن ثم ابتكار طـرق مخبرية فـي تصنيـع هـذه المركبـات بشـكل صناعـي وبكميات كبيـرة. مثال ذلك تصنيع مادة اليوريـا (Urea) ابتداءً من مـادة النشـادر (Ammonia NH_3) وهـي تستخدم كسمـاد. وكذلـك تحويل الغـاز الطبيعي (الميثـان) إلى ألياف صناعية. كذلـك يُستخدم التصنيع العضوي ليس فقـط لخلق مـواد كيميائية محـاكاةً للطبيعة، بـل أيضاً لخلـق مواد جديدة ذات قيمة تسوقية، مثال ذلك صناعة مساحيـق الغسيل ابتداءً من مادة البنزين، وهذه تتم من خـلال عمليـة تصنيع تُعـرف بـ: (Linear Alkylation Benzene Sulfonation LABS).

- **تكريـر النفـط (Petroleum Refining):** تشمل عملية التقطير، التحويل، والتكسير للمركبات الهيدروكربونية، وذلك من خلال عملية هندسية إمّا حفزّية أو حرارية.

- **سـيـرورة كيـمـيـائيـة (Chemical Process):** عمليـة كيميائيـة هندسية تعمل علـى إحداث تغييـر في تركيبة المادة الكيميائية اللقيمة.

- **اللقيـم (Feedstock):** المـادة الخـام الرئيسة الداخلة إلى معمل السيرورة (العمليات) الكيميائية.

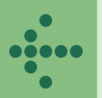
- **الكتلـة الحيويـة (Biomass):** هـي مصـدر للطاقـة المتجدّدة، وهي عبارة عن مـواد عضوية مثل الأخشاب، بقايـا النفايات البشرية، الطحالـب، الحشائش المائية، ...إلخ.



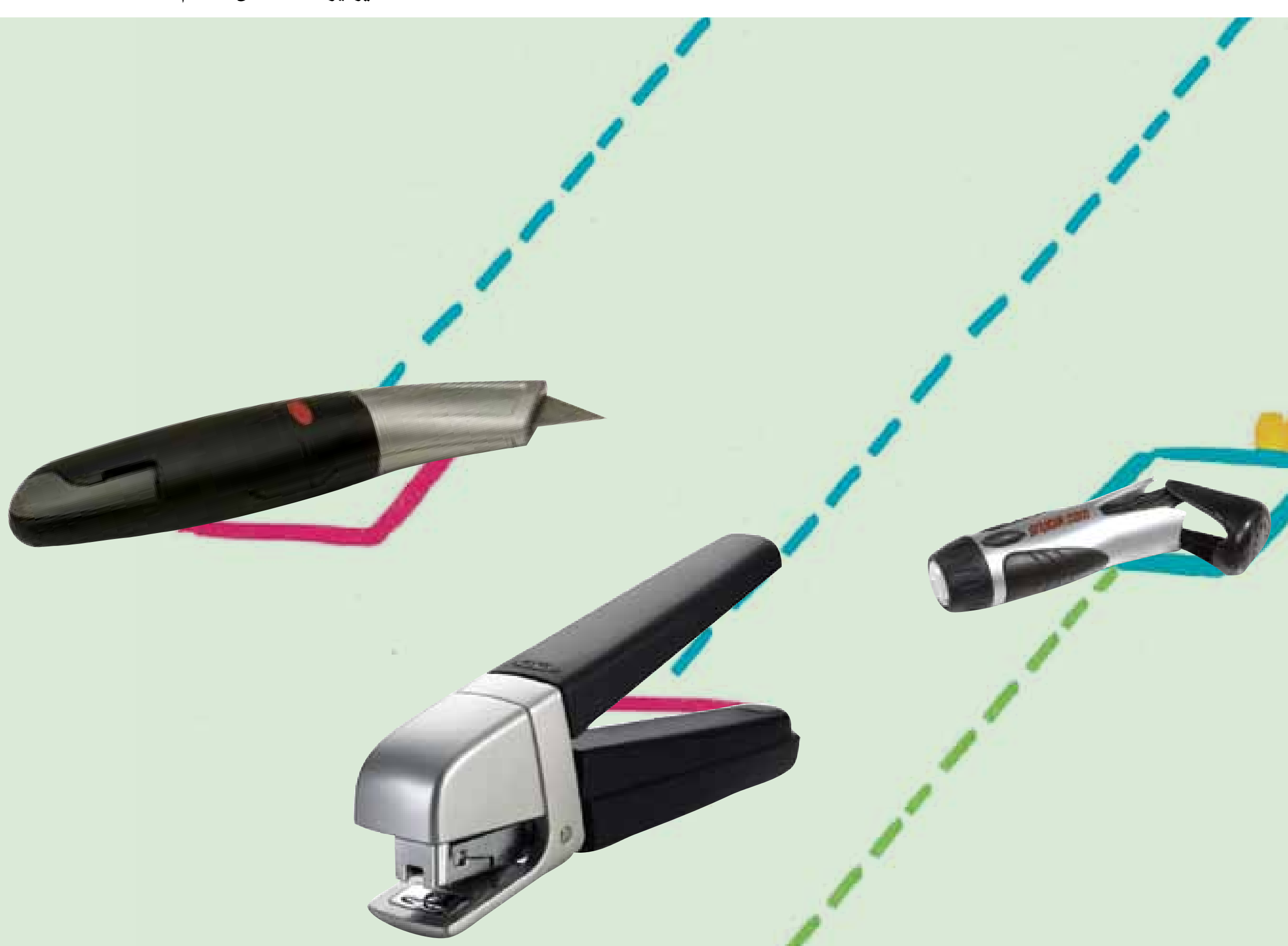
Corbis

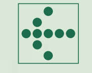


تفكير المصمم
عندما تتبنى الشركات الابتكار الفعَّال



ثمة اتجاه في عالم الأعمال يعطي الابتكار أهمية تفوق الأهمية التقليدية المعلقة على التحليلات والحسابات الباردة ودراسات الجدوى. ولكن إلى أي حد يمكن للابتكار أن يتحرر من العوامل الأخرى المؤثرة في تحديد قيمة العمل؟ **ليلى أمل** تعرض لما بات يُعرف بـ «تفكير المصمم»، وهو نمط جديد من الأداء ناجح في التوفيق ما بين مدرسة الأعمال التقليدية القائمة على التحليل البارد، والمدرسة المحدثة المفتوحة على مصراعيها للابتكار والأسئلة المجددة حتى حدود لا يمكن تصورها.





بدأت شركة أوكسو بملاحظة بسيطة. فقد رأى سام فاربر كيف تواجه زوجته صعوبة في استخدام أدوات المطبخ نتيجة لإصابتها بالتهاب المفاصل.

ونتيجة لخبرته السابقة مديراً في شركة ناجحة لتصنيع أدوات المطبخ، طوَّر فاربر الملاحظة إلى سؤال.. لماذا تؤذي هذه الأدوات البسيطة أيدي مستخدميها؟ ولماذا لا توجد حتى الآن أدوات مطبخ مريحة وسهلة للاستخدام؟

رأى فاربر فرصة كبيرة، ليس فقط لمساعدة المصابين بالتهاب المفاصل أو كبار السن، لكن أيضاً لتقديم أدوات مريحة وسهلة الاستخدام للجميع. فقرر أن يترك عمله الأصلي، ويعمل على مشروعه الجديد الخاص. وبعد الكثير من البحث لفهم حاجات المستخدم وطبيعة تعامله مع أدوات المطبخ المختلفة، وبعد التشاور مع شركة متخصصة في التصميم هي «سمارت ديزاين»، أطلقت أوكسو مجموعتها الأولى في السوق الأمريكية. وكانت مكونة من 15 أداة من أدوات المطبخ الأساسية. من السكاكين، وفتَّاحات العلب والزجاجات، إلى أدوات تقشير الخضار والفاكهة وغيرها، تجمع كلها بين القوة وسهولة الاستخدام. وجعلت أوكسو شعار مجموعتها «القبضة الجيدة».

حققت الشركة نجاحاً كبيراً، وتوسعت خلال السنوات التالية في منتجاتها حتى تعدت الخمسمائة منتج، توزعت على غرف المنزل كلها وليس المطبخ فحسب. وطرحت مؤخراً مجموعة من الأدوات المكتبية تعتمد على فكرة «القبضة الجيدة»، لتسهِّل على مستخدميها عملهم خارج المنزل أيضاً. وقد انطلقت هذه المجموعة الجديدة من ملاحظة العناء الذي تتطلبه عملية تدبيس عدد كبير من الأوراق، باستخدام دبَّاسة الورق العادية. وبهذه المجموعة تؤكد أوكسو ما تقوله عن أن هدفها الأول هو تصميم حلول مبتكرة للمشكلات التي يواجهها المستخدم في مهام حياته اليومية.

تمثِّل أوكسو وقصتها اتجاهاً مختلفاً في التفكير في عالم الأعمال. وهو نموذج بدأ يطرح نفسه على استحياء وبصورة فردية في العقد الأخير من التسعينيات الماضية، وأخذ بالتدريج يكتسب قوة وثقة ومصداقية، جعلته الآن فكراً جديداً لافتاً لنظر المهتمين بالأعمال من خبراء وأساتذة الإدارة، وبالطبع مديري وأصحاب الشركات، الصغيرة

والكبيرة على حد سواء. ولنفهم الفارق الذي يمثله هذا الاتجاه، علينا أولاً أن نلقي نظرة على عالم الأعمال، وما اعتادت الأمور أن تكون عليه فيه.

كيف تفكِّر الشركات؟

هناك مدرستان تقليديتان في عالم الأعمال، تختلفان حول الطريقة التي تتحدد بها قيمة العمل.

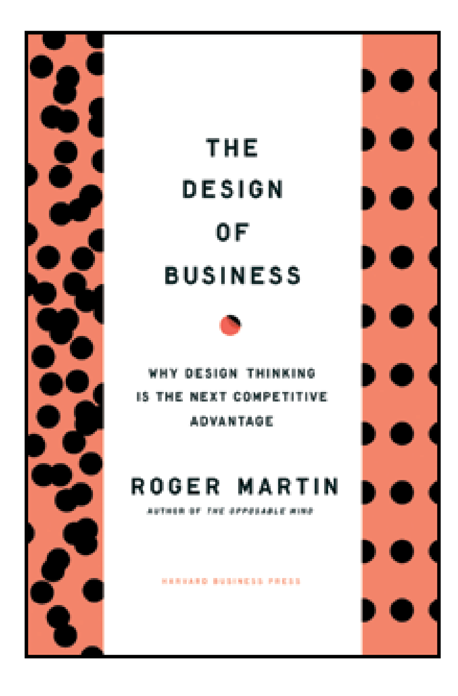
لا التحليل وحده ولا الحدس وحده يكفيان، وبدلاً من الاختيار بينهما، فإن الحل الأمثل هو الأخذ بهما معاً

فالمدرسة الأولى تؤمن بأن الطريق إلى صنع القيمة، يبدأ وينتهي بالاعتماد على استراتيجيات تم التوصل إليها عن طريق التحليل الدقيق للمتغيرات والعوامل المؤثرة مع توجه قوي للاستعانة بالقدرة الهائلة لبرامج الكمبيوتر التي تبرع في هذا النوع من التحليل أكثر من العقل البشري. وفي هذا النموذج، فإن أساس النجاح هو التفكير التحليلي، الذي يستخدم المنطق للوصول إلى حقائق وتأكيدات حول طريقة سير الأمور. إذ إن الشر كله يكمن في التحيزات والأحكام والتفضيلات التي لا تعتمد على التحليل الدقيق. وإذا استطعنا التخلص من هذه الشرور، فإننا نضمن الوصول إلى القرارات الصحيحة، وبالتالي يستطيع العمل أن يحصد القيمة العالية المرجوة، وأكثر.

أما المدرسة الثانية، فقد نشأت بشكل ما كرد فعل معاكس للمدرسة الأولى وطرقها التحليلية الصارمة، إذ تتبنى هذه المدرسة مبدأ الإبداع الحر. من وجهة نظرها، فإن التحليل الدقيق أزاح الإبداع بعيداً، وقاد التفكير في المؤسسات إلى حالة من الملل والاختناق. وفي هذا الصدد، يقول نائب رئيس شركة أمريكية تُعد من أكبر مؤيدي هذه المدرسة: «إنه حالما تبدأ بالتحليل والاعتماد على أبحاث السوق، فإنك تطرد الإبداع تماماً من المنتج». تعتمد هذه المدرسة على التفكير الحدسي، أي المعرفة التي لا تقوم على التفكير. ويرى مؤيدو هذه المدرسة أن الحاسة الإبداعية، ولحظات الإدراك المفاجئة التي انبعثت بلا بحث ولا تحليل، هي المصدر الحقيقي لقيمة الشركة.

الابتكار.. بين تفكير رجل الأعمال، والفنان، والمصمم

وحين تتجه كل واحدة من المدرستين إلى ابتكار منتج جديد، يظهر الفارق واضحاً. المدرسة الأولى التي تقاوم التغيير عادة وتهابه، لا تفكِّر في الابتكار إلا بعد أن تشعر بحاجتها له إذا أرادت أن تحافظ على مكاسبها ومكانتها، في سوق يتحرك بسرعة هائلة ويتزاحم فيه المنافسون. وتحتاج لتأكيدات وأدلة واضحة تشير لها نحو الاتجاه الجديد الذي عليها أن تسلكه. فتجمع التقارير والدراسات لتعرف نصائح الخبراء، وتعتمد بشكل كبير على أبحاث السوق لتعرف بالضبط ما الذي يقبل الناس على شرائه. ثم تدفع عجلاتها لتكرار هذا الشيء المرغوب في نسخة معدلة قليلاً، لكنها تمثل امتداداً منطقياً لما اعتادت عليه، وما يعرفه ويألفه المستهلكون.



أما المدرسة الأخرى، فلا تنتظر حتى يصبح الابتكار حاجة لديها، لأنها عادة تموج بأفكار لمنتجات جديدة في كل الاتجاهات. لكن مشكلة هذه المنتجات أنها تعتمد على حدس ورؤية صانعها، وتتأثر بتجاربه الشخصية، وتفضيلاته، والطريقة التي يرى بها الأشياء والحياة من حوله. بغض النظر عن كونها تلبي حاجة حقيقية لدى المستهلك، أو تقدِّم له حلاً لمشكلة تواجهه.

بهذه الطريقة تسير المدرستان في اتجاهين معاكسين. فالمؤسسة عليها أن تختار بين التحليل أو الحدس كوسيلتها لبناء القيمة، وكأسلوب لابتكار وتطوير منتجاتها. لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك. في كتابه «تصميم الأعمال»، يوضح روجر مارتن عميد كلية الإدارة بجامعة تورنتو الكندية أنه لا التحليل وحده ولا الحدس وحده كافيان. وبدلاً من أن تجبر الشركات على الاختيار بينهما، فإن الحل الأمثل هو الأخذ بهما معاً. فأكثر الأعمال نجاحاً

فـي الأعـوام القادمـة هو مـا يستطيـع أن يـوازن بين دقة التحليل، وإبداعية الحدس.

وإذا اعتبرنـا أن تفكيـر المدرسـة الأولى هـو تفكير رجل الأعمال، وتفكير المدرسـة الثانية هو تفكير الفنان، فإننا نستطيع أن نطلـق على التفكير الجديد الذي يجمع بينهما «تفكيـر المصمـم». لأنـه يماثـل الطريقة التـي يفكِّر بها المصمـم حين تواجهه مهمة عمـل معيَّنة. فهو يعتمد على عنصرين أساسييـن هما الفهم، ثم الملاحظة والتساؤل. فهم حاجات المستخـدم التي تدفعه إلى البحث عن منتج معيَّـن، وكيـف يـراه ويدركـه، ويتعامل معه، ثـم ملاحظة عمليـة التفاعل بيـن المنتَـج والمستخدم علـى الطبيعة، لمعرفة تفاصيـل هذا التفاعل في ظـروف الحياة اليومية العاديـة. هل يمـر المستخدم مع هذا المنتـج بأوقات من عـدم الفهـم أو الارتبـاك؟ ما الـذي يعجبه، ومـا الذي لا يعجبـه؟ وهل هنـاك إمكانية ما لجعل هـذا التفاعل يسير بصورة أيسر أو أفضل؟

لماذا (لا) نحتاج إلى حذاء؟

«فايبرام» شركة إيطالية رائدة لتصنيع نعال الأحذية عالية الجـودة، استطاعـت عبـر 75 عامـاً هي عمرها فـي عالم الأعمـال أن تحقق نجاحاً متميزاً، لتصبح العلامة التجارية التـي تستعيـن بها أكبر شـركات صناعة الأحذيـة لتصنيع منتجاتها. سواءً أكانت الأحذيـة الرياضية كأحذية الجري وتسلـق الجبال وركـوب الدراجات، أو الأحذيـة العادية، أو حتـى الأحذية العسكرية. وفي سعيهـا نحو الحفاظ على ما حققتـه من مكانة ونجاح، لم تتوقف الشركة عن الملاحظة والتسـاؤل. وقد أتى منتجهـا الأخير، معبـراً بقوة عن هذا الاتجـاه في التفكير، وبشكل أكثر «جذرية» مما يمكن لنا أن نتصور.



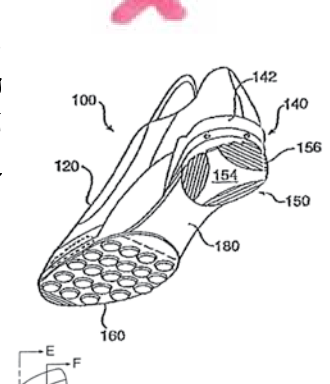
حدود طرح الأسئلة: هل يحتاج الإنسان فعلاً إلى الحذاء؟

لم تكتفِ فايبرام بطرح سؤال «لماذا يحتاج الإنسان إلى الحـذاء؟»، لكنها ذهبـت به إلى أبعد مـن ذلك ليصبح «هـل يحتاج الإنسـان أصلاً إلى الحـذاء؟». وحين بحث الفريـق المكلـف بالعمل على هـذا السؤال، وجـدوا أن الإجابة هي: لا!

التكنولوجيا ليست ما نتواصل عبره مع المنتج، فما يهمنا هو «المعنى» الذي يمثله هذا المنتج

تعتمـد شـركات الأحذيـة الرياضيـة علـى التسويـق لمستهلكيهـا عن طريـق الترويج لفكـرة الحاجـة إلـى دعـم الأحذيـة، كـي نستطيـع القيـام بالجهـد الكبيـر الـذي يتطلبه الجري أو المشـي لمسافات طويلة. لكـن العلـم الآن لـه رأي مختلـف. إذ قـام دانييل ليبرمـان الباحث بجامعـة هارفارد الأمريكية، بدراسة تاريخ استخدام الإنسان لقدميـه، عبـر العصـور المختلفـة لوجـوده علـى الأرض. فالإنسـان منـذ القـدم كان يستخـدم قدميـه الحافيتيـن ببراعة، ليس فقط في المشي، ولكن أيضاً في الجري لصيد الحيوانات. وهو عمل شاق، من الواضح لنا الآن أن أسلافنا كانـوا يؤدونه بنجاح، وبـدون الاستعانة بأي حـذاء. ودرس ليبرمـان الميكانيكية التي يمارس بها العدَّاؤون المحترفون الجـري، وقارنها بالطريقة التي يمارس بهـا أفراد القبائل فـي إفريقيا وأمريـكا الجنوبية الجري وهم حفـاة الأقدام كجـزء طبيعي من حياتهم. وكانـت النتيجة أن الحذاء يحد كثيراً من قدرتنا الطبيعية على الجري.

الحـذاء الذي يقدِّم دعماً كبيراً لكعب القدم، يوجه الحركة بحيث يهبط الإنسان على هـذا الجزء بالذات. وهذا القدر الكبيـر مـن القوة فـي مساحة صغيـرة هي الكعـب، يرغم الحركـة على التوقف، قبل أن تنتقل إلى بقية أجزاء القدم. لكـن من دون هذا الدعم الصناعي، يعـرف جسم الإنسان أن أفضل طريقة للهبوط هي أفقياً، مع ميل خفيف للارتكاز على الجزء الأمامي من راحـة القدم. وبهذه الطريقة، ومع المساحـة الواسعـة، تسير الحركـة بصـورة انسيابية عبر أجـزاء القدم، وتوفـر سرعة أكبر وراحة أكثـر أثناء عملية الجري.



بعد الوصول إلى هذه الإجابة، ولدت فكرة المنتج الجديد فـي فايبـرام. فبدلاً مـن الحـذاء التقليدي، الـذي يعمل بطريقـة مختلفة. قررت الشركة أن توفر الدعم والحماية لقـدم الإنسـان، ثـم تتركهـا تقـوم بعملهـا الـذي تعرفه وتتقنـه. من هنا ظهر منتج (فايف فينجرز) أو (الأصابع الخمسـة). فباستخـدام نـوع خاص من المطـاط عالي الجـودة، صممـت فايبرام حـذاءً خاصاً، يمكـن اعتباره قفـازاً للقدم، يوفر لها الحمايـة العالية، وفي نفس الوقت يؤمـن لهـا أداءً مريحاً بطريقتهـا الطبيعيـة التي خلقت لتعمل بها.

حقـق الحذاء الجديـد نجاحاً رائعـاً، وارتفعـت مبيعات الشركة بنسبـة 300% بعد إطلاقـه. فالحركة الطبيعية التي يتيحها، تمنع آلام الركبتين والظهر التي يعاني منها ممارسو رياضـات الجري والمشي عـادة. كما أنه يسمح بتناغـم عضـلات الجسم كلها بصـورة أفضـل، وهو ما يجلـب شعوراً أكبـر بالراحة فـي الأداء الرياضي. ويقول المعجبـون بهـذ المنتـج إنهـم يسترجعـون باستخدامه لحظـات الركض الفـرح بلا حذاء، التـي اختبروها وهم صغار.

الشراء.. مسألة معنى

فـي عصرنـا الحالـي أصبـح المنتـج الجديـد مرادفـاً لتكنولوجيـا جديدة. وأصبح سعـي الشركات حين تفكر في الابتكار موجهاً نحو الوصول إلى تكنولوجيا جديدة، يمكنها بالاعتماد عليها في تصنيع منتجات جديدة، تحقيق ميزات أكبـر من تلك الموجودة في السـوق بالفعل، وبالتالي تشكل قوة جذب للمستهلك.

لكـن الأمـر فـي حقيقتـه مختلف عـن ذلك. لا شـك أن التكنولوجيا يمكنها أن تجعل أشياءنا أسرع وأقوى وأسهل فـي الاستعمـال، لكنها ليست الجزء الـذي نتواصل عبره مـع المنتج حين نفكِّر في شرائه. فمـا نفكِّر فيه فعلاً هو «المعنـى» الـذي يمثلـه هذه المنتـج بالنسبة لنـا.. كيف يتـواءم مع تفاصيل حياتنا اليوميـة، وأية قيمة اجتماعية يحملهـا، وكيـف يعبِّـر عـن طبيعـة حياتنـا وتفضيلاتنا الشخصية.



الألعاب الإلكترونية.. خير معبِّر عن أهمية «تفكير المصمم»

iStockPhoto

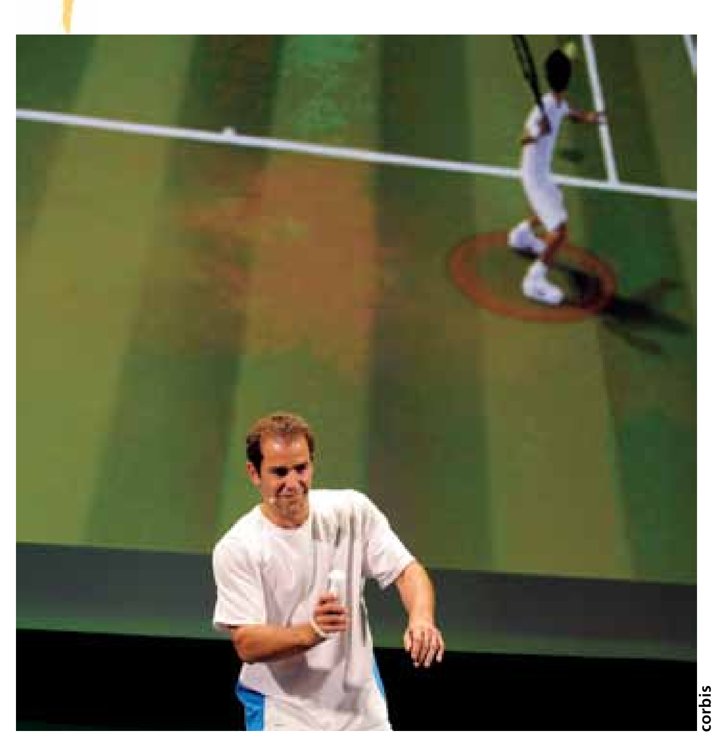
الابتكار في المعنى هو ذلك الابتكار الذي يغيِّر للأبد ما نتوقعه من منتج معيَّن، وما يعنيه لنا. ويخلق أسواقاً جديدة طازجة لم يكن أحد يعتقد أنها قابلة للتشكل.

هذا ما فعلته شركة «نينتيندو» للألعاب في نوفمبر من العام 2006م حين أطلقت منتجها الجديد «وي». وهو لعبة مزوَّدة بأجهزة تحكم حساسة للحركة، تمكِّن مستخدمها من اللعب عن طريق الحركة الفعلية. ما نعرفه عن ألعاب الفيديو هي أنها وسيلة تسلية رائعة لمن لا يريد أن يحرك سوى إبهامه فقط! إذ تعتمد على إغراق لاعبها سلبياً في عالم افتراضي خيالي، بعيد تماماً عن العالم الحقيقي الذي يعيش فيه. وكلما ازداد التنافس بين الشركات المنتجة للألعاب، وعلى رأسها ميكروسوفت وسوني، وصلت منتجاتها إلى درجة أعلى من الغنى في الرسوم والمتعة البصرية، لتزيد من درجة انغماس اللاعب في هذا العالم الافتراضي.

حين ظهرت «وي»، غيَّرت المعنى السائد في عالم الألعاب، بتقديمها طريقة جديدة للعب الحقيقي، وفي نفس الوقت يعتمد على غنى التكنولوجيا وجاذبيتها. وبدلاً من الانغماس في عالم افتراضي، أعادت اللعبة البهجة للعالم الحقيقي، وجعلت سهولة استخدامها في متناول كل من يحب اللعب، وليس المتفوقين «تكنولوجياً» فقط. بعد ستة أشهر من إطلاق «وي»، وصلت مبيعاتها في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ضعف مبيعات «الإكس بوكس 360» الذي تفخر به ميكروسوفت، وأربعة أضعاف «البلاي ستيشن 3»، آخِر إصدارات سوني. وبالرغم من أن سعرها كان أقل من سعر اللعبتين الشهيرتين، إلا أن أرباحها كانت أعلى بكثير. لم يفكِّر أحد من قبل في حاجة الناس لمثل هذا المنتج، لكن أرقام المبيعات توضح كيف أنهم أحبوا «المعنى» الجديد، فور صدوره.



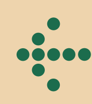
الفهم، والملاحظة، والتساؤل.. هذه هي المفاتيح الثلاثة التي يلخص بها خبراء الإدارة والأعمال، سر نجاح الشركات وقوتها التنافسية خلال السنوات القادمة. فحين تفكِّر الشركات في هذا الاتجاه، يمكنها أن تنتبه لمشكلة معيَّنة سائدة، وتقدِّم حلاً لها، كما حدث مع أوكسو. ويمكنها أن تعيد النظر في المتعارف عليه، وتقدم منتجاً طازجاً في فكرته، وأكثر ملاءمة لمستخدمه، كما قدَّمت فايبرام الأصابع الخمسة. ويمكنها أن تطرح رؤية جديدة ومعنىً جديداً، لمنتج عرفناه، لكننا لم نعرفه هكذا من قبل، كما فعلت «نينتندو». وفي كل الأحوال، سيكون لدينا منتجاً جديداً استثنائياً، لا يحصد الأرباح فقط، ولكنه يحصد قبلها ثقة واحترام وولاء مستخدميه. وهل يعني الابتكار الناجح شيئاً أكثر من هذا؟



corbis

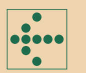
من الرف الآخر اقرأ

أنت شركة محدودة



التسويق بمعناه الواسع هو الترويج لشيء أو لفكرة. وهو بهذا المعنى مهارة تبدأ منذ الطفولة. فعندما يقنع الولد أباه بزيادة مصروفه، فإنه يكون قد نجح في الترويج لنفسه ولحقه في هذه الزيادة ولكونه أهلاً للثقة في حسن استخدامه لها. ويكبر الولد، وتستمر مهاراته في الترويج بالنمو معه، كشرط من شروط النجاح في الحياة.

سحر رحمة تستعرض لنا الكتاب الذي وضعه هاري بيكويث، وهو مدير واحدة من كبريات الشركات، وزوجته كريستين كليفورد، مديرة المبيعات، بعنوان «أنت شركة محدودة» (.You, Inc). أو «فن الترويج لذاتك».



يُعد هذا الكتاب الذي يقع في 316 صفحة مرجعاً ودليلاً مختصراً وميسراً للوصول إلى النجاح، عبر فصوله الثمانية المتضمنة لعدد كبير من المهارات المطلوبة لذلك.

فيمكن أن يتحقق النجاح والرضا من خلال تنمية الذات من جميع الجوانب بدءاً بالجانب الأعمق. فالناس عادة يقدِّرون ويدفعون أكثر مقابل المشاعر التي يشعرون بها. بعبارة أخرى، إنهم يشترون المشاعر. وهذا هو الفرق -على الأغلب- بين الشركات المختلفة ومنتجاتها، حيث لا يكمن الفرق بينهم في الكفاءة وعدد سنوات الخبرة فقط. إنما يكمن أيضاً في المشاعر التي يبثها العاملون بالشركة في صفوف الناس.

التخطيط والإعداد والتواصل

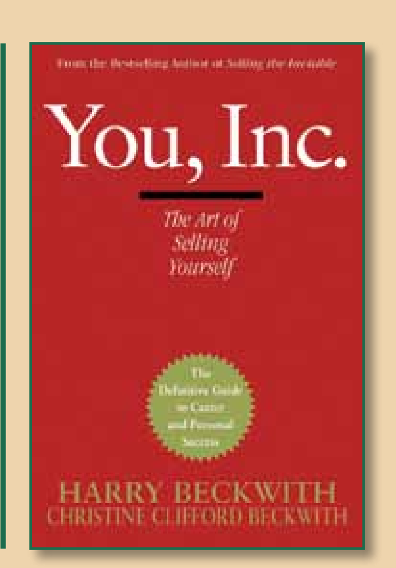
إذا كانت الأهداف فقط تحثك على العمل، فضع هدفاً آخر وابحث عن التحفيز في شيء غير الأهداف. ابحث في داخلك واكتشف ذاتك. ولتكن علامتك التجارية هي واقعك. وينصحك الكتاب بأن تحاول أن تبحث عما يناسبك من أعمال، وعن حاجة صاحب العمل، ويطلب منك أن تطرح على نفسك بعض الأسئلة، وأهمها:

- ما هو اختصاصك؟
- ما الفرق الذي ستحدثه؟
- هل يحسدك المنافسون الآخرون؟ كيف ستجعلهم يحسدونك؟

إنك كي تنجح بحق، ينبغي أن تعرف ما الذي يشعرك بالضيق. كما ينبغي أن تكون ممتناً لما لديك من نقاط قوة، مع العمل على تحسين نقاط ضعفك. ويستمر الكتاب في توجيه النصائح، فيدعو إلى الاستمرار بالقراءة والاستماع والتعلم، لتوسعة الآفاق وزيادة عدد الأشخاص الذين يمكننا التواصل معهم وإيجاد خبرة مشتركة بيننا وبينهم.

التواصل يُعد المهارة الأهم في عالم الأعمال اليوم. والمستقبل يبتسم لمجيدي التواصل مع الناس ببساطة ووضوح. إلا أن ثمة قواعد أساسية للتواصل الفعال يقدِّمها الكتاب. نذكر منها:

- اجعل نفسك أكثر وضوحاً. فالوضوح يغرس بذور الثقة في النفوس ويجعل الناس يعتقدون أنك خبير.
- لتكن لك علامة تجارية تتمتع بالصدقية، كالعلامات التجارية الكبيرة الموثوق بها.
- لأن التعبير عما تفعل أو تبيع أصبح معقداً للغاية، استخدم رسائل واضحة وشعاراً مفعماً بالحيوية.
- من حقك أن تفخر بمؤهلاتك وأن تتوقع أن يقدِّر الآخرون منجزاتك. ولكن كن حذراً وأنت تمتدح نفسك.
- استحوذ على انتباه سامعيك. وتفنن في صياغة الجمل الافتتاحية الخاصة بك.



غلاف الكتاب

الاستماع والتحدث

إن الاستماع والتحدث مهارتان أساسيتان رائعتان. فالاستماع يزيد من جاذبيتك. ومن الأشياء التي تبعث على الرضا، أن تجد من يسمعك. إننا كثيراً ما نسمع النصيحة القيِّمة «لدينا أذنان وفم واحد». وهذا يعني أننا يجب أن نستمع ضعف ما نتكلم.

وثمة قوانين يستعرضها الكتاب لتنمية هذه المهارة، ومنها:

- القانون الأول: أنت كما تبدو للآخرين. لذلك انتبه أن يبدو عليك القلق والتشتت أثناء تحدثك.
- القانون الثاني: عندما تستمع لشخص ما، توقف ثانية قبل أن ترد، فهذا يعني أنك تستمع إليه جيداً.
- القانون الثالث: حتى تحسن من قدراتك على الاستماع، ركِّز كل جسمك من الرأس إلى القدمين، واجعله منشغلاً بالمتحدث. عندها سينشغل عقلك أيضاً بالاستماع.
- القانون الرابع: لا يمكنك الاكتفاء بالاستماع فقط، عليك أن تنظر إلى ما يقال أيضاً.
- القانون الخامس: حين يكون العرض جيداً، لا بد أن يبعث على الحماس والدافعية.
- القانون السادس: أنت مرآة لما تروج له وعيناك تخبران المستمع من أنت.
- القانون السابع: اجعل خطابك قصيراً، مباشراً، ولا بأس أن تبدأ بدعابة مشتقة من مواقف الحياة اليومية.

نسج العلاقات

عليك أن تقوم بتنمية مهاراتك، ولكن أيضاً عليك أن تحاول النفاذ إلى عقول الناس من خلال قلوبهم. إن اللحظة الأولى هي اللحظة الحاسمة في أية علاقة، لذلك عليك أن تحترف فن الترحيب بالآخرين ومنحهم المودة والاهتمام. فأية علاقة تبدأ لحظة الإحساس بالارتياح.

عندما تواجه مشكلة ما، اعرف كيف تحلها، وابحث عمن يمكنه أن يساعدك على حلها. ثم افعل الصواب. بيد أنه من المهم أيضاً أن تقيم أرضاً مشتركة بينك وبين سامعيك مهما كان بينكما من مشكلات. ولا تنس أن تقديم العون للآخرين يفيدهم ويفيدك أيضاً، فهو يزيد من احترامك وتقديرك لذاتك.

التوجه والمعتقدات

يؤكد الكاتب على نظرية مهمة، مفادها: «أنت مجموع ما يعتقده الآخرون عنك. وأنت بالنسبة لهم ما تعتقده عن ذاتك». ويدعو القارئ إلى أن يجرِّب القيام بعمل ما يحبه، ليشعر عندها بالرضا والسعادة. كما يحثه على تقبل أخطائه، فحتى الأشخاص الذين كانت حياتهم مليئة بالنجاح، حفلت حياتهم بخطوات تقهقر للخلف.

ويؤكد المؤلفان أن الحياة لا تتشكَّل لنا كما نريد، وإنما باستجابتنا للأحداث، وأن حياتنا لن تتغيَّر، إلا إذا قمنا بتغييرها. كل ما علينا فعله، أن نثق في قدراتنا.

فن التكتيك والعادات

هل تريد أن تحقق فائدة أكبر في علاقاتك المهنية.. حسناً، إليك هذه الباقة من الملاحظات والنصائح التي يقدِّمها لك الكتاب:

- لا يفكِّر الناس بطريقة منطقية، فهم يهتمون بالأمور الصغيرة أكثر من الأمور الكبيرة.
- أرسل رسائل شكر بقدر ما تستطيع.
- حاول أن تشكر الآخرين بطريقة مميزة لا يمكن نسيانها. فهذا سيعطيك شعوراً جيداً.
- تذكر أن العامل الأول للنجاح هو في أن تجعل الطرف الآخر مرتاحاً. والراحة تبدأ من مظهرك، لأن ملابسك وحقيبتك تعطي إشارات ومعاني.
- احتفظ دوماً بنسخة إضافية احتياطية من كل وثيقة، وراجع كل شيء مرتين وليكن لديك دائماً خطة للطوارئ.
- لا تناقش أمور السياسة والدين والمسائل الشخصية في جلسات العمل، وابتعد عن الحديث في الموضوعات المثيرة للجدل.
- حافظ على الأسرار.
- اعترف بأخطائك واعلم أن النجاح يأتي ويذهب، والفشل أيضاً.
- عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك. وكن عادلاً معهم حتى يكونوا عادلين معك.
- اثن على الآخرين ولا تتملقهم أبداً، فالتملق يعطي نتائج عكسية.

النجاحات والإخفاقات المبهجة

في الفصل الذي يحمل هذا العنوان يقدِّم المؤلفان للقارئ نصائح عامة هي بمثابة خلاصة تجاربهما الجمة. ومنها نقتطف هذه المجموعة: «احترم الجميع، افعل ما بوسعك لترضيهم، استمر في التعلم، أحب من هم حولك، قدِّم تضحيات للغير، لا تجعل المال هدفك في البداية وتكيف مع الوضع».

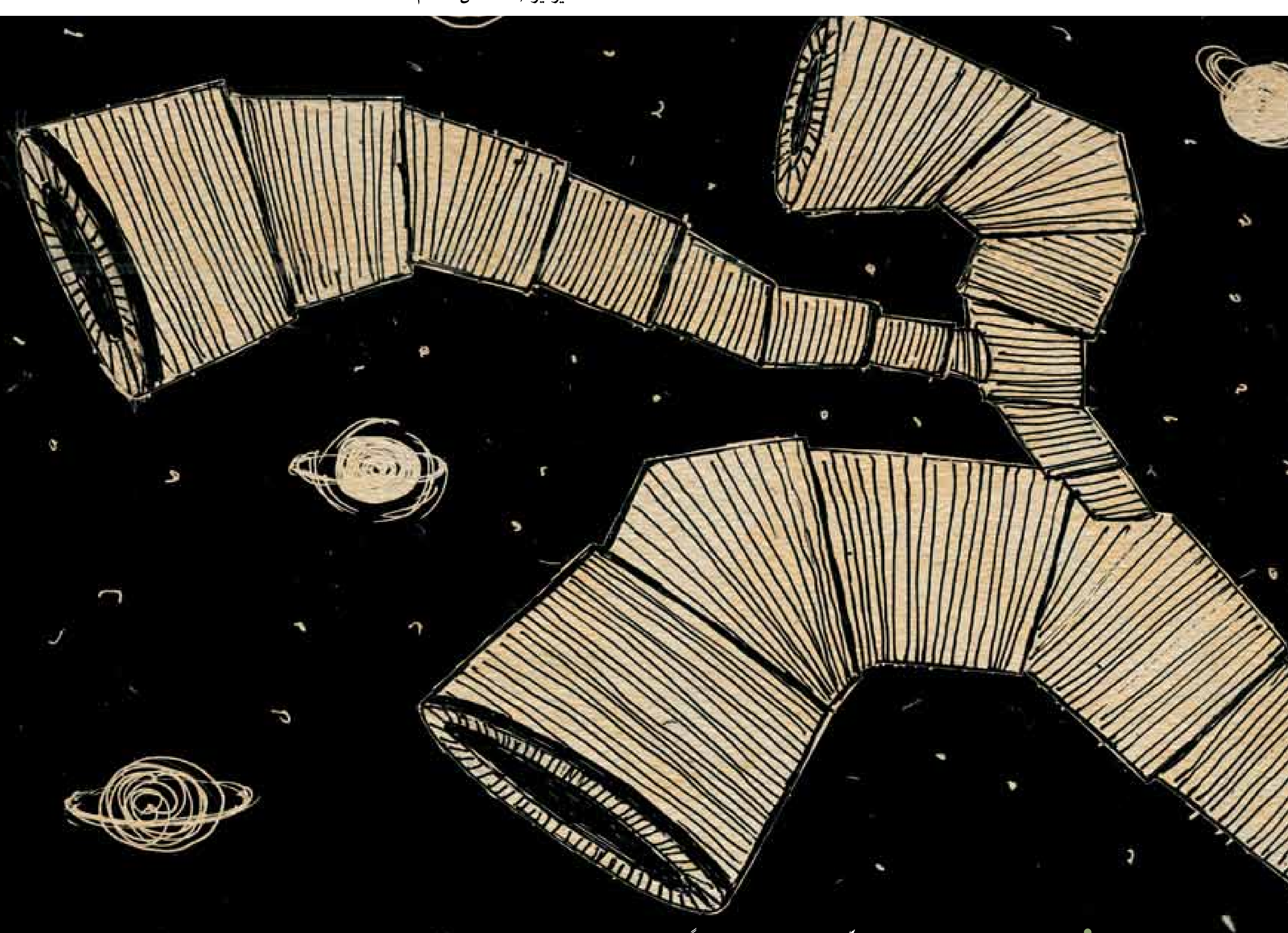
ويختم المؤلفان كتابهما بثلاثة أفكار:

- فقط اعط...ثم راقب ما سيحدث.
- قلما تنجح وحدك، وإنما تنجح من خلال الآخرين.
- استفد من الحياة ، فهي متعة تنقضي في غمضة عين.



بعد خمسين عاماً من البحث، والنتيجة لا شيء..

الحياة على كواكب أخرى



كتب قارئ لمجلّة علمية تعليقاً على موضوع احتمال وجود كائنات ذكية في الفضاء الخارجي، أنّ وجودها مؤكد بدليل أنّ أياً منها لم يتصل بنا!

يصادف العام الجاري ذكرى مرور 50 سنة على بداية أول جهد علمي وعملي للبحث عن الحياة على كواكب أخرى غير الأرض. ولكن على الرغم من هذه المدة التي تبدو طويلة، وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التي صرفت على بناء التلسكوبات العملاقة وأدوات الرصد وجهود مئات العلماء، لا يزال وجود «حضارات» على كواكب أخرى غير الأرض مجرد فكرة شاعرية. إذ لم يتأكد العلماء حتى الآن من وجود أي شكل من أشكال الحياة في صيغتها البدائية، لا على كواكب المجموعة الشمسية ولا على الكواكب التي طالتها التلسكوبات.

رانيا منير تعرض مسار الجهود التي بذلت ولا تزال تبذل في هذا الإطار، والتي يبدو أن أكثرها جدية وأقربها إلى تحقيق بعض النتائج يبقى حتى اليوم منصباً على البحث عن توافر العناصر الأولية اللازمة لأبسط أشكال الحياة مثل الأوكسجين والماء.

رسوم الموضوع: المحترف السعودي - سارة أبو الحسن





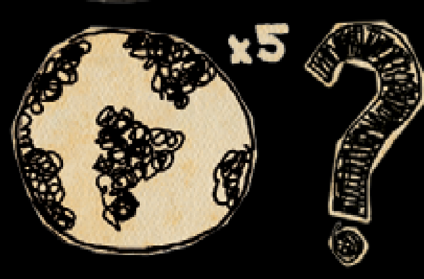
منذ ثلاثة قرون توقع العلاّمة سير كريستوفر رين بأنه سيأتي على الإنسان زمن يرسل فيه بصره ليرى كواكب شبيهة بكوكب الأرض. وحسب توقعات الفلكيين، فإن ذلك الوقت قريب جداً.

فقد تم للتو اكتشاف ما يقارب 450 كوكباً يتم رصد العديد منها أسبوعياً، وهي تدور حول نجوم أخرى كشمسنا، بل تأكد العلم من وجود ما يقارب العشرة آلاف مليون مليون مليون نجم منها ما هو بحجم الشمس ومنها ما هو أكبر أو أصغر، وهذا ما جعل الباحثين يرجحون أن تكون الكواكب والأنظمة الشمسية الشبيهة لنظامنا موجودة بوفرة في كل مكان من الكون. فكانت الخطوة التالية هي البحث عن كواكب شبيهة بكوكب الأرض تدعم شروط الحياة عليها، بحيث أن تكون موجودة في المنطقة التي يسميها الفلكيون منطقة «الخصلة الذهبية» أي أنها ليست بعيدة جداً عن نجمها الأم لدرجة تصبح معها كتلاً متجمدة من الجليد والصخر كالكوكب القزم بلوتو، ولا أن تكون قريبة جداً منه فتكون درجة الحرارة عليه غير مناسبة لنشوء الحياة مثل كوكب عطارد.

ولكن المشكلة تكمن في رصد مثل هذه الكواكب الصغيرة والتي تصدر طيفاً أقل بكثير من طيف النجم الأم. ولهذا تصعب رؤيتها مباشرة. إذ يبدو البحث عنها وكأنك تبحث عن رأس إبرة أحمر بجانب ضوء شديد مسلط حوله. لهذا، يتم رصدها بطريقة غير مباشرة من خلال رصد حركة النجم، حيث يؤدي الجذب التثاقلي للكوكب إلى جعل النجم يترنح إلى الأمام والخلف، وتؤدي هذه الحركة إلى انزياح دوري يسمى «انزياح دوبلر» في طيف هذا النجم المشاهد من الأرض، فيتم بذلك حساب كتلة هذه الكواكب وحرارتها وبعدها عن نجمها.

صيادو الكواكب

تحسن الجيل الجديد من تقنيات البحث عن هذه الكواكب خمس مرات عما كانت عليه سابقاً. فللبحث عن الكواكب الصغيرة التي يغمرها وهج نجومها القريبة ويجعل تلك الكواكب أقل إضاءة ملايين المرات من نجومهم الأصلية، أوجد الفلكيون ما يعرف بأداة التسجيل البصري الدوامة التي تقوم بجذب الضوء إلى المركز المظلم ثم تعيد عكسه إلى مكانه، فيختفي تماماً ضوء النجم مما يجعل رؤية أي كواكب قريبة أسهل بكثير. كما تتم الاستفادة من التقنية المعروفة بالمدخال في التلسكوب، وهي أداة تستخدم



ظواهر التداخل الضوئي لتحديد طول الموجة ومعامل الانكسار، والتي تجمع قوة عدة تلسكوبات صغيرة لتنتج صورة رقمية قوية.

لدى التأكد من وجود كثير من الكواكب الشبيهة للأرض في المجموعات الشمسية الأخرى، بدأ البحث عن توافر شروط الحياة عليها. ففي السبعينيات من القرن العشرين، أشار العالم البريطاني جيمس لفلوك إلى أن مجرد التنفس على الأرض يؤثر في تركيبة الغلاف الجوي وأن البحث عن توزع الغاز في الأغلفة الجوية للكواكب الأخرى يمكنه أن يكون طريقة مفيدة للبحث عن حياة خارج نظامنا الشمسي.

لهذا يعمل العالم مالكولم فريدلوند من وكالة الفضاء الأوروبية في هولندا، على مشروع يهدف إلى البحث عن حياة خارجية من خلال فحص أية إشارات كيميائية يمكن أن ترسلها تلك الحياة كالأكسجين والميتان وأبخرة الماء. وهو يعتقد أنه بحال كانت الكواكب الأخرى تتبع نظام نشوء مشابه لذلك الموجود على الأرض فمن المحتمل أن تلك الكواكب ربما كانت مأهولة بشكل من أشكال الحياة.

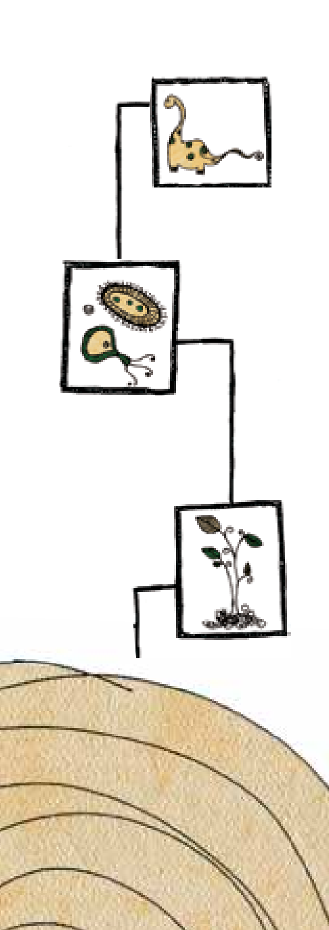
أما في مختبر ناسا في كاليفورنيا فهناك جهود مماثلة، إذ تستمر دراسة 50 إلى 150 كوكباً شبيهاً بالأرض بحثاً عن إشارات للحياة في غلافها الجوي. حيث يعتقد العلماء أنه من دون وجود حياة سيختفي كل الأكسجين الحر في الغلاف الجوي خلال مليوني سنة لأنه يتفاعل بسهولة مع العناصر الكيميائية الأخرى. لهذا فإن وجود كوكب يحتوي على الكثير من الأكسجين يعني أن هناك حياة عليه. ومن الدلائل الأخرى التي يأمل العلماء بالبحث عنها هناك بخار الماء وثاني أكسيد الكربون. وفيما بعد، قد يبحثون عن الكلوروفيل المسؤول عن عملية التركيب الضوئي في النباتات والذي سيكون دليلاً قوياً لوجود حياة ما خارج الأرض.

دلائل الحياة الخارجية موجودة على الأرض

نقلت صحيفة التلغراف في عددها الصادر في 25 يناير 2010م عن البروفيسور باول دايفس من جامعة أريزونا قوله: إن البحث عن أدلة على وجود حياة على الكواكب الأخرى يجب أن يبدأ على الأرض بدلاً من البحث في الفضاء الخارجي. ويقترح البروفيسور دايفس أن يتم البحث في الصحاري والفتحات البركانية والبحيرات المشبعة بالأملاح والوديان الجافة في القطب الجنوبي وغيرها من البيئات القاسية حيث تكافح مظاهر الحياة هناك لتستمر.

البحث عن احتمالات الحياة على كواكب أخرى، يبدأ من أماكن مشابهة في بقاع قصية من الأرض

لهذا يتوجه بعض الباحثين إلى الأماكن الملوثة كبحيرة مونو في كاليفورنيا بحثاً عن الزرنيخ الذي يمكن أن يدعم أشكال الحياة بنفس الطريقة التي تعتمد فيها بعض أشكال الحياة على مادة الفوسفور. أما عالمة الأحياء ليزا برات فهي تعمل على البحث عن كائنات حية وميكروبات غريبة في أماكن قصية من الأرض، حيث قامت مع زملائها بفحص مناجم الذهب في جنوب إفريقيا فوجدوا بكتيريا تعيش فقط على النشاط الإشعاعي لتفسخ الصخور المجاورة. وقد عبرت عن دهشتها بهذا الاكتشاف قائلة: «حتى عدة سنوات مضت لم يكن هناك من يعتقد بوجود هذا النوع من الحياة، لم يحدث ذلك حتى في قصص الخيال العلمي. بينما الآن، يمكن تخيل بكتيريا مشابهة تعيش تحت سطح المريخ مثلاً».



إن التطور العلمي الذي حدث في مجال علم الأحياء الفلكي قدَّم مبررات أكبر لاستمرار البحث عن أشكال للحياة في كواكب النظام الشمسي والمجرات البعيدة. ولهذا تم التركيز على المريخ، حيث يقوم روبوت ناسا «فونيكس» الذي حط هناك بحفر التربة والجليد وأخذ عينات منها لفحصها على الأرض، وقد وُجِد أنها تحتوي على الكثير من المواد العضوية التي تحتاجها الحياة. ومع ذلك لم يجد العلماء دليلاً كافياً لحياة موجودة أو كانت موجودة سابقاً، رغم أن الصور والوثائق المأخوذة للمريخ تؤكد أنه كان موطناً لبحيرات شاسعة وأنهار وعدة بيئات مائية ربما كانت بيئة مناسبة للحياة.

يقول جون روميل مدير قسم علم الأحياء في ناسا: «إن شروط الحياة أوسع بكثير مما نراه على الأرض، المواد العضوية التي تسقط من السماء طيلة الوقت تدلنا على أهمية ما يحدث هناك».

فبعدما توصل العلماء إلى الكثير من أشكال الحياة الموجودة في أماكن قصية على

التلسكوبات العملاقة.. خمسون سنة من التنصت ولم تسمع شيئاً

Corbis

الأرض لا تدعمها طاقة الشمس، كالبكتيريا الموجودة في مناجم جنوب إفريقيا، والكائنات الحية التي تعيش قرب فجوات بخارية كبريتية حارة في قاع المحيط والبحيرات الحمضية، وعلى عمق ميلين تحت طبقة الجليد في جرينلاند، أصبح احتمال وجود حياة مشابهة على الكواكب الأخرى كالمريخ أو القمر أوروبا وارداً، نظرياً على الأقل.

بحلول العام 2015م سيتم تتبع 100,000 نجم بواسطة 350 تلسكوباً في كاليفورنيا

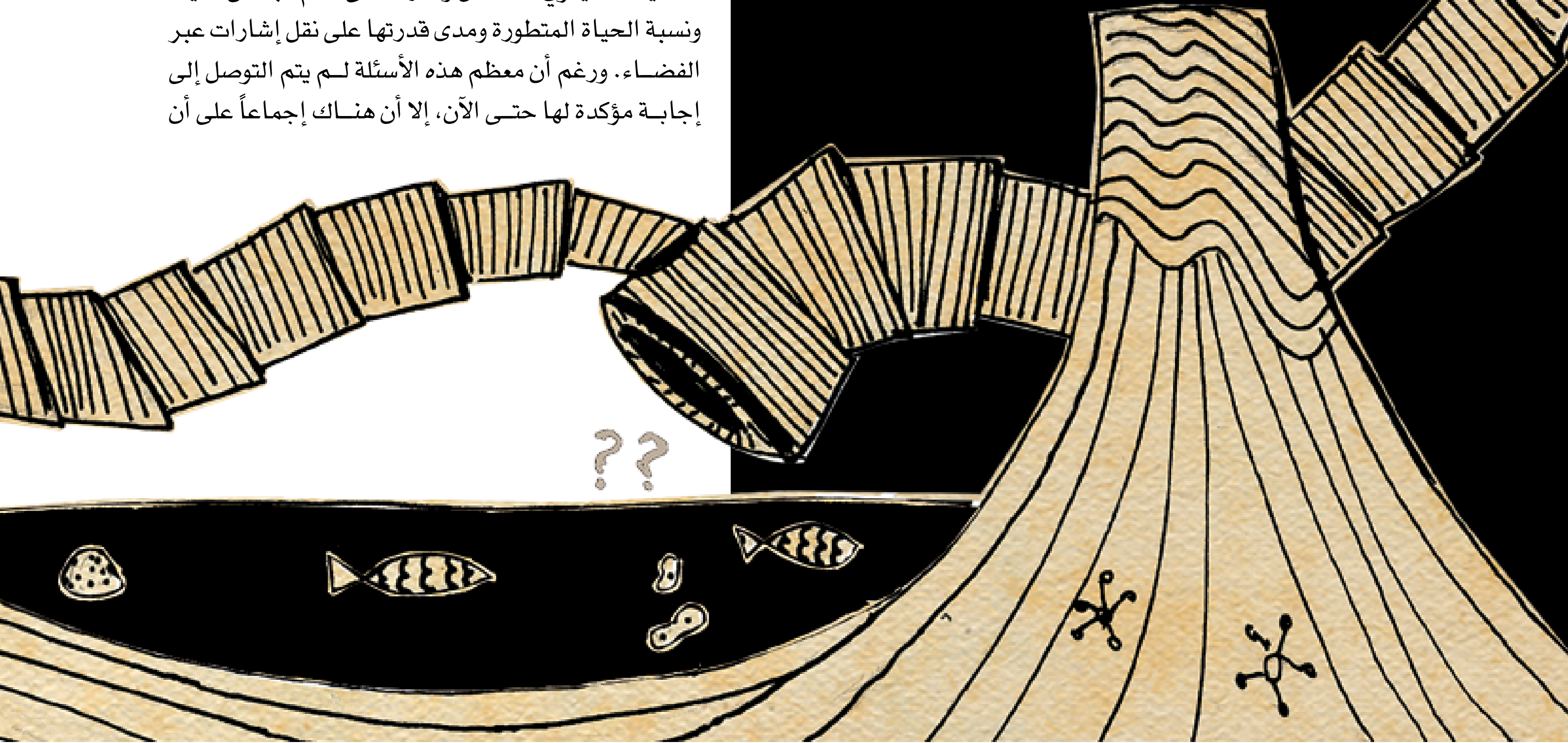
ولهذا خصص حوالي 40 مليون دولار لدعم الأبحاث في مجال علم الأحياء الفلكي وتطوير التقنيات التي تساعد على البحث عن حياة في بيئات مشابهة لتلك الموجودة على الأرض. وقد قامت عدة معاهد بالفعل بتطوير برامج للبحث في مجال علم الأحياء الفلكي تحت إشراف ما يقارب ألفي عالم. بعضهم يعمل على إنشاء كواكب افتراضية تشبه الكواكب البعيدة التي يحتمل وجود الحياة عليها وتحمل نفس شروطها المناخية.

البحث عن حضارات متطورة؟

أما إدوارد ويلر أحد مؤسسي برنامج علم الأحياء الفلكي في «ناسا» فقد ذهب إلى أبعد من ذلك بقوله: «نحن الآن نعلم أن عدد النجوم في الكون هو تقريباً واحد يتبعه 23 صفراً! وبهذا الرقم سيكون من الغرور الاعتقاد بأن نجمنا هو الشمس الوحيد الذي يزوِّد كوكب كالأرض بالعناصر اللازمة للحياة، وأن النظام الشمسي هو الوحيد الذي يحتوي على حياة ذكية».

إذاً لم يعد الفلكيون يكتفون بالبحث عن أشكال الحياة البدائية لأي كائنات حية يمكن أن تعيش على الكواكب الأخرى، بل أصبحوا يتطلعون إلى البحث عن حياة ذكية ومتطورة في الكواكب الأخرى وهي فكرة بدأت منذ خمسين عاماً عندما قام فرانك درايك رئيس برنامج «البحث عن مخلوقات ذكية خارج كوكب الأرض» في معهد كاليفورنيا، في 8 أبريل من عام 1960م، بتوجيه هوائي جهاز الاستقبال اللاسلكي نحو نجمين قريبين وبدأ يترقب سماع أية إشارة يمكن أن تحقق التواصل بين كوكب الأرض وأي حضارة أخرى موجودة خارج مجموعتنا الشمسية..

وقد ناقش المقال الصادر في صحيفة الغارديان في 8 يناير 2010م المعادلة المعروفة بـ «معادلة درايك»، التي قدَّمها عالم الفلك الأمريكي فرانك دريك، والتي تتضمَّن فكرة إمكانية إنشاء اتصال مع سكان الكواكب الأخرى وشكل الحياة المتطورة التي يحتمل وجودها هناك وعدد النجوم المتشكلة في المجرة خلال سنة، ونسبة النجوم التي يدور حولها كواكب وتشكل نظاماً شمسياً، وعدد الكواكب في كل نظام شمسي والتي تملك إمكانية دعم الحياة عليها، وطبيعة المحيط الحيوي المتشكِّل وقدرته على دعم أجناس ذكية، ونسبة الحياة المتطورة ومدى قدرتها على نقل إشارات عبر الفضاء. ورغم أن معظم هذه الأسئلة لم يتم التوصل إلى إجابة مؤكدة لها حتى الآن، إلا أن هناك إجماعاً على أن



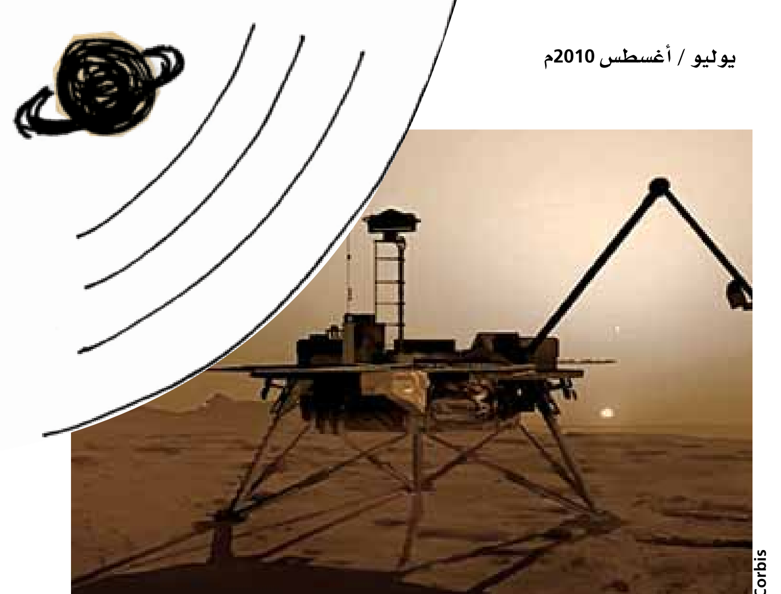
عشرة نجوم تتشكَّل سنوياً في المجرة، مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الكواكب خارج نظامنا الشمسي غير نادرة على الإطلاق.

اعتماداً على هذه المعادلة، يفترض البعض أن تكون هناك حضارة متطورة نشأت في واحد على الأقل من أصل عشرة ملايين نجم وقد تصبح المعادلة أدق في السنوات المقبلة، إذا تمكن المسبار «كيبلر» الذي أطلقته «ناسا» في 2007م من إنجاز مهمته في تتبع الكواكب التي يحتمل وجود الحياة عليها بالتعاون مع نظام تلسكوب «ألين» الذي يتألف من 42 تلسكوباً بعرض ستة أمتار، ويتم العمل على أن تصبح 350 تلسكوباً، تنتشر على امتداد جبال كاليفورنيا وتقوم باستحضار نداءات من أعماق الفضاء. حيث يتوقع العلماء أن يتمكنوا من تتبع 100,000 نجم بحلول عام 1015م كما يأمل فرانك درايك قائلاً: «لقد تتبعنا منذ عام 1960م أقل بكثير من عشر آلاف نجم، فنظراً لإمكاناتنا الحالية لا يمكننا التيقن بأي شيء ذي قيمة حتى الآن، ولكن ربما يكون لدينا شيء مفيد لنقوله خلال 25 سنة قادمة».

الصمت المخيف

على الرغم من خيبة أمل العلماء في وصول أية إشارات من مخلوقات الكواكب الأخرى، إلا أنهم لا يعتبرون الأمر غريباً. فلكي تعطي حياة ما إشارة إلى وجودها، يجب أن تكون متطورة أولاً، ولكي تصل أي إشارة يستوجب ذلك سنوات لكي تسافر بسرعة الضوء لتصل فقط النجم المجاور لشمسنا. كما أن عمر الإنسان كجنس بشري على هذه الأرض يبلغ حوالي 100,000 سنة ولكنه بدأ بنشر وجوده على شكل إشارات لاسلكية متعمدة يمكن للمخلوقات الخارجية التقاطها، منذ أقل من 100 سنة فقط. فلو قدر للإنسان نظرياً أن يستقبل هذا الأسبوع من المخلوقات الخارجية جواباً عن أقدم الإشارات المرسلة فيجب أن تكون هذه المخلوقات موجودة على بعد أقل من 50 سنة ضوئية عن الأرض. ولهذا لا تعتبر مفاجأة كبرى أن شيئاً لم يسمع بعد.

ومع هذا مازال البحث مستمراً، حيث يتم تخصيص فترة محددة من كل عام للاستماع لرسائل قد يكون سكان


Corbis
البحث عن الماء على سطح المريخ

الكواكب الأخرى أرسلوها عمداً. وتُعد الجهود المبذولة حتى الآن كمن يبحث عن سمكة في المحيط بملء كوب واحد من الماء، فعدد الأنظمة الشمسية التي تم رصدها حتى الآن صغير جداً بالمقارنة مع عدد المجموعات الشمسية في الكون. إضافة إلى التساؤل حول كون استخدام إشارات اللاسلكي هو الأسلوب المناسب لمحاولة التواصل مع تلك الحضارات، فالجهاز اللاسلكي يُعد الآن شكلاً بدائياً من التكنولوجيا، فحتى على الأرض بدأ استخدام الإنترنت يزداد للتواصل بين الناس بحيث بات يهدِّد بالقضاء نهائياً على الأجهزة اللاسلكية.

تقنيات تسمح بالتواصل عام 2025م

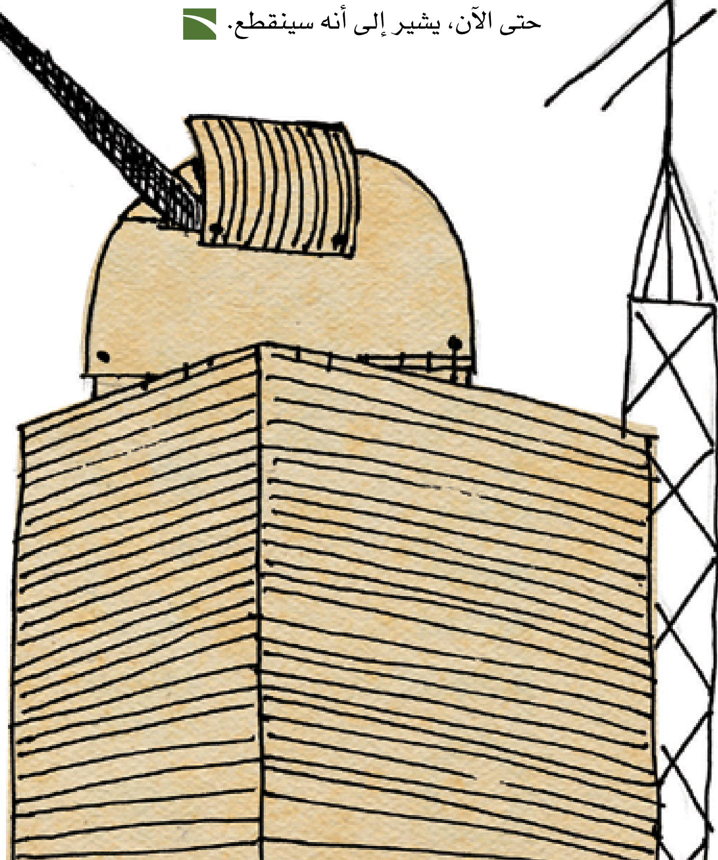
يرى البعض أن المشكلة تكمن في استخدام الأداة المناسبة للبحث عن «الحضارات» المتطورة. حيث يفترض هورويتز الفيزيائي في جامعة هارفارد أن هناك من يحاول إرسال إشارات للأرض من كوكب آخر، وبهذه الحالة فإن أفضل طريقة لتعقب هذه الإشارات هي استخدام الليزر الذي ازدادت قوته عبر العقود في حين تراجعت قوة التلسكوب اللاسلكي الذي يتوجب عليه تقطيع الطيف إلى أجزاء دقيقة لدراستها، إضافة إلى مشكلة التناوب بين المجال البصري للتلسكوب ومجاله التعاظمي، فالتلسكوبات الصغيرة يمكن أن تغطي مساحة كبيرة من الفضاء ولكنها تلتقط الإشارات القوية فقط، بينما التلسكوبات الكبيرة يمكنها التقاط الإشارات الضعيفة بمجال رؤية ضيق. لهذا يواجه الفلكيون صعوبة النظر بدقة وشمولية.

وقد تم التوصل إلى إنتاج شعاع ليزر أقوى من الشمس وأسرع بعشرة آلاف مرة من ضوئها، بالرغم من أنه يستمر فقط لبليون جزء من الثانية. وبدأ الفلكيون باستخدام تلسكوبات بصرية للبحث عن واحد من بليون من صور الليزر والنداءات التي يمكن أن ترسل في الفضاء. ففي

حال توصل سكان الحضارات الأخرى للتطور التقني نفسه وقاموا بتوجيه الليزر نحو النظام الشمسي للأرض فإن هكذا ومضات قصيرة ستكون ممكنة الاكتشاف على بعد عدة سنوات ضوئية.

يعتقد فرانك درايك أن التقنية المستخدمة الآن في البحوث هي 100 تريليون مرة أقوى من تلك التي بدأنا بها، وما زالت الجهود تستأنف في كل أنحاء العالم. فقد قام الدكتور هورويتز بإنشاء متعقب لا يتطلب تضخيماً كبيراً وهو قادر على تغطية رقعة عريضة من الفضاء، لإرسال رسائل إلى الفضاء. كما يتم العمل في جامعة هارفارد على إنتاج أعقد الأبحاث البصرية. وفي شهر نوفمبر من العام الماضي، خصصت مجموعة مكونة من 30 مرصداً وجهازاً لاسلكياً بصرياً ليلتين لرصد نظام شمسي محدد بحثاً عن إشارات لا سلكية أو نبضات ليزر، ويتم استخدام أقوى الحواسيب لقراءة المعلومات الواردة. كما يقوم الصينيون ببناء تلسكوب بعرض 500 متر، وهناك تعاون دولي باسم نظام الكيلومتر المربع، يسعى لبناء شبكة من التلسكوبات اللاسلكية على كيلومتر مربع إما في جنوب إفريقيا أو أستراليا. كما يتم بناء تلسكوب جديد في كاليفورنيا الشمالية بدعم من أحد مؤسسي شركة ميكروسوفت، باول آلين، علّ في ذلك ما يكسر صمت الكون كما يرى البعض. أما اليوم، فالصمت لا يزال سائداً، وقد يستمر طويلاً، إذ لا دليل علمي واحد حتى الآن، يشير إلى أنه سينقطع.


Corbis



أهم عشرة أحداث في تاريخ البحث عن حياة خارجية

• رجال الفضاء الخضر

في عام 1967م التقط الفلكيون في بريطانيا إشارة لاسلكية من نجم آخر. وهو ليس بالأمر الغريب إذا علمنا أن كل النجوم تصدر أمواجاً لا سلكية. ولكن الجديد في هذا النجم أنه كان يطفئ ويشعل نفسه بانتظام دقيق، مما جعلهم يُعدون هذه الضربات الإيقاعية إشارة من حياة خارجية. فأعطيت هذه الإشارات اسم LGM-1 اختصاراً لكلمات Little Green Men الرجل الأخضر الصغير. ولكن الحقيقة أنه كان مجرد نوع جديد من النجوم تسمى بالنجوم المتذبذبة Pulsars (نجم متذبذب يصدر إشعاعات مرئية وإشارات لاسلكية وأشعة إكس) وهو شكل من نجوم النيوترون الذي يدور بسرعة هائلة فيصدر عنه إشعاعات قوية أثناء دورانه اللولبي السريع.

• بكتيريا مريخية

في عام 1984م وجدت صخرة في تلال ألان في آنتاركتيكا (وهي قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي). ويعتقد أن هذه الصخرة قد نشأت على المريخ منذ حوالي 4.5 بليون سنة مضت قبل أن تقذف في الفضاء إثر تصادم نيزكي منذ حوالي 15 مليون سنة. فتجولت في الفضاء لملايين السنين قبل أن تصطدم بكوكبنا بـ 11000 سنة قبل ميلاد المسيح. عرف هذا الحجر النيزكي باسم ALH84001 وتصدرت أخباره عناوين الصحف عام 1996م وأعلن عنه الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في تصريح تلفزيوني.

لدى دراسته وجد فيه بنية تشبه بكتيريا صغيرة متحجرة كما وجدت جزيئيات عضوية مما أثار مجدداً نظريات وجود حياة قديمة على المريخ. وما زالت النقاشات تدور حول كون هذا الحجر دليلاً واضحاً للحياة على المريخ أو أن هذه العينة قد أفسدها الزمن الذي بقيت فيه على الأرض.

• الكواكب الشبيهة بالأرض

تعد الكواكب الصخرية أكثر الأماكن التي يحتمل وجود الحياة عليها. وهناك أربعة منها في مجموعتنا الشمسية– المريخ وفينوس والأرض وعطارد. وقد وجدوا خلال السنوات الأخيرة بعض الكواكب الشبيهة بها خارج المجموعة الشمسية، ففي عام 2007م أعلن علماء أوروبيون عن إيجاد كوكبين يمكن أن يكونان مأهولين بالحياة خارج المجموعة الشمسية.

• الماء على المريخ

تمكن المستكشف الذي أطلق حول المريخ من إيجاد الجليد في خمسة مواقع على المريخ، وهي آخر ما تم التوصل إليه ضمن سلسلة اكتشافات الماء على هذا الكوكب. مما يشير إلى إمكانية وجود مناخ أكثر رطوبة على هذا الكوكب في مرحلة ما خلال بضعة آلاف السنوات الأخيرة. ونظراً لضرورة الماء لكل أشكال الحياة فإن وجوده يزيد من احتمالات وجود الحياة هناك.

• معادلة درايك

كانت معادلة العالم فرانك درايك هي أول محاولة جادة لفهم إمكانية تواصل البشر مع الحياة الخارجية. حيث تقول المعادلة إننا إذا علمنا نسبة بنية النجم ونسبة النجوم التي تحوي كواكب صالحة للحياة ونسبة هذه الكواكب التي من المحتمل أن ترسل إشارات بوجود الحياة عليها إلى العالم، بهذا يمكننا تحديد عدد الحضارات في مجرتنا التي يمكن أن نتواصل معها. ولكن لسوء الحظ لم يتم التوصل لأي من هذه العناصر ولهذا ما زلنا نخمن فقط.

• رسالة أريسيبو

في نوفمبر 1974م تم إرسال رسالة لا سلكية من تلسكوب أريسبو في بورتو ريكو نحو مجموعة النجم M13 الذي يبعد 25000 سنة ضوئية. وقد قام بإرسالها مؤلف معادلة درايك الدكتور فرانك درايك والفيزيائي كارل ساكان وتضمنت صورة إنسان ومعلومات عن مكونات حمض الدي إن آي DNA. ولكن لسوء الحظ سيكون النجم M13 قد تحرك خلال الوقت الذي ستصل فيه الرسالة. كما تم فيما بعد إرسال موسيقى لفرقة البيتلز إلى نجم بول الذي يبعد 431 سنة ضوئية والذي اعتبر كدعوة للمخلوقات الخارجية المحبة للحرب إلى شن حرب بين النجوم.

• رحلة فضائية

في عام 1977م أطلق مسبارين في رحلة فضائية تم تزويدهما إضافة للمعدات العلمية بأقراص تحوي معلومات حول الأرض وموسيقى موزارت وكلمات إلقاء التحية بـ 54 لغة بشرية. وهي حالياً تبعد 10 بلايين ميل عن الأرض وتستغرق إشاراتها اللاسلكية 15 ساعة لتصلنا بسرعة الضوء. وقد أعلن علماء ناسا في مايو 2005م أن المركبة الأولى وصلت حدود النظام الشمسي ومن المتوقع أن تدخل فضاء نجم آخر بحلول عام 2015م وبهذا تكون أول مركبة يصنعها الإنسان تتخطى نطاق الشمس.

• تلسكوب كيبلر

أطلقت في مارس مهمة كيبلر بهدف إيجاد كواكب شبيهة بالأرض حول النجوم الأخرى. وهي مهمة مصممة لإيجاد كواكب صغيرة من خلال مراقبة النجوم عن كثب لمعرفة فيما إذا كانت ستظلم فجأة مما يعني أن هناك شيئاً ما يمر أمامها. وإن كان ذلك الشيء هو كوكب بحجم الأرض فهذا يعني أن النجم سيظلم فقط بنسبة 0.01 بالمائة.

• إشارة WoW

في عام 1977م التقط فلكي من معهد SETI إشارات لا سلكية غير عادية أثناء عمله على تلسكوب لا سلكي في جامعة ولاية أوهيو. ونظراً لحماسه الشديد فقد كتب كلمة WoW على هامش أوراق المعلومات فعرفت هذه الإشارة باسم إشارة WoW رغم أنه لم يتم التقاطها مجدداً بعد ذلك. ولدى التأكد منها بعيداً عن الانفعال أعلن مكتشفها الدكتور جيري ريهمان أنها قد تكون إشارة مصدرها الأرض وعكستها قطعة من مخلفات الفضاء. أما الدليل الآخر لوجود الحياة الخارجية فهو إشارة 14a+SHGb02 التي تم التقاطها ثلاث مرات في مارس 2003م، مما جعلهم يتوقعون أن هذا التكرار يستخدم من قبل الكائنات الخارجية حيث يتم امتصاص الهيدروجين ونفث الفوتون. ورغم ذلك هناك أسباب قوية لنكون غير متأكدين ، فهذه الإشارات تأتي من اتجاه لا توجد فيه نجوم حتى مسافة 1000 سنة ضوئية. فنظراً لاستحالة تقرير أن مصدر هذه الإشارة هو حياة خارجية فيمكن اعتبارها إشارة محرفة من نجم متذبذب أو مجرد ضجة عشوائية.

• SETI@home

استمر البحث عن حياة خارجية في القرن الحادي والعشرين في مئات آلاف المقرات والمكاتب حول العالم. ولهذا أطلق عام 1999م اسم SETI@home على حاسوب ضخم مكون من عدد كبير من الحواسيب المنزلية المتصلة ببعضها عبر الإنترنت. وبإمكان أي أحد أن ينصب البرنامج ويسمح لمعهد SETI باستخدام طاقة المعالجة الاحتياطية لحاسوبه لمعالجة معلومات من تلسكوبات لا سلكية بحثا عن دليل لحياة خارجية متطورة. إنه أقوى حاسوب على الكوكب وهذه الشبكة هي التي رصدت إشارة 14a+SHGb02. كما يتوقع علماء ناسا أنه سيتمكن من إيجاد إشارة لحياة خارجية بحلول عام 2025م.

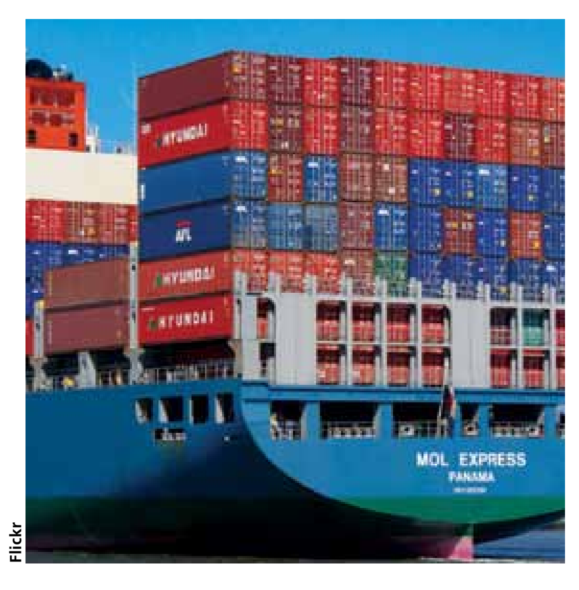
1 مستوعبات الشحن.. شرايين التجارة العالمية

قلّما تثير مستوعبات الشحن اهتمامنا لاعتقادنا أن شأنها يخص شركات النقل والعاملين في الموانئ فقط. فيفوتنا أن معظم ما يحيط بنا في حياتنا اليومية من ملابس وأدوات كهربائية ومفروشات وحتى الأغذية، دخل هذه المستوعبات قبل أن يصل إلينا.

فعلى الرغم من أن جذور مستوعبات الشحن تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، فإن شكلها العصري يعود إلى عام 1955م فقط، وهو من ابتكار رجل أعمال يُدعى مالكولم ماكين ومهندس مساعد هو كيث تانتلينجر، اللذين أنتجا أول مستوعب فولاذي يتمتع بالمواصفات القياسية والمتانة والأمان لشحن البضائع وتحميله على متن السفن والشاحنات والقطارات.

وبحلول عام 2005م، بلغ عدد مستوعبات الشحن في العالم نحو 18 مليون مستوعب، ويبلغ عدد رحلاتها نحو 200 مليون رحلة سنوياً، تنقل نحو 90% من السلع المتداولة في التجارة العالمية.

واليوم، تُصنَّع المستوعبات وفق مقاييس موحدة عالمياً (26% منها يصنع في الصين)، بحيث يسهل على السفن رصها فوق بعضها البعض، كما أن السفن صارت تُصمَّم لكي تنقل أكبر عدد ممكن من هذه المستوعبات ذوات المقاييس المتعارف عليها.



Flickr

الطريف أنه عند ابتكار المستوعبات الحديثة في الخمسينيات لم يتوقع أحد حقيقة تأثيرها على الاقتصاد العالمي. حتى أن عالم الاقتصاد بنيامين شينيتز في جامعة هارفارد، قيَّمها آنذاكَ على أنها مفيدة لولاية نيويورك لأنها ستسمح بنقل منتجاتها إلى ولايات الجنوب. ولكن هذا العالم لم يتوقع أن تؤدي هذه المستوعبات دوراً عالمياً في تخفيض كلفة النقل، بحيث تغرق ولاية نيويورك بالسلع المستوردة.

2 الخيمياء الجديدة

سعى الخيميائيون قديماً إلى تحويل معدن الرصاص إلى ذهب، حتى إن هذا المسعى أصبح أشبه بالتحديد لـ «علمهم» رغم أنه لم يكن الوحيد في اهتماماتهم. وإن كنا نعرف اليوم أن الخيميائيين فشلوا في تحقيق غاياتهم، فيجب أن نعرف أنهم ربما كانوا سينجحون في تحويل الرصاص إلى ما يشبه البلاتينيوم، الأغلى ثمناً من الذهب، فيما لو كانوا يمتلكون جهاز لايزر.

فقد توصل عالم الكيمياء ويلفورد كاستلمان في جامعة بنسلفانيا إلى معالجة جزيء من مادة كاربايد التانغستان بواسطة جهاز لايزر، بحيث أخرج منه إلكتروناً، لتصبح مواصفاته ملائمة لأن يلعب الدور نفسه الذي يلعبه البلاتينيوم «كمحفِّز» في الصناعات المختلفة، وهو الدور الذي جعل 60% من إنتاج العالم من البلاتينيوم يتجه إلى الصناعات (وخاصة صناعة السيارات)، الأمر الذي يجعله أغلى ثمناً من الذهب.

صحيح أن كاربايد التانغستان المعالج باللايزر لا يزال بعيداً عن أن يصبح صالحاً للجواهر، ولكن إنتاجه بالجملة سيؤدي إلى حلوله محل البلاتينيوم، وإلى انخفاض الطلب على هذا الأخير، وبالتالي إلى تدني قيمته السوقية.



Google

3 حاملة الجراثيم وناقلة الأمراض



www.practicaltravelabroad.com

الكل يعلم أن تداول الأوراق النقدية هو تداول لشيء مسته أيد كثيرة بعضها نظيف وبعضها الآخر ليس كذلك. ولكن الدراسات المتفرقة التي أجريت في بلدان عديدة حول نظافة الأوراق النقدية أكدت أن تنقلها بين الأيدي هو أخطر على الصحة العامة مما يعتقده الكثيرون.

كانت البداية في نيجيريا حين جمع الباحثون 250 ورقة نقدية من خمس مدن مختلفة، وبعد إخضاعها للفحص المخبري تبيَّن أن 133 ورقة منها تحمل طفيليات مرضية، وأن 54 ورقة منها تحمل بكتيريا معوية، وهي البكتيريا التي تعيش في الجهاز الهضمي للإنسان وتخرج منه مع البراز. والمدهش أن دراسات أجريت على حدة في كل من الصين وأستراليا وميانمار ومصر وتركيا جاءت بنتائج مشابهة.

وفي أمريكا أيضاً، تم جمع كمية من النقود المعدنية والورقية من أطباء وممرضين وعاملين في مختبرات إحدى مستشفيات نيويورك حيث يفترض أن تطبق أعلى مستويات النظافة والعناية الصحية، فتبيَّن أن أكثرية هذه القطع النقدية تحمل بكتيريا مَرَضية قادرة على الوصول إلى الإنسان.

وما هو أدهى مما تقدَّم، هو أن تلوث الأوراق النقدية لا يقتصر على وصول الجراثيم إليها، بل إنها تشكِّل بيئات صالحة لتكاثر هذه الجراثيم عليها، خاصة بعيد استعمالها. إذ تشكِّل الأخاديد الميكروسكوبية التي تحفر في الأوراق النقدية خلال طبعها ملجأً للجراثيم، كما أن الرطوبة والمواد الدهنية التي تنتقل إلى هذه الأوراق من الأيدي وتعرقها تغذي هذه الطفيليات، التي يمكنها أن تتكاثر بفعل عوامل عديدة أخرى مثل طيِّها أو تكديسها فوق بعضها البعض، وارتفاع معدلات الحرارة في محيطها سواء أكان ذلك بفعل حالة الطقس، أو بسبب وجودها في أماكن دافئة كالجيوب وداخل المحافظ... إلخ، علماً بأن وصول عدد قليل جداً من معظم أنواع هذه الطفيليات إلى داخل جسم الإنسان (عن طريق اليد والفم) يمكنه أن يصيبه بالعدوى. وبالتالي، فإن الأوراق النقدية القديمة هي الأكثر عرضة لأن تكون حاملة للجراثيم، علماً بأنها تبدأ بالتلوث خلال الأسابيع الأولى لتداولها. ومعلوم أن المعدل الوسطي لعمر الأوراق النقدية في العالم هو حوالي 18 شهراً (يتفاوت بين بلد وآخر، حسب جودة الورق وكثرة الاستعمال وقدرة الدولة على تحمل تكاليف طباعة أوراق جديدة).

في مواجهة هذه القضية، ولأنه لا مناص من تداول الأوراق النقدية في حياتنا اليومية، كانت النصيحة الأولى والبديهية هي غسل الأيدي بالماء والصابون بين ملامسة أية ورقة نقدية وتناول الطعام. والبعض يذهب إلى القول بضرورة غسل الأيدي بالماء والصابون بعد ملامسة النقد الورقي حتى من دون تناول الطعام. لأن الأيدي قد تنقل البكتيريا من النقد إلى الوجه أو إلى الشفتين كمحطة ترانزيت في طريقها إلى داخل الجسم.

ويجمع الباحثون في مختلف الدول التي شملتها الدرسات إلى أن أخطر المجالات التي يمكن أن تنتقل فيها الأمراض عن طريق النقد الورقي إلى الإنسان هي محلات التموين والمطاعم الشعبية والمتوسطة، حيث يأكل المستهلك ما اشتراه ودفع ثمنه للتو، أو حيث يتقاضى البائع أو النادل في المقهى والمطعم ثمن الطعام والشراب بنفسه.

قصة ابتكار

غطاء الزجاجة المسنَّن


Flickr

عرف الإنسان صناعة الزجاج منذ عهد بعيد. لكن أغطية الزجاجات تأخرت كثيراً حتى أبصرت النور. فقد ظلت الصورة الغالبة للغطاء هي السدادة، سواء المصنوعة من الفلين أو الزجاج. حتى حدث ما دفع الأمور إلى أن تسير في اتجاه مختلف، وكان ذلك حين ظهرت المشروبات الغازية. فقد لاقت هذه المشروبات إقبالاً متزايداً، حتى أصبحت متوافرة بكثرة في المحلات الصغيرة والمطاعم والمقاهي، في أوروبا وأمريكا، منذ حوالي عام 1885م. ورغم نجاحها، فإنها كانت تمثل تحدياً كبيراً في مسألة تعبئتها. فسدادات الفلين المعتادة، لا تغلق الزجاجة بإحكام كافٍ لحفظ غاز ثاني أكسيد الكربون، الذي كان يتسرب عبرها تاركاً المشروب من دون طعمه الغازي المميز.

لفت الأمر انتباه ويليام بينتر، وهو مبتكر من أصل إيرلندي، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عمر العشرين، واستقر في مدينة بالتيمور بولاية ماريلاند. كان بينتر مبتكراً نشيطاً، وتوصل إلى إنجاز مجموعة متنوعة من الابتكارات منها جهاز لطي الورق، وآلة للتعرف إلى الأوراق المالية المزوَّرة، حتى شغلته مسألة أغطية الزجاجات.

بعد الكثير من البحث والتجريب، توصَّل بينتر إلى تصميم جديد لغطاء مصنوع من المعدن، ومبطن بطبقة من الفلين الرقيق ليزيد من إحكام الغطاء، ويحول دون تفاعل المعدن مع محتويات الزجاجة. وقد جعل بينتر حواف الغطاء مسننة، بحيث يتم ضغطها حول فوهة الزجاجة لتغلقها تماماً. وسرعان ما اتضحت ميزات غطاء بينتر. فهو محكم الإغلاق، لا يتفاعل كيميائياً مع المشروب، كما أنه رخيص الثمن. وقدَّم الرجل أوراق ابتكاره إلى مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة ليسجل الغطاء الجديد باسمه، وحصل على براءة الاختراع في عام 1892م.

أسس بينتر شركته الخاصة لتصنيع الغطاء الجديد. وقاد حملة مكثفة لتعريف صانعي الزجاجات بابتكاره، وإقناعهم بفائدته. كما ابتكر آلة خاصة تقوم بضغط هذه الأغطية على الزجاجات بطريقة آلية. وسرعان ما انتشر استخدام الغطاء الجديد، وأصبح هو الطريقة السهلة والصحيحة لتغطية الزجاجات، لا سيما زجاجات المشروبات الغازية. وخلال سنوات قليلة، أسست الشركة مصانع عديدة لها، ليس فقط داخل الولايات المتحدة، ولكن في بلدان أخرى، منها فرنسا وألمانيا والبرازيل واليابان.

لم تكتف الأغطية المسنَّنة بوظيفتها الأصلية فقط. إذ استخدمتها شركات المشروبات الغازية فيما بعد كأداة تسويق فعالة، عن طريق المسابقات التي تقوم على جمع صور أو أرقام معينة، مخبأة أسفل بطانتها الرقيقة. كما أنها تحوَّلت مع الوقت إلى منتج ثقافي لها هواته ومحبيه. فجمع الأغطية المسنَّنة من هوايات الجمع المعترف بها عالمياً، ولها معارض خاصة واحتفاليات، يعرض فيها الهواة مجموعاتهم، ويتنافسون على اقتناء أجمل الرسوم والتصاميم، ويتبادلونها، ويتاجرون بها أيضاً.

وتدين الكثير من المنتجات التي نستعملها اليوم، بفضل كبير، لغطاء الزجاجات المسنَّن. فهو أول منتج قابل للاستعمال لمرة واحدة فقط. وهو بذلك المنتج الملهِم ذو المعادلة القائلة (منتج رخيص + استعمال لمرة واحدة = بيع بكميات ضخمة + أرباح عالية)، هذه المعادلة التي نشأت عليها صناعة المنتجات القابلة للطرح.

قصة مبتكر

رووث بينيريتو



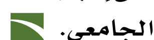
ولـدت رووث روجـان بينيريتـو في العـام 1916م في مدينة نيو أورليانـز، بولاية لويزيانا الأمريكيـة. وعلـى عكس ما كان سائـداً في ذلك الوقت، فقد كان والدهـا حريصـاً على أن تتلقـى بناتـه تعليمـاً عاليـاً. فأتمـت رووث دراستها في المدرسـة الثانوية في عمـر الرابعة عشرة، ثـم انتقلـت إلـى الدراسة الجامعية فـي جامعة تولين بمدينتهـا نيو أورليانز. وبعـد تخرجها من الجامعـة، لـم تجـد رووث الوظيفـة البحثيـة التـي كانـت تتمناهـا، لذلك قـررت أن تعمـل مبدئيـاً بتدريس العلوم والرياضيات في المدارس الثانوية.

أثنـاء عملهـا بالتدريس، كانـت رووث تدرس في الفصـول المسائية بجامعة توليـن، لتحصل على درجـة الماجستيـر فـي الفيزياء، التي نالتها في العام 1938م. ومـن بعدها، حصلت على الدكتوراة في الكيمياء الفيزيائية من جامعة شيكاغو في العام 1948م. وفي العام 1950م، تزوجت رووث من فرانـك بينيريتـو، ثـم التحقت بالعمل كباحثة في مركـز أبحاث وزارة الزراعـة حيث قضت الجزء الأكبر من حياتها العملية.

بـدأت رووث عملهـا البحثـي، فـي مجـال المنسوجـات. ففـي ذلـك الوقـت، كانـت صناعـة المنسوجـات القطنيـة فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة تعانـي بشـدة، بسبـب ظهـور الألياف الصناعيـة كالنايلون والبوليستر، التي وفرت خامة جديدة لصناعـة المنسوجـات والملابـس. لم تكـن الخامة الجديدة تضاهـي القطـن في الراحة والخفة، لكنها كانت تتفوق عليه في نقطة مهمة.. عدم حاجتها للكي. بعد اكتشاف هذه الميزة المهمة، أصبح المستهلكون يقبلون بشدة على شراء الملابس المصنوعـة مـن الألياف الصناعية بـدلاً من الملابس القطنيـة. وانشغلت رووث بسؤال مهم: كيف يمكن أن نصنع ملابس قطنية لا تحتاج إلى الكي؟

توصلـت رووث إلـى أن حـل المشكلـة يكمـن فـي معالجـة أليـاف القطـن بمـواد كيميائيـة، تربطهـا ببعضهـا بصـورة قوية، لا تتـرك مجالاً لحركتهـا الحرة التي تسبـب التجعـد. وبعـد التجربـة والبحـث، توصلـت رووث إلـى الصيغـة المثالية لتنفيـذ هـذه العملية، فأنتجـت نسيجاً قطنيـاً مقاوماً للتجعد، وللبقـع، ومقاوماً كذلـك للاشتعـال. وبهـذه الطريقـة أعـادت رووث للمنسوجات القطنيـة مكانتها العالية التي عرفتها لزمن طويل.

استمرت رووث في عملها البحثي في هذا المجال، لتحصل على 55 براءة اختراع. واستُخدمـت نتائـج أبحاثهـا لتطويـر صناعـة المنسوجـات، كمـا تعدتهـا لتشمل صناعاتَ الورق، والأخشاب، والكيماويات، ومواد التنظيف. وبالإضافة إلى نشاطها البحثـي المميـز، كانـت رووث تمارس مهنـة التدريس في كل مـن جامعتي تولين ونيو أورليانز.

حصلـت رووث علـى جائـزة الخدمة المتميزة مـن وزارة الزراعة الأمريكية فـي العام 1970م. وفي العـام 1986م تقاعـدت مـن عملهـا كباحثة، لكنها استمرت في التدريـس حتى العـام 1997م. وفي العـام 2002م، وفـي عمر السادسة والثمانين، تسلَّمت رووث بينيريتـو جائزة «إم آي تي» المرموقة عـن إنجازاتهـا طـوال حياتهـا، التي قامت بهـا في مجال أبحـاث المنسوجات، وفي مجـال التعليم الجامعي. 

اطلب العلم

واكب إنتاج السيارة الكهربائية حملة إعلامية إعلانية واسعة، بشَّرت ببداية عصر جديد في وسائل النقل، حيث تم الترويج لها على أنها ستنهي مشكلة التلوث البيئي الناجمة عن عوادم السيارات التقليدية، وستجعل هواء مدننا نظيفاً وصحياً، وقد استغل منتجو تلك السيارات كافة وسائل الترويج، من إعلانات وندوات ونجوم سينما وتسهيلات بنكية وغيرها.

كذلك ألصقت الشركات الكبرى صفات خيالية بسياراتها الكهربائية الجديدة، فوصفتها كصديقة للبيئة، ذات

السيارة الكهربائية.. وَهْمٌ أم حقيقة

المهندس أمجد قاسم *

انبعاث صفري، اقتصادية، كما بالغت تلك الشركات في حملتها، فرفعت شعارات رنانة تسعى إلى تجميل هذه السيارات التي احتوت على تقنيات متطورة ومزودة بأحدث وسائل الراحة والرفاهية، متجاهلة في الوقت نفسه أن وجود سيارات كهربائية في الشوارع يستلزم وجود محطات شحن لتلك السيارات، وعملية الشحن قد تستغرق حوالي الساعتين، كما أن المسافة التي تقطعها السيارة بعد كل عملية شحن قصيرة نسبياً، أضف إلى ذلك أن سرعة تلك المركبات محدودة.

وفي خضم هذا السباق المحموم للترويج لتلك السيارات، تعالت أصوات الجماعات البيئية المحذرة من الانسياق الكامل خلف تلك الحملات الإعلانية. فقد جاء في تقرير مؤسسة الاستشارات الهولندية الذي تدعمه «منظمة السلام الأخضر» و«منظمة أصدقاء الأرض» بأوروبا، وكذلك «منظمة النقل والبيئة الأوروبية»، أنه وفقاً للسياسات المعمول بها حالياً، فإن حدوث زيادة في أعداد السيارات الكهربائية سيؤدي إلى مزيد من استهلاك الطاقة الكهربائية التي يتم إنتاجها بواسطة الفحم أو الغاز الطبيعي أو محطات الطاقة النووية، دون أن يُحدِث انخفاضاً في الطلب العالمي على النفط المستهلك من قبل السيارات التقليدية العاملة حالياً، كما حذَّر التقرير من أن التمادي في دعم تلك السيارات قد يؤدي إلى خفض الجهود الرامية لتحسين استغلال الطاقة بالنسبة للسيارات التقليدية، والنتيجة أنه لن يتم خفض استهلاك النفط أو تقليل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناجمة عن قطاع النقل.

إن تلك السيارات الصديقة للبيئة حسبما يزعم منتجوها، تفاجئ المستهلك بسعرها المرتفع. ويقول مروِّجوها، إن الفارق في السعر، سيتم تعويضه خلال وقت قصير، لكن هيئة الفحص الفني الألمانية تؤكد أن على مالكي تلك المركبات قطع مسافة لا تقل عن ثلاثين ألف كيلومتر سنوياً للاستفادة من فارق استهلاك الوقود الطفيف نسبياً، فهي توفر في المتوسط وقوداً يتراوح في المعدل من سبعة إلى ثمانية بالمائة فقط. وهذا التوفير، لا يمكن أن يتحقق ما لم يتمتع سائقو تلك المركبات بعادات القيادة المثالية، التي تُجمع الدراسات أنه يمكن خفض استهلاك الوقود في المركبات إلى نسبة قد تصل إلى 20% من خلال التدريب على كيفية التعامل مع المركبة وقيادتها وفق أسس القيادة الصديقة للبيئة حتى بالنسبة للسيارات التقليدية الموجودة حالياً في الأسواق.

من جانب آخر، فإن الجماعات البيئية حذرت مؤخراً من المخاطر الحقيقية الناجمة عن بطاريات تلك السيارات التالفة بسبب استخدامها الطويل والمتكرر، فهي تحتوي على مجموعة كبيرة من المواد والعناصر الكيميائية الخطرة الملوثة للبيئة، ومن أهمها بعض المعادن الثقيلة التي تفتك بالحياة الفطرية والإنسان في حال تم إلقاؤها في أماكن تجميع النفايات، لذلك يجب إنشاء مصانع متخصصة لإعادة تدوير تلك البطاريات التي تفتقر معظم دول العالم لوجودها.

إن دعم الجهود الرامية للمحافظة على البيئة أمر أساسي، لكن هذا الدعم ينبغي أن يكون وفق دراسات وأسس علمية وبيئية حقيقية بعيداً عن الترويج الإعلامي المبالغ فيه.

* عضو الرابطة العربية للإعلاميين العلميين



ماذا يرى ابن باريس

وهو يتأمل بيئة المملكة..

ويقرأ في كتاب

طبيعتها المفتوح ..

ها هي عدسته

تلخص ذلك،

عصفوراً على

غصنٍ أخضر ..

وطائراً يرفع عنقه

لينظر إلى المدى

البعيد ..

البديع ..





أوليفر كوبي

من مواليد فرنسا عام 1968م. يعمل كمخرج أفلام ومصور في المركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية (الطائف) منذ العام 1995م.







حديث عن الضيافة العربية..

يبدو أحياناً أن أصل الضيافة العربية كما قدَّمه لنا العرب الأوائل واستمر عبر العصور حتى وصل إلى أيدينا، قد اختلط بالمظاهر التراثية التي تنم عنه.. فالقهوة العربية مثلاً جزء من مظاهر ترحيبنا بالضيف، ثم هناك الذبائح، وهناك الموائد الطويلة والوجبات المتنوعة التي قد لا يتذوق الضيف نصفها.. وكلما أكثرنا من هذه المظاهر.. شعرنا بأننا أضفنا إلى التراث العربي العريق ولم نخذل تقليداً رُبِّينا على إكباره واحترامه. ولكن عندما نستبدل بالقهوة العربية مشروبات غازية مثلجة وصحون ممتلئة عن آخرها بأنواع شرائح البطاطس على اجتماع ضاحك وحماسي لأصدقاء على مشاهدة مباراة من مباريات المونديال، على سبيل المثال، فالصورة ليست ذات علاقة بالضيافة العربية ولا ترسخ لهذه التقاليد.. أليس في هذا المثال، على سطحيته ومعاداته لنموذج الأكل (الصحي)، خلطٌ بين الأصل والمظهر؟ ألا تقتضي الضيافة أن نبهج الضيف بما يناسب مزاجه وما يتوقعه ويحبه؟ لم إذن تحضر الضيافة العربية في أذهاننا عند القهوة.. وتختفي عند المشروبات الغازية؟

الكل نال نصيبه من دعوات العشاء والغداء وحتى الإفطار.. دعوات رسمية وغير رسمية.. إلى مائدة طعام طويلة تكفي لجلوس أكثر من عشرة أشخاص حولها، أو سفرة بسيطة على الأرض، أو بوفيه مفتوح لتذوق الضيوف مرة بعد أخرى.. وفي أذهاننا، خصوصاً عندما نلعب دور المضيف، تمثلٌ بالكرم العربي الحاتمي، وسباقٌ محموم يحمي ضيافتنا العربية من أي خلل أو تقصير قد تتعرض له على أيدينا.. ولكن عندما يتأمل المرء حاله وحال من يعرف بشأن العلاقة، التي تبدو واضحة جداً خصوصاً لنا كعرب، بين المضيف والضيف، قد يصل إلى أفكار تتفق أحياناً وتتعارض أحياناً أكثر مع ما اعتاد عليه في فهمه للضيافة كما ينبغي أن تكون..

الكاتبة الأمريكية الشهيرة نورا إيفرون لا تمانع أن تطلب أطباق السمك المختلفة في المطاعم، أو أن تتذوقها في منازل أصدقائها، لكن عندما يأتي الأمر لتخطيط دعوة غداء أو عشاء في منزلها فإن نورا ترفض تقديم السمك تماماً، والدافع وراء هذا الموقف الصارم هو سبب مضيافي محض. فالسمك وجبة سهلة الأكل ولا تتطلب ممن يتناولها جهداً أو تفكيراً في تقطيعها ومضغها، ولا تؤمن له أيضاً فرصة للعب بالطعام.. الترصد له وتحريكه والإشارة بالشوكة أو السكين أثناء الحديث.. وبالتالي لا يعود أمام الضيف سوى مضغ طعامه بسرعة، ثم البقاء لدقائق مع المضيف لشكره قبل أن يتجه إلى الباب ويترك مضيفه وحيداً مع الأطباق. قد يتفق البعض مع نورا أو قد يختلف، لكن يجوز القول إن هذا تفكيرٌ يمتحن أصل الضيافة ولا ينشغل بمظاهرها..

الضيافة اليوم، خصوصاً لأنها ضيافة عربية، تحتاج إلى إعادة نظر.. تحتاج إلى أن يستعيد المضيف بهجته بالضيف ويبتعد عن انشغاله بمظاهر الضيافة، تحتاج إلى أن تأتي ضيافته من واقع عصره وثقافته وحضارته بل وأسلوبه الخاص.. تذكر تلك الدعوة التي شعرت فيها بإكرام المضيف أو المضيفة لك دون ضغط أو إجهاد؟ من دون أن تقرأ في عينيه قلقاً من أن ينقص من الطعام شيء أو أن يكون الملح قد زاد في الطبق أو أن يخرج الضيف دون أن يكون قد أشبع معدته..؟ لِمَ لا تراجعها، وتحاول أن تقتدي، ومرة بعد مرة سيتكون لديك أسلوبك الخاص في الضيافة، وربما تقرر أن السمك هو أفضل الوجبات لأسباب تطيح بعملية أسباب نورا إيفرون.. وحينئذ ستكون زيارة أي ضيف لمنزلك فرصة كي يتعلَّم أكثر عنك، يستمع إلى ما يقوله منزلك، ومطبخك، وموائدك عنك.. وتصبح حينئذ ضيافتك له، فعلاً، كما في بيت حاتم الطائي الشهير، مدعاةً للأحاديث والذكر.

هدى صالح 



ارتفاع كلفته ظاهرة عالمية

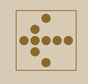
التعليم العالي حق يصطدم بالحاجة

خلال فصل الصيف من كل عام، يقف الملايين من خريجي الثانويات في العالم أمام التحدي المتمثل في متطلبات انتقالهم إلى الدراسة الجامعية. والقضية الكبرى التي يواجهها معظم هؤلاء هي تأمين كلفة التعليم العالي، لسنوات أربع مقبلة على الأقل، هذه الكلفة التي تزداد سنة بعد أخرى، ليس فقط في شقها المتعلِّق بالأقساط التي يتوجب على الطلاب دفعها، بل «كصناعة» كاملة متعددة الجوانب والعناصر.

وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة هي عالمية وشاملة، وذيولها كذلك، فإن الحلول لمواجهتها تبقى موضعية في كل بلد على حدة. وفي معظم الأحيان يكون على الطالب أن يتدبَّر حلَّه الخاص به بمعزل عن مسار هذه المشكلة العالمية.

بهاء الرملي تحدثنا عن واقع التعليم العالي على صعيد كلفته في العالم، وتتوقف بشيء من التفصيل أمام هذه القضية عربياً.

Corbis



لم يعد التعليم العالي بحاجة إلى تلك الديباجات الإنشائية التي كان يحتاجها في بدايات القرن العشرين لإظهار أهميته وتحفيز الإقدام عليه.

فمن كل فرد في أي مجتمع إلى أعلى المستويات الحكومية في هذا المجتمع، هناك تسليم بأن التعليم العالي هو المنفذ شبه الوحيد إلى حياة أفضل للفرد، وإلى رخاء المجتمع وتطور الوطن ككل، وأنه حق اجتماعي لكونه المحرك الأساس للاقتصاد ولمسيرة التنمية وتأمين العدالة الاجتماعية بين أبناء البلد الواحد. ولكن الحصول على هذا الحق دونه كلفة غالباً ما تكون مرتفعة ومرتفعة جداً، تتخطى قدرات الأفراد وتتطلَّب تسخير أموال ضخمة لتوظيفها في قطاع التعليم ببناه التحتية الإنشائية والتجهيزية والتقنية، وأيضاً بطواقمه البشرية وغير ذلك.

وقد شهد العقد الأول من القرن الحالي ارتفاعاً كبيراً في تكاليف التعليم العالي، لأسباب عديدة تبدأ بمعدلات التضخم في بعض البلدان، وتنتهي عند تطور عناصر هذا التعليم مثل التجهيزات التقنية الباهظة الأثمان، ورواتب الأساتذة من كبار الاختصاصيين وما إلى ذلك. الأمر الذي لم يعد يؤرق بال الطلاب وذويهم فقط، بل أيضاً الحكومات، وخاصة تلك التي تفتقر إلى القدرات المالية اللازمة للدعم والمساعدة على مواجهة المشكلة، وصولاً إلى واضعي خطط التنمية. خاصة وأن الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم خلال العام الماضي، تبدو ذات تأثيرات طويلة الأمد على هذا القطاع.

بين الرسمي والخاص

ينقسم التعليم العالي في معظم بلدان العالم إلى قسمين: رسمي وخاص. وفيما يفترض في التعليم العالي الرسمي الذي هو شبه مجانٍ في معظم الدول، وأقل تكلفة بشكل كبير من التعليم العالي الخاص في بعضها الآخر، أن يكون حلاً لمشكلة التعليم العالي، نلاحظ أن الجامعات الحكومية تعاني عموماً من مشكلتين رئيستين:

أولاً: ترهلها في البلدان الفقيرة حيث تعجز الحكومات عن تطوير صروح تعليمها الرسمية مواكبة للعصر، فيتدنَّى مستوى التعليم فيها وبالتالي قيمة شهاداتها في سوق العمل.

ثانياً: محدودية قدرتها على الاستيعاب، خاصة في البلدان النامية حيث تزداد أعداد خريجي الثانويات بما يفوق إلى حد بعيد عدد المقاعد المتوافرة في الجامعات الرسمية، مما يدفع هؤلاء إلى التوجه صوب الجامعات الخاصة.



والواقع أن مقارنة مستويات التعليم العالي الرسمي بالخاص تعطي نتائج مختلفة في كل بلد على حدة، وترتبط هذه النتائج بمستوى الرعاية الحكومية وإنفاقها على تطوير تعليمها الرسمي.

ففي المملكة مثلاً، وإن كانت هذه المقارنة صعبة نظراً لحداثة عمر الجامعات الأهلية مقارنة بالجامعات الرسمية، نلاحظ أن الإنفاق الحكومي الهائل على التعليم العالي وتطويره (55 مليار ريال خلال سنوات خمس فقط من العقد الحالي، و32 مليار ريال للعام المالي 1430 - 1431هـ، أي نحو 6.7% من إجمالي ميزانية الدولة)، يبقي التعليم العالي الرسمي على مستوياته الجيدة. وما حلول جامعة الملك سعود في المركز الأول بين أفضل الجامعات العربية وفي المركز 247 ضمن أفضل 500 جامعة في العالم في تصنيف التايمز (كيو.إس) وضمن أفضل 200 جامعة في العالم وفقاً للتصنيف الإسباني للجامعات لعام 2010م، إلا دليلاً على مكانة التعليم العالي الرسمي في المملكة. الأمر نفسه ينطبق على بلدان عديدة، ولعل أشهرها فرنسا، حيث أفضل الجامعات والكليات هي الرسمية منها، حيث التعليم العالي مجاني، في حين أن المعاهد الخاصة هي في وجدان العامة، ملجأ الذين «فشلوا» في دخول الجامعات الرسمية الكبرى.

تكلفة البكالوريوس في جامعة عربية خاصة تصل إلى 100 ألف دولار، وتخرج طبيب اختصاصي في أمريكا يكلّف 300 أو 400 ألف دولار!

ولكن الحال يختلف في بلدان أخرى، ففي لبنان مثلاً، نجد أن مكانة «الجامعة اللبنانية» وهي الجامعة الرسمية الوحيدة في البلاد، تفتقر إلى المكانة التي تحظى بها بعض الجامعات الخاصة مثل الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية، وذلك على الرغم من رقي مستويات بعض كلياتها مثل كليات العلوم الطبية والهندسة وكلية الصحة العامة. إذ إن مستوى كلياتها في العلوم الإنسانية والآداب وما شابه ذلك أبقى مكانتها (وبالتالي قيمة شهاداتها في سوق العمل) دون مكانة الجامعات الخاصة وخاصة جامعات الدرجة الأولى.

على صعيد آخر، أدت القدرة الاستيعابية المحدودة في معظم الجامعات الرسمية في العالم إلى إفساح المجال أمام قيام الجامعات الخاصة. ففي المملكة حيث وصلت نسبة المسجلين في التعليم العالي إلى أكثر من 86% من خريجي الثانويات، وهو رقم ضخم يفوق بمراحل حجم الاستيعاب المتعارف عليه دولياً الذي لا يتجاوز 50% كمعدل وسطي، كان ولا بد من إفساح المجال أمام قيام جامعات وكليات أهلية في السنوات الأخيرة، وصل عددها حالياً إلى ثماني جامعات وعشرين كلية. الأمر نفسه ينطبق على لبنان حيث ارتفع عدد مؤسسات التعليم العالي الخاص إلى 41 جامعة وكلية خلال السنوات الأخيرة.

وفي سورية حيث بقي التعليم لفترة طويلة محصوراً في الجامعات الحكومية التي كانت تستقبل مجاناً كل الناجحين في الشهادة الثانوية، سمح مؤخراً بفتح جامعات خاصة، فوجد فيها من لم تتوافر فيهم شروط الانتساب إلى الجامعات الحكومية فرصة بديلة، لكن لقاء أقساط مرتفعة جداً، لا



Getty Images

الأقساط المرتفعة تبرِّر بارتفاع كلفة المستلزمات وتطور صناعة التعليم ككل



يتحملها إلا أبناء الطبقة الميسورة. وأخذ على هذه الجامعات محدودية اختصاصاتها وعدم مراعاتها المؤهلات العلمية لطلابها، مما أدى إلى تدني مستوى شهاداتها.

لكن التعليم العالي في سورية شهد في السنوات الأخيرة أيضاً خطوة متقدمة عن باقي الدول العربية، باستثناء تونس التي قامت بتجربة مماثلة، تمثلت باعتماد تجربة الجامعة الافتراضية عبر شبكة الإنترنت، وبالشراكة مع جامعات عالمية معترف بها. والجامعة الافتراضية السورية جامعة حكومية تؤمِّن لطلابها فرص التعليم عن بعد والحصول على شهادتين: واحدة منها وأخرى من الجامعة الشريكة. ومن ميزات التعليم عن بعد، الذي وجدت فيه دول عدة حول العالم حلاً لمشكلة كلفة التعليم وجودته، أنه يسمح أيضاً بالجمع بين الدراسة والعمل ويؤمِّن فرصة التعليم المتواصل مدى الحياة. لبنان بدوره بدأ حديثاً تجربة شبيهة في التعلم عن بعد من خلال الجامعة العربية المفتوحة.

أما في الأردن، فإن التعليم العالي الحكومي غير مجانٍ، وإن كانت أقساطه على الطلاب تبقى أقل وطأة من أقساط الجامعات الخاصة.

Getty Images



Getty Images

Getty Images

القسط.. همٌ لا بد من مواجهته

ولكن أياً تكن مستويات التعليم العالي الرسمي في بلد ما، ثمة دوافع عديدة تدفع بنسب مختلفة من خريجي الثانويات إلى التوجه صوب التعليم العالي الخاص، ومن ضمنها عدم قدرة الجامعات الحكومية على استيعابهم أو عدم توافر الاختصاصات التي يرغبون فيها في هذه الجامعات، أو مكانة الشهادة التي تمنحها الجامعة الخاصة في حقل معيَّن..الخ. وهناك، عليهم مواجهة تكلفة طلب العُلا.

تكلفة التعليم الخاص على الطالب

لو أخذنا الجامعات الخاصة في لبنان لوجدنا أن أقساطها السنوية تتراوح ما بين 5 آلاف و20 ألف دولار من دون احتساب بدل السكن والنقل والكتب والأكل الخ.. وفي الأردن تبلغ أقساط بعض الاختصاصات 25 ألف دولار سنوياً، أي يجب على الطالب أن يدفع نحو 100 ألف دولار على مدى سنوات أربع للحصول على شهادة البكالوريوس فقط.. وهذه الأرقام هي فلكية إذا ما قورنت بالحد الأدنى للأجور في البلدين، أو حتى بمعدل دخل الفرد فيهما.

وارتفاع كلفة التعليم العالي عامة وشاملة. فالمواطن العادي في الولايات المتحدة الأمريكية، صاحب أعلى دخل فردي وأعلى ناتج قومي، يعاني من ارتفاع أقساط الجامعات، عامة كانت أم خاصة. ففي الجامعات الحكومية يصل معدل القسط السنوي للطالب غير المقيم في الولاية التي توجد فيها الجامعة إلى أكثر من 5 آلاف دولار، وبعد إضافة بدل النقل والسكن وثمن الكتب والأكل إلى نحو 15 ألف دولار. أما في الجامعات الخاصة فقد يصل معدل الأقساط السنوية إلى 30 ألف دولار، وأكثر من ذلك لبعض الاختصاصات في الجامعات الكبيرة. بحيث إن تخرج طبيب اختصاصي من جامعة مرموقة بات يكلِّف الطالب ما بين 300 ألف و400 ألف دولار!!

وعندما ننتقل إلى الطرف المقابل، أي إلى بعض أكثر الدول فقراً في العالم، نجد الصورة كئيبة بشكل أوضح. ففي بنغلادش مثلاً، تبدو أعداد الجامعات وازديادها مدعاة للزهو. إذ إنه عند استقلال البلاد عام 1970م لم يكن فيها غير أربع جامعات حكومية. أما اليوم، فقد وصل عدد هذه الجامعات والمعاهد العليا إلى 29، إضافة إلى نحو 54 جامعة وكلية خاصة، ظهرت في السنوات الأخيرة في العاصمة دكا وحواليها. ولكن من بين خريجي الثانويات هناك 12% فقط ممن يتمكنون من الالتحاق بالتعليم العالي، وأكثر من 80% من هؤلاء الملتحقين يتوجهون إلى كليات الجامعة الوطنية.



الدعم الحكومي أبقى التعليم العالي الرسمي في المملكة عند مستويات جيدة. ولكن الحال ليس نفسه أينما كان

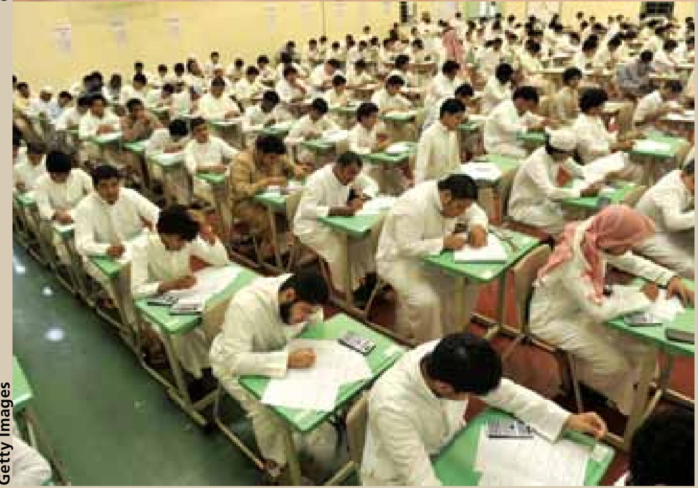
تدبير الحلول

في مواجهة ارتفاع أقساط التعليم العالي تبدو كل الحلول موضعية خاصة بكل بلد وكل مجتمع وأحياناً بكل طالب على حدة. ومن الحلول المعروفة يمكننا أن نذكر الآتي:

- الدعم الحكومي لطلاب الجامعات الخاصة: ومن أبرز الأمثلة التي نعرفها جميعاً «برنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي» الذي أطلق قبل سنوات خمس، وبلغ عدد المستفيدين منه نحو 80 ألف طالب وطالبة سعودية تابعوا أو لا يزالون يتابعون دراساتهم في جامعات خاصة في 16 دولة من دول العالم المتقدمة، بتغطية كاملة لكل تكاليفهم من الحكومة السعودية. ولكن هذا البرنامج يمثِّل حالة خاصة لا مثيل لها في أية دولة في العالم. بل يتخذ الدعم الحكومي في بعض البلدان، مثل دول الاتحاد الأوروبي، تقديم قروض ميسَّرة للطلاب، أو بعض المنح الحكومية وما شابه ذلك.

- المنح والمساعدات الجامعية: كثيرة هي الجامعات التي تقدِّم منحاً للمتفوقين الراغبين في الانتماء إليها، سواء أكانت هذه المنح جزئية أم كاملة. وبعضها يوفِّر أعمالاً للطلاب تحسم قيمتها من قيمة القسط، وبعضها يصل في استقطابه للمتفوقين إلى منح كاملة للرياضيين البارزين كما هو الحال في معظم الجامعات الأمريكية.

- منح القطاع الخاص: حيث تتولى جهات اجتماعية أو اقتصادية تبني أعداد معينة من الطلاب وتحمُّل تكلفة دراستهم الجامعية مقابل العمل لاحقاً لحسابها، أو من دون مقابل.



- الاستعداد المسبق لمواجهة القضية، كما هو الحال في أمريكا، حيث تبدأ الأسر بالادخار منذ ولادة الطفل في صندوق خاص ليموِّل لاحقاً دراسته الجامعية.

وعندما تتعذَّر كل هذه الحلول وغيرها.. لا يبقى أمام خريجي الثانويات غير التوجه إلى سوق العمل بدلاً من مؤسسات التعليم العالي. إلا إذا كان في مدخرات العائلة أكثر من ربع مليون دولار يمكن الاستغناء عنها.

على ضوء الأزمة المالية

إن ما كان يخفف عبء الاستدانة على الطلاب هو أن مجالات العمل كانت واسعة أمام المتخرجين وبأجور

مرتفعة قبل الأزمة المالية العالمية، إلا أن الأمر لم يعد كذلك بعدها. فبات التعليم أكثر كلفة والمساعدات إلى شح وفرص العمل إلى تضاؤل. وتشير إحصاءات غير رسمية إلى أن كلفة التعليم العالي في الجامعات العامة الأمريكية ارتفعت العام الماضي بما يتراوح بين 4.5 و6.5%. وهي مرشحة لمزيد من الارتفاع بسبب التضخم. كذلك ارتفعت رسوم التسجيل في المعاهد التي تستغرق الدراسة فيها عامين بنسبة 4.7%، أما معدل القسط السنوي في الجامعات الخاصة فارتفع إلى 25 ألف دولار.

إن انكماش المساعدات والمنح بسبب الأزمة العالمية يزيد تعقيدات الوضع وذيوله المستقبلية

وستكون لهذا الواقع، مع تراجع ما تتلقاه الجامعات من مساعدات حكومية، وتراجع أموالها الخاصة نتيجة الأزمة، تداعيات سلبية على المساعدات التي تعطيها لطلابها، بما فيها أكبر الجامعات، خصوصاً وأن الزيادة غير متناسقة بين أعداد الطلاب وطالبي المساعدة.

هذه الحال من تراجع القدرة المالية ليست ظاهرة أمريكية فقط، بل إنها تطال الدول الأوروبية التي تعيش أوضاعاً مماثلة، وبدأت تداعياتها على المساعدات الجامعية. علماً بأن معظم الحكومات الأوروبية تدعم التعليم الجامعي الرسمي مباشرة وتؤمِّن قروضاً مدعومة للطلاب. كما تطال الدول العربية غير النفطية حيث كلفة التعليم العالي مرتفعة أصلاً، باستثناء التعليم الجامعي الحكومي، وحيث مستوى الأجور متدنٍ وإمكانات المساعدة تتضاءل. وقد أدى ارتفاع الأقساط وانكماش المساعدات لا سيما بعد الأزمة، إلى تسرب من التعليم الجامعي إلى التعليم المهني الأقل كلفة، لكن المشكلة في الدول العربية تكمن في قلة فرص العمل في الصناعة والتكنولوجيا.

وفي هذا السياق يُذكر أن عدداً من الدول الآسيوية التي تُعد أقل إنفاقاً على التعليم، تمكنت من تنويع خدماتها التعليمية. ونجحت تايلاند والصين على سبيل المثال، في إرساء نظام تعليمي عن بعد يناسب حاجاتهما ويستوعب الطلب الاجتماعي المتزايد على خدمات التعليم ويحقق متطلبات سوق العمل.

أما فيما يتعلق بالدول العربية، فيُخشى أن تشكِّل هذه المعطيات عوامل مشجِّعة على هجرة الشباب، لا سيما هجرة الأدمغة. ومن أسباب الهجرة، ضيق سوق العمل، أو عدم انسجام الدخل مع ما أنفقه الطلاب من وقت ومال لتحصيل العلم، أو ظروف اجتماعية يعدونها غير ملائمة لمكانتهم العلمية ولطموحاتهم في تحقيق ذواتهم أو أو.. فتخسر خيرة كفاءاتها الشابة التي تهاجر إلى أمريكا وأوروبا وكندا حيث تتوافر القدرة على استيعابها في فرص عمل مجزية، وحيث التسهيلات الاجتماعية وإمكانات البحث العلمي الخ... وتفيد الإحصاءات أنه رغم تقنين هذه الدول هجرة الشباب العرب إليها، فإنها تستقبل كل عام عشرات الألوف من العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء من لبنان وسورية والعراق والأردن ومصر وتونس والمغرب والجزائر، وأن 70% من العلماء يسافرون هجرة نهائية، وأن 45% من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم، وأن الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا تستقطب نحو 75% من العقول العربية المهاجرة.

وعلى صعيد آخر، يرخي ارتفاع تكلفة التعليم العالي بظلاله على كلفة الخدمات التي يقدِّمها الخريجون عند التحاقهم بسوق العمل. فعندما يدفع طالب ما نحو نصف مليون دولار ليتخرج طبيباً اختصاصياً، هل يمكننا أن نلومه إذا طلب عشرة آلاف دولار لإجراء عملية جراحية؟ وقس على ذلك باقي الاختصاصات المتطوِّرة في التكنولوجيا والفنون وحتى التدريس.


Corbis

كلفة الطبابة مرتبطة بكلفة دراسة الطب

محاذير غير خطر الغرق..
الأطفال والسباحة

هناك اعتقاد شائع بأن وجود الأهل إلى جانب أطفالهم عندما يقصد هؤلاء المسابح والشواطئ كفيل بدرء كل الأخطار التي تحيق بالصغار، وأهمها طبعاً هو خطر الغرق.
ولكن إضافة إلى خطر الغرق، ثمة محاذير عديدة تفرض أخذها في الحسبان خلال اصطحاب الأطفال لممارسة رياضة السباحة أو تعلمها.
أيمن طرقجي يجيب هنا عن الأسئلة العديدة التي قد تؤرق بال البعض، ولا يوليها البعض الآخر الأهمية التي تستحقها.

في فصل الصيف تكون المسابح والبحيرات والشواطئ أكثر الأماكن ارتياداً. ولكيلا يتحوَّل الترفيه والاستجمام إلى مأساة علينا اتخاذ احتياطات مناسبة لحماية أطفالنا من مخاطر الماء. فهناك حوالي 1000 طفل يموتون كل عام غرقاً، ومعظم هذه الحوادث تحدث في برك السباحة المنزلية حيث يمكن للأطفال الصغار أن يغرقوا في أقل من 6 سم من الماء. لهذا على الوالدين أن يستمروا بمراقبة أطفالهم أثناء السباحة، وعدم إغفالهم حتى لثوانٍ معدودة. فالغرق يحدث خلال لحظات أثناء الرد على الهاتف مثلاً أو تفحص الإيميل أو غير ذلك أثناء مراقبتك لطفل يلهو في الماء.



رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير

كما يجب على الأهل مراقبة جميع الأطفال، سواء من تعلموا السباحة أو من لم يتعلموها بعد. فكلهم معرضون للخطر. والغرق يحدث حتى عندما لا تتوقع حدوثه على الإطلاق.

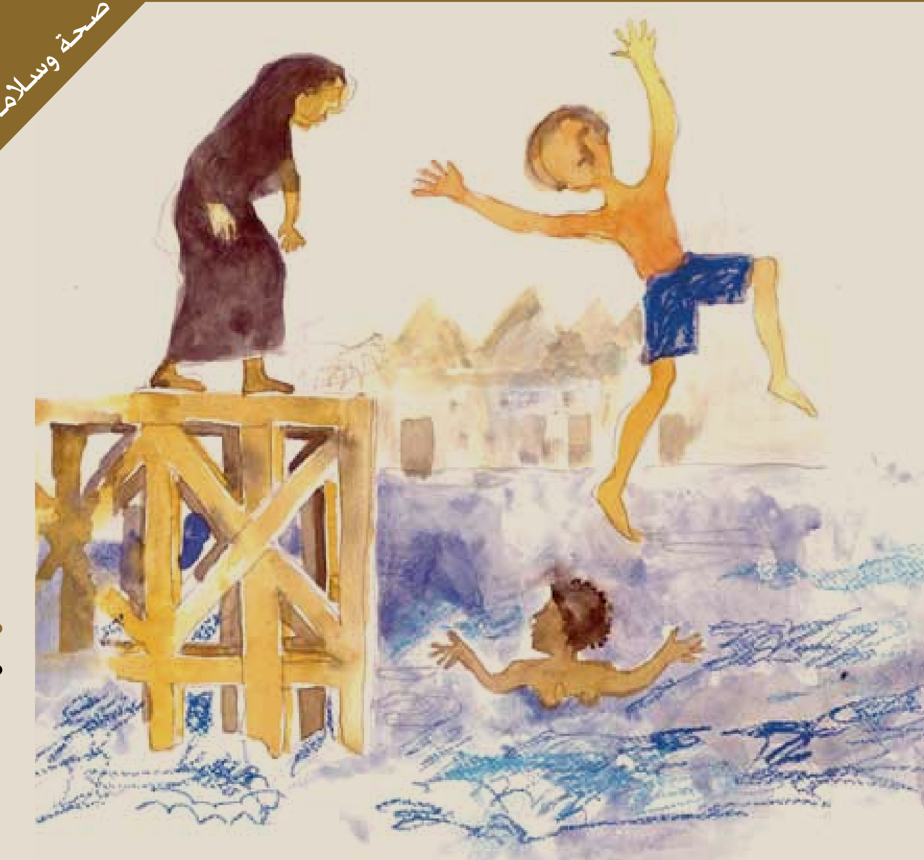
إضافة إلى ذلك، هناك محاذير عديدة وتساؤلات يجب أخذها في الحسبان، وأهمها ما يأتي:

- هل يمكن للأطفال ارتداء الحفاظات في الماء؟
- هناك عدة أنواع من الحفاظات مصممة للاستخدام تحت الماء. فهي تصد الماء وتلتصق بشكل محكم ومريح بالخصر والفخذين ولكنها ليست ضد الماء، حيث يمكن للبراز أن يتسرب منها مما يؤدي إلى تلوث بركة السباحة وانتشار الأمراض من خلال البراز الذي يمكن أن يحتوي على جراثيم مسببة للإسهال واضطرابات في المعدة.

ورغم أن البول في الماء أقل خطورة من البراز ولكن يصعب الفصل بينهما عند ارتداء الأطفال الحفاظات لهذا لا ينصح الآباء بالسماح لأطفالهم ممن يترددون الحفاظات النزول لبركة السباحة.

- هل يمكن للأطفال ممن لديهم جبيرة أن يذهبوا للسباحة؟
- إذا كانت الجبيرة مصنوعة من مواد مضادة للماء فمن الممكن أن يسبحوا بعد استشارة طبيبهم، أما إذا كانت الجبيرة مصنوعة من الجص فمن الأفضل أن يبقى بعيداً عن الماء لأن محاولة حماية الجبيرة بكيس بلاستيكي لا تنجح غالباً.

- هل يمكن للأطفال ممن لديهم صمام في الأذن السباحة؟
- يجب استشارة الطبيب أولاً حول سباحة الأطفال الذين يضعون صمامات في آذانهم. فبعض الأطباء ينصح بأن يرتدي هؤلاء الأطفال سدادات أثناء السباحة لمنع البكتيريا من دخول الأذن الوسطى. كما يجب استخدام تلك السدادات بانتظام حتى للأطفال العاديين عندما يسبحون في مياه غير معالجة كالبحيرات والأنهار.



- **ما هي أفضل طريقة لمنع إصابات الأذن أثناء السباحة؟**
- شجع طفلك على ارتداء السدادات أثناء السباحة.
- جفف أذني طفلك بعد السباحة بمنشفة أو مجفف شعر.
- استخدم قطرات طبية لتنظيف الماء من أذنيه.
- لا تستخدم أعواد القطن لتنظيف أذنيه لأنها قد تخدش قناة الأذن وتترك مكاناً ملائماً للعدوى.
- لا تسمح له بالسباحة في أماكن ملوثة.

- **هل يشكِّل احمرار العينين بعد السباحة مصدر قلق؟**
- يشير احتقان العينين بعد نهار طويل من السباحة إلى حساسية ضد الكلور. كما أن البرك والبحيرات يمكن أن تحتوي على بكتيريا يمكن أن تسبب احمرار القرنية. وللحيلولة دون احمرار أو انتفاخ العينين، اجعل طفلك يرتدي نظارات الوقاية، وللتخفيف من الاحمرار بعد السباحة اغسل عيني الطفل بمعقم عيون.

- **هل ابتلاع ماء البركة خطر على الأطفال؟**
- لا بد وأن يبتلع الطفل بضع جرعات من الماء أثناء السباحة ولا سيما في بدايات تعلمه السباحة. وقد لا يشكل ابتلاع كميات قليلة من الماء أي خطر على الطفل بينما قد يشكل ابتلاع كميات كبيرة خطراً كبيراً.

- **ما هو أفضل عمر لبداية دروس السباحة؟**
- تؤيد الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال بداية دروس السباحة عند سن الرابعة وما فوق. وإذا قررت أن تسجل طفلك في عمر أبكر من الأربع سنوات في برنامج سباحة فحاول اختيار برنامج لا يتطلب غطس رأسه في الماء لأن ذلك يقلل كمية الماء التي سيبتلعها.

- **هل يمكن للأطفال السباحة عندما يكونون مرضى أو مصابين بجروح وخدوش؟**
- من المفيد للأطفال ممن لديهم نزلات برد أو غيرها من الأمراض البسيطة أن يسبحوا ماداموا لا يشعرون بالتعب. وكذلك لا بأس للمصاب بالجروح أو الخدوش أن يسبح مادامت جراحه لا تنزف.

- **ماذا عن السباحة بعد الأكل؟**
- لا بأس أن يسبح الطفل بعد وجبة خفيفة من الطعام، أما إذا كانت الوجبة ثقيلة وشعر بعدها بالخمول والبلادة فمن الأفضل أن يأخذ استراحة قبل السباحة.

- **هل أحواض السباحة الحارة آمنة للأطفال؟**
- ترتفع حرارة الأطفال بسرعة في حوض استحمام مليء بالماء الساخن، لهذا لا تسمح له باستخدام الأحواض الحارة حتى يصبح طوله كافياً لإبقاء رأسه فوق الماء أثناء وقوفه وسط الحوض، ومع هذا يجب أن تكون زيارة الأحواض الحارة نادرة ولمدة قصيرة وألا تسمح له بغمر رأسه في الماء الحار لأن الحرارة المرتفعة تشجع نمو بعض الميكروبات مما قد يؤدي إلى التهاب في الأذن الخارجية.

صورة شخصية

برع حامد آيتاج الآمدي في فن الخط العربي حتى قيل عنه أنه ما رأى نوعاً من الخطوط إلا وأبدع فيه. وهو صاحب موهبة فذة، قدَّم لنا أروع الأعمال في فن الخط تشهد على عبقريته. وفي حياته طبع المصحف الشريف الذي كتبه بخط يده ونشره، وتلك سعادة لم يحظَ بها إلا عدد يسير من الخطاطين وهذا هو أثره الكبير الخالد. علي سعيد البيك يرسم لنا صورة هذا الفنان الفذ.

الخطَّاط حامد آيتاج الآمدي

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

ولد حامد الآمدي عام 1309هـ / 1891م في مدينة ديار بكر بتركيا، التي عُرفت قديماً باسم «آمد»، ولهذا نرى توقيعه على بعض لوحاته «حامد الآمدي»، أما اسمه الحقيقي فهو الشيخ موسى عزمي، الذي كان معروفاً به في تلك الأنحاء، كما كان يستخدم اسم «عزمي» في التوقيع على كتاباته في شبابه.

تعلَّق موسى عزمي بفن الخط منذ طفولته. فكان يتلقَّى دروساً في الخط والرسم أثناء تعليمه الابتدائي والإعدادي في مدينة آمد.

ولما سافر إلى استانبول، التحق أولاً بمدرسة الحقوق ثم بـ «مدرسة الصنايع النفيسة» التي أصبح اسمها فيما بعد «أكاديمية الفنون الجميلة». غير أن وفاة والده ذو الفقار آغا أجبرته على أن يبحث لنفسه عن مورد رزق يعيش منه، فعمل معلماً للخط والرسم في إحدى المدارس، كما عمل خطاطاً في بعض المطابع، ثم نُقل للعمل خطاطاً في مطبعة الأركان الحربية، وزامل بها الخطاط أمين أفندي. ثم سافر إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، ومكث فيها عاماً واحداً تخصَّص خلاله في رسم الخرائط.

قصة اسمه

ولما عاد إلى تركيا استأجر دكاناً صغيراً في حي «جغال أوغلو» لمزاولة الخط. وحيث إنه موظف، والقانون يمنعه من العمل الحر بدأ يكتب اللوحات ويقدِّمها باسم مستعار هو «حامد». ولذلك السبب منعته الجهة التي يعمل بها من الاستمرار في العمل فترك وظيفته الرسمية.

اضطر حامد بعد أن نال شهرة واسعة بهذا الاسم إلى تغيير اسمه في سجلات النفوس وجميع دوائر الدولة من موسى عزمي إلى «حامد». ثم استأجر دكاناً غير الدكان السابق في الباب العالي، وبدأ التوقيع «حامد» فحسب. وهو نفسه كان يقول في هذا الشأن: «لمَّا عزمت على تعلُّم الخط كنت «عزمي» ولمَّا بلغت ما بلغت حمدت الله وسميت نفسي حامداً».

دراسته

وفي أثناء تلك الفترة، كان حامد يلتقي خطاطي استانبول المشهورين من أمثال كامل أفندي، وحقي بك، وخلوصي أفندي وغيرهم.. فكان يطوِّر بحديثه معهم مستواه في الخط، حتى استطاع بموهبته أن يفرض نفسه أستاذاً بين الأساتذة في استانبول.

كان قوي الملاحظة، لذلك كان يتعلَّم الخط بطرق فريدة مبتكرة. وعلى سبيل المثال، طريقته المدهشة في تعلم كتابة الطغراءات، يقول حامد: «تعلَّمت الطغراءات من الطغرائي إسماعيل حقي بنقش حركات يده في الكتابة في ذهني».

لم يبدع حامد في خط دون خط. فقد أبدع في كل الخطوط التي مارسها. يقول الباحث مصطفى غودرمان: «استطاع حامد أن ينمي ملكته الفطرية بنفسه، كما أقام التوازن بين يده وبصره بشكل منسق إلى أبعد حدود التنسيق، عين كعدسة فنية دقيقة تلتقط ما ترى ويد بارعة ترسم هذه الانعكاسات الشعاعية وعلى حقيقتها الموضوعية...».

بعض أعماله

لحامد أعمال فنية يصعب إحصاؤها، من أشهرها سورة الفاتحة التي قلَّد بها الخطَّاط مصطفى راقم واستغرق في كتابتها ستة أشهر كاملة. وله كرَّاس حروف الهجاء، وكرَّاس الأربعين حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وحياة جلال الدين الرومي، والجوشن الكبير.. إلا أن أهم أعماله كانت كتابة مصحفين وعدد من الآيات على قباب بعض الجوامع في تركيا وغيرها.

وقد سئل حامد، رحمه الله، قبيل وفاته عن أعظم خطوطه الجوامعية فقال: «إنها تلك التي كتبتها في جامع شيشلي باستانبول...».

لوحته المثناة في جامع شيشلي

فمن أعظم أعماله لوحة مثناة بالثلث الجلي كتبها عام 1371هـ / 1952م مقاسها 78 × 72، ونصها الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة آية 18)، كتبها الآمدي لأول مرة فوق باب جامع شيشلي في استانبول عام 1365هـ. وما زال هذا التركيب موجوداً بحجمه الكبير في موضعه حتى الآن. ولما أعجب الناس به فيما بعد، وبدأوا في طلبه، أعده حامد بأحجام صغيرة على شكل لوحات، وقام النقاشون والمذهِّبون بزخرفته.

عن هذه اللوحة يقول المهندس الخطاط صالح الحداد: «إنها معجزة من معجزات الخط العربي أبدعها الخطاط الكبير حامد الآمدي. ولا أعتقد أن شكلاً هندسياً ساعد في استشعار معنى وفلسفة هذه الآية الشريفة كما فعل الشكل الهرمي بها. فمن خلال كونه أقوى وأثبت الأشكال الهندسية فإنه عكس قوة وثبات بيوت الله التي أسست على التقوى. واتجاه الشكل الهرمي إلى الأعلى يشير إلى وجهة المصلين في هذه المساجد، وعلى أن من يعمر بيوت الله يبتغي في ذلك وجه الله تعالى. الكثافة العالية للتركيب بيَّنت المقدرة العالية للخطاط حامد، فتخاله رسم الفراغ المناسب للحرف المناسب وبنسبه الفضلى، ويستحيل بذلك تحريك أي جزء من الحرف قيد أنملة».

أسلوبه في خط المصحف الشريف

أما قمة إنتاج حامد الآمدي فكانت نسخ المصحف الشريف مرتين بخطٍ يُعد من أجمل الخطوط، وطبع في حياته مصحف بخطه، ويعد من روائع المصاحف التي طبعت في العالم. يقول الفنان والخطاط حسن آل رضوان: «لقد تميز خط الأستاذ حامد الآمدي في المصحف الذي كتبه وطبع في استانبول عدة طبعات بعدة مميزات منها: ليونة الكتابة في خطه التي تقارب في أسلوبها ليونة خط النسخ عند الخطاط الشهير الحافظ عثمان، وتكوينه البنائي للكلمة يتميز بسهولة القراءة بحيث أنك لا تلحظ تعقيداً أو صعوبة في القراءة، إذ إن الحروف وتشكيلاتها واضحة، وكذلك طريقته الجميلة التي اتبع فيها كتابة لفظ الجلالة باللون الأحمر...».



وفاته

لقد بلغت شهرة حامد الآفاق، فتهافت عليه طلابه من دول عديدة ليتتلمذوا على يديه ويأخذوا عنه، إلى أن توفي -رحمه الله- في 24 رجب 1402هـ (18 مايو 1982م)، وصلي عليه في جامع شيشلي الذي كان يفخر بخط آياته القرآنية. وقد دُفن حامد في مقبرة قرجه أحمد، بجوار الشيخ الخطاط حمد الله الأماسي.

أجل أنت الحجاز .. وأنت نجد..



بماذا نحيي الراحل الكبير؟
أي شيء له قليل.
هنا عربون وفاء: مقال من محب وقصيدة من محب آخر وكم هم كثر. في المقال محاولة لقراءة حياة رجل فريد من رجال مملكتنا الحبيبة. وفي القصيدة هتاف محبّة رجل القصائد.



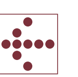
غازي القصيبي.. العصي على الإحاطة به



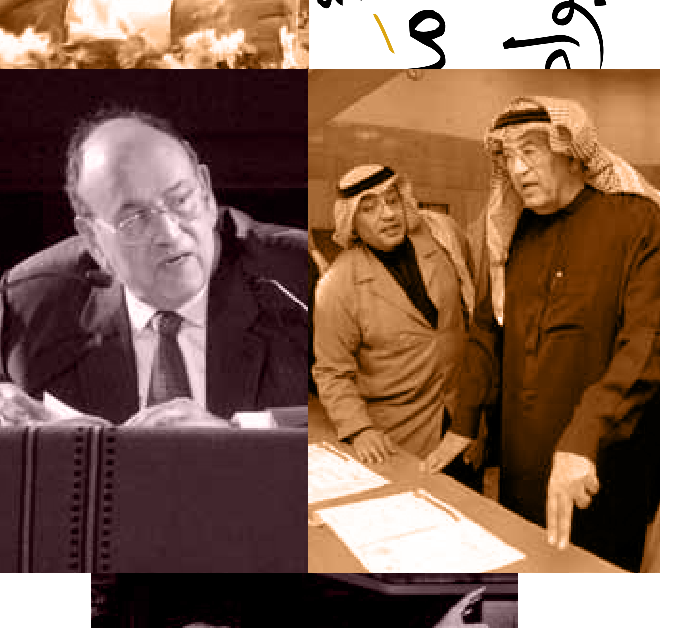
منذ زمن طويل، ألِف القرَّاء، أياً كانت اهتماماتهم، أن يقفز أمامهم اسم غازي القصيبي - يرحمه الله - ليكتسح الدوريات الثقافية وحتى الصحف اليومية، تارة لرواية جديدة أو لقصيدة جديدة أو لمنجز إداري أو قرار اتخذه في هذا المجال أو ذاك.. واليوم، وبعد انتقال الأديب والسياسي الدكتور غازي القصيبي إلى رحمة الله، سيبقى اسم الرجل حاضراً في عالم الثقافة، تماماً كما كان لنحو نصف قرن من الزمن، نظراً لضخامة الإرث الذي تركه لنا الأديب الراحل.

سعد بن محارب المحارب يعود بنا بضع خطوات إلى الوراء ليرسم لنا الصورة العامة والكبيرة لغازي القصيبي بتنوع تجاربه طولاً وعرضاً التي جعلت منه واحداً من ألمع أسماء الثقافة العربية المعاصرة، وأيضاً ليستخلص لنا ما في إبداع القصيبي ونجاحاته من عناصر لا غنى عنها ليستحق الإبداع الأدبي هذا الاسم فعلاً.

صور الموضوع: صحيفة عكاظ - صحيفة الوطن



تكتنف الكتابة عن غازي القصيبي - يرحمه الله - صعوبات ثلاث؛ أولها التنوع الطولي والعرضي لتجربته، فهي تجربة تمتد من منتصف ستينيات القرن الماضي، يوم أصبح أستاذاً مساعداً في كلية التجارة بجامعة الملك سعود، ولا تزال قائمة بعد أربعة عقود ونصف العقد.



وهي كذلك، تجربة تنطلق من الجامعة لتمر بإدارة السكك الحديدية ومؤسسة الصناعة والكهرباء، وتنتقل إلى المحاولة الأكثر صخباً لمعالجة معضلة الإدارة الصحية، وتتحوَّل إلى السفارتين، القريبة والبعيدة، حتى تبلغ إعادة بناء أوضاع الماء ومراجعة أحوال الكهرباء، وتنتهي -حتى الآن- إلى حمل ملف العمل بكل ما يضم من قضايا ساخنة تبدأ بمشكلات البطالة ولا تنتهي بإشكاليات الاستقدام.

الصعوبة الثانية تكمن في غزارة الإنتاج الفكري والأدبي للقصيبي، والعناية الإعلامية الفائقة بعموم ما يتناوله. هذه الغزارة وتلك العناية أسهمتا في كثرة، ما نشر القصيبي، وتنوعه، وما نشر عنه. وهي مقدمة أفضت إلى نتيجتين؛ الأولى أنك مهما تكلفت في المتابعة والقراءة والتحليل فلن تبلغ فهماً

تطمئـن إلى شموله وعمقه، كما أنك مهمـا تقشفت في الكتابة بغية الدقة، وطلب الإيجاز، وتجنب التكرار، فإن قلادتك حتماً لن تحيط بعنق التجربة. والنتيجة الثانية أن سؤال الإضافة في مثل هذه الكتابة هو أكثر إثارة للقلق منه في غيرها.

وتأتـي الصعوبة الثالثة مـن أن تجربة القصيبي أثارت، بصفة دائمة، مشاعر حـادة معه، وضده، قادت إلى انحياز ظاهر في الكتابـة عنها، وهو مـا يقلل من فرص الكتابـة الموضوعية، أو على الأقل المحاولة التي تسعى إلى ذلك. وتزداد هذه الصعوبة تعقيداً مـع التراكم الطويـل لمشاعـر المحبيـن والمختلفين معهـم، وهو تراكم أسهم في تعميق هذه المشاعر وإلباسها من «قمصان عثمان» ما لا حد له.

هـذه الصعوبات لا ينبغـي أن تمنع الكتابة الجـادة عن تجربة ثرية ومؤثـرة، وبالغة الأهميـة في تاريخ بلادنـا الثقافي. لكن الوعي بها –أي الصعوبات– أمر ضروري للكاتب، كما للقارئ، في كثير مما ينشر عن هذه التجربة. ومن هنا فإن هذه الكتابة تأتي محملـة بهذا الوعي، ومثقلة بقلق من ألاَّ ينتبه القارئ إلى أنها جاءت كذلك.

وبعـد هـذا أقول، إن هـذه الكتابة تجـيء حاملة وعيـاً بمسألة ثانيـة، انشغلتُ بها في أكثر من مناسبـة شاركتُ فيها، أو على الأقل تابعتها عن قرب. وتلك المسألة هي أن الاحتفاء بالمبدع وتكريـم المثقـف فـي بلادنـا لا يليـق أن يبقى محصـوراً في كتابـات تكرر العبارات حتى تقتل المعنى، وكلمات لا تقول أكثر مـن المعلوم بالضـرورة، ومقالات لا تصل الإشـادة والثناء إلا بمثلهمـا. إن تكريم المثقف ينبغـي أن يكون فعلاً ثقافياً بذاته، وأن يأتـي فـي سيـاق التفاعـل والاشتراك في تجربـة المبدع. لا بـد أن يتخطى فعل التكريـم التعبير عن الحـب والوفاء بأن يضيف إليه التعبير عـن الانشغال بالمثقف ونتاجه. وأن يجيء عبـر محاولـة التفسير، واجتهـاد النقد، بما يعبِّـر عن أن هذا



الاحتفـاء لا يأتي إلا لحظة ضمن زمن متصل في جهد المتابعة للمبـدع، والعناية بإبداعه. لعل فـي مراكمة مثل هذا النوع من التكريـم إعـادة لاعتبار المثقـف المحلي، أو إن شئـت، إنشاء لذلك الاعتبار.

ظاهرة أم لا؟

يقـول القصيبي - يرحمـه الله - إن خالـد القشطيني هو أول من وصفه بالظاهرة، ويقول إنه لا يرى في وجود شخص يشغل منصبـاً إدارياً ويكتب شعراً ونثراً ظاهـرة. وفي رأيي أن الأمر يتخطى هـذا الوصـف المتزهد، فهـو أكثر تعقيداً مما تقوله عبارة القصيبي.

الظاهـرة في تجربة القصيبي هـي استمرار محافظته على أن يكـون في مركز الاهتمام، وموقـع الجاذبية، فيما يقول ويفعل، لمرحلـة زمنيـة طويلـة عرفـت تحـولات عديدة فـي الظروف والشخصية والموقع، ومرحلـة السفارتين واحدة من الشواهد علـى أن هـذه الأهمية لم تكن مجـرد ظلال للموقـع الوزاري. القصيبـي نجـح فـي أن يكـون كلمـة منزليـة -كمـا بالتعبير الغربي!- وصارت تجربته في دواوين المحبين حكايات مشوقة وأخَّـاذة لا يزيدها الوقت إلا إعجاباً، مثلما أصبحت في حديث غيرهم «خير» لا بد منه.

المفيد يجب أن يكون مشوقاً والمشوق هو، حُكْماً، بسيط

وفـي تقديـري أن هـذه الظاهرة تعـود لأربعـة أسبـاب. أولها هـو أسلـوب القصيبي فـي الكتابـة، والحديث. أسلوبـه يتسم بالبساطة والوضوح، ومن ملامـح هذه السمة الأسلوبية قدرته على إيجاز ما يريـد قوله، ووضعه ضمن خلاصات مكثفة، وإن جاء في سياق كتابات مطولة، اقتضاها المقام، لكن القصيبي محدد فيما يقول، وواضح فيما يقصد.

وتشيـر هـذه النتيجـة إلـى أن التدبر عنـده سابق علـى القول والكتابـة. وهـذا التدبر المفضـي إلى قدر ظاهر مـن الإتقان والابتـكار، يشيـر إلـى أن بساطـة القصيبـي لا علاقـة لهـا بالسطحية، وإنما هي مهارة إضافية تدعم قدرته على القراءة، وحسـن الاستيعاب. ومرد هـذه السمة، فيمـا أرى، هو ارتباط القصيبـي المبكّر بالحقلين التعليمـي والإعلامي، بل ونجاحه فيهمـا. فمن مقتضيـات النجاح في الأول أن يكـون العامل فيه ميّـالاً إلى التعقيد، الذي يتطلـب القراءة في الكتب والتجارب، والتدبـر فيهما ثـم استنتاج قواعد نظرية. كمـا أن من شروط النجاح في الثاني -الإعلام- أن تكون الكتابة قابلة للاستيعاب من شرائح جماهيرية عريضة، بما يقتضي التبسيط.

ومثل هذا يمكن أن يقال عن حفاظ القصيبي اللافت على سمة التشويـق فيما يقـول ويكتب، ومرد هذا إلـى أن الأحداث تلعب

الدور الرئيس في حكاية القصيبي، سواء الأحداث التي شارك فيها، أو رواها. بعبارة ثانية، لم يكن القصيبي في مشهدنا المحلي شخصاً عادياً، لأنه شارك دائماً في أحداث غير عادية، أو على الأقل شارك في الأحداث مشاركة غير عادية. كما كتب كتاباته بأساليب تختلف عن المعتاد، وقال ما أراد أن يقول بأسلوب غير معهود. وقد سبق أن وصف القصيبي قاعدة أسلوبه في التدريس بالعبارة التالية: «لا يمكن للمادة أن تكون مفيدة ما لم تكن مشوقة، ولا يمكن أن تكون مشوقة ما لم تكن مبسطة. ولا يمكن أن تكون مفيدة ومشوقة ومبسطة ما لم يبذل المدرس أضعاف الجهد الذي يبذله الطالب».

بالإضافة إلى ذلك، يتوشح أسلوب القصيبي بمسحة ساخرة تعبِّر عن موهبة مميزة، تكفل له الانضمام إلى «الظرفاء»، الأقلية المضطهدة -بحسب تعبيره-. هذه المسحة شكلت عاملًا مساعداً في قول ما يصعب قوله بدونها، وكذلك كانت في قبول ما يقال. وإن كانت تطورت في بعض كتاباته إلى صانع لعمل ذي طبيعة كوميدية مرحة. وفي كل حال قلّصت هذه المسحة المسافة بين المسؤول المثقف والجمهور.

الثقة والإقدام

السبب الثاني للظاهرة، هو تميز القصيبي بروح التحدي، واستعداده الدائم لخوض معركة جديدة. ومن يراجع تجارب القصيبي الإدارية، والإبداعية، سيجد أن هذه السمة ملازمة له في مختلف التجارب. وهي سمة لا بد أن يعاضدها صفتان هما الثقة والإقدام، والأولى تسببت أحياناً في سوء فهم القصيبي، والثانية أدت، في أحيان أقل، إلى «الاندفاع الشديد»، وغير الضروري. وعموماً، لا مناص من أن تقود روح التحدي إلى المعارك، وبطبيعة الحال ليست كل المعارك ذات نهاية سعيدة. الواقع أن حتى تلك المعارك التي ينتصر فيها المرء تخلف غالباً خسائر. وروح التحدي هذه أكسبت القصيبي قدراً ظاهراً من الإعجاب حتى من مختلفين معه، وأسهمت في وضعه ضمن سياق جدل لا ينتهي، مثلما جعلته في دائرة الاهتمام بصفة دائمة ترقباً لما سيكون من أمر التحدي الذي يواجهه، والمعركة التي يخوضها الآن. وهذا رجل في حالة تحد دائمة، فلا غرابة إذن أن يكون المتابعون له في حالة ترقب دائمة.

شفافيته غير المألوفة

السبب الثالث هو الشفافية، أو للدقة الدرجة العالية من الشفافية التي اتسم بها القصيبي. فهو منذ زمن لم يعتد فيه السعوديون على أن بإمكانهم أن يعرفوا عن المسؤول الرفيع أكثر من معلومات قليلة تقال في مناسبات نادرة وتقتصر على العمل الذي يتولى أمره، كان منفتحاً على إشراك وسائل الإعلام، وإطلاع الرأي العام، على ما يجري، وكيف يجري، ولماذا. بل إنه ذهب إلى حد إعلان شهادته في أحداث ذات حساسية، وإن كان ذلك ذلك بعد مرور بعض الوقت.





مـن يقـرأ باهتمام كتابـات القصيبـي يمكنه أن يكـوِّن قدراً كبيـراً من تصـور ناجح حول مسـار حياته، وفكـره وسلوكه. تصور يبدأ بالمحطات الرئيسة في تجربته كيف كانت، وكيف عاشهـا وتفاعل معهـا، ويمر بمعرفة آرائه فـي شؤون عديدة، ومواقفـه مـن مسائل عامة متعـددة، ولا ينتهي بـأي الشعراء يحبذ، وأي النـكات تناسبه. وقد أضاف القصيبي عمقاً أكبر إلـى هذه الصفة عندما لم يكتـف بالتعبير الواضح والحاسم عـن نجاحاته، بل وسع دائرة ذلك التعبير لتشمل ما أقر بأنها إخفاقـات عرفتهـا التجربة. وهذه السمة هـي جزء من مبرر مشاعـر النـاس الحـادة تجـاه القصيبـي الإداري والمثقف، فهذه صفة تدفع المحبين إلى إعجاب حماسي، وتقود غيرهم إلـى استنـكار لا يخلو من غلظـة، ربما «لأن كثيـراً من الذين يطلبون الصراحـة لا يريدونها» كما في تعبيره. وهذه السمة، بالمناسبـة، هي شـيء من أسباب الذيـوع الهائل الذي عرفه كتـاب «حيـاة فـي الإدارة»، حتـى فاجـأ الجميع، بمـن فيهم القصيبي نفسه.

استقلال الأديب عن الإداري

السبـب الرابـع هـو الاستقـلال، وكل استقــلال هـو محدود بالضـرورة، ولذا لم أستعمل كلمة التمرد. القصيبي الكاتب، والشاعر، والروائي، كان باستمرار مستقلاً بحسم عن موقعه الإداري، أو بكلمات أخرى، يبدو واضحاً أن كتابات القصيبي لا تخضـع لحسابات موقعـه الإداري. بـل إن القصيبي كاتب المقالـة والشاعـر مستقل إلى حـد ما عن الروائـي. وترجع هذه الصفـة في تقديري إلـى النظرة الواقعيـة التي تعاطى بهـا القصيبي مـع المواقع الإداريـة المتتالية. فهـو الأستاذ الجامعي الذي لم يأنف من أن يبدأ عمله بدون مكتب، ولا من أن تكـون مهمته الأولـى مجرد لصق الصـور على استمارات الامتحانات. وهو كذلك المسؤول الذي لم تصبه الدهشة من غياب الباحثين عنه بعد إعفائه، لأنه أدرك مبكراً أن المهمة الإداريـة وظيفـة وليست مهنة. لذا كتـب بواقعية «ماذا يفعل أصحـاب المصانع بوزيـر صناعة سابق، ومـاذا يفعل بهم». كمـا ترجع هـذه السمة إلى عمـق وعيه بالشـرط الإعلامي، ونظيره الأدبي.

وأضيـف هنا إلـى الأسباب الأربعـة الظـروف التاريخية التي أحاطت بتجربة القصيبي، فقادتـه إلى مواقع إدارية متقدمة، وساعدت على أن يكون له حظ التأسيس لأكثر من مشروع مفيد، ومرحلة جديدة، ومنحته بدايات مثيرة، ونهايات صاخبة. فكم أستـاذ جامعـي يمكن أن يكـون عميداً للكلية وهـو في الحادية والثلاثيـن مـن عمره؟ ومـا هو حجـم فرصة المسـؤول في أن يصبـح وزيراً وهو لم يتـم الخامسة والثلاثين بعد؟ وكم شاعر يحظـى ديوانه بلجنـة وزارية عليا لفحصه؟ وكـم روائي يمكن أن يتسبـب عملـه الأول في انقلاب المشهـد الأدبي في بلاده؟ وأسئلـة أخرى مماثلة في تجربـة القصيبي يمكن أن يكون أهم مـا يستخلص مـن مجمـوع إجاباتها أن البطـل ليس فقط من يعرف اللحظة التي يذهب فيها، ولكنه أيضاً من يعرف اللحظة التي يأتي فيها. لقـد جاء القصيبي باستعداد ملائم، ومواهب كافيـة، وحظـي بدعم كبير رسميـاً وشعبياً، وتفهـم عميق من النخبة والعامة، وفوق ذلك وصل في اللحظة المناسبة.

حيـن أجمع هذه الأسبـاب إلى تلك الظروف فإنـي أجد نفسي أمام جواب مقنع -لي على الأقل- عن سؤال الفشل الذي عرفه جمع غير قليل من الشخصيـات التي شغلت المنصب الوزاري أو الموقـع الأكاديمي أو برزت عبر النشر الأدبي أو الصحافي، وسعـت إلى أن تتمثـل القصيبي لكنها لم تلق مـن مثل نجاحه شيئاً، ولم تبقَ مركزاً للاهتمام ولا مصدراً للجذب.

من أدواره في المشهد الروائي

سبـق أن نشـرت قبل أكثر من ثلاثة أعوام قـراءة فنية لتجربة القصيبـي الروائية، لـذا فلا أنوي هنا تكرار مـا كتبته هناك. أريـد أن أضيـف أن القصيبـي الروائي لعب دوريـن أساسيين فـي المشهـد الروائي المحلي. الأول أنه أطلـق ما يمكن وصفه بالروايـة الجماهيريـة، لقد تغيَّر حجـم ونوع جمهـور الرواية فـي السعوديـة بعد «شقـة الحرية»، كمـا لم يتغير مـن قبلها، أو بعدهـا. القصيبـي الشاعـر المعروف منذ عقـود، والكاتب المميز، والمسؤول الرفيع عبر سنوات طويلة، نشر رواية أدبية. كان هـذا حدثـاً جاذباً للجمهـور العام. وإذا تذكـر القارئ أن القصيبي فعل هذا قبل أن يكون لهذا الفن في السعودية قاعدة عريضـة، يمكن أن يتبين مرادي من وصف دور القصيبي تجاه الروايـة السعودية بالريادة، وأرجو ألاَّ أكـون مبالغاً إذ أقول إن الروايـة المحليـة، مبدعون ونقاد وجماهيـر، ربحت من «شقة الحرية» أكثر مما ربح مؤلفها منها، ومنهم.

الـدور الثاني الذي لعبه القصيبـي بكفاءة في المشهد الروائي المحلـي، أنه لم يظهر تجاوباً مع الموجة الواسعة التي انطلقت



بولادة «ثلاثية أطياف الأزقة المهجورة»، لتركي الحمد. لقد أغرى النجاح الجماهيري الكبير للثلاثية عدداً ضخماً من الكتّاب، القدماء والجدد، أصحاب العلاقة بالفن الروائي وسواهم، وكذلك فعل بالجمهور، ومن ورائهم الناشرون. تكررت التجربة مئات المرات لتأخذ شكل ظاهرة رئيسة في المشهد الثقافي؛ نص ساخن يمارس أقصى قدر مستطاع من المكاشفة الاجتماعية، ويتشبث بالمشاكسة في مسألتي الدين والجنس، وفي حالات كثيرة يبرز أن النص اتخذ مسار الأدب استجابة لحاجات رقابية. يثير هذا النص ردود أفعال حماسية، وتنتهي القصة عادة بمكسب جيد، مالاً وشهرة. وفي كل ذلك يحال الاعتبار الفني إلى مسألة هامشية. قليلون ضمن ذلك الضجيج الهائل أولئك الذين نجحوا في أن ينتجوا أعمالاً روائية حافظت على حد أدنى من الشروط الفنية، فمثلت أعمالهم أملاً في ترشيد الظاهرة. كان القصيبي أحد أولئك القليلين، وبالنظر إلى القاعدة الجماهيرية كانت أعماله الأكثر أهمية في القيام بهذا الدور.

وماذا عن قصيدة القصيبي؟

تجربة غازي القصيبي الشعرية حكاية أخرى كثيرة الطول، وعريضة الأفق، ومحاولة الإحاطة بها ضمن فقرة في مقال لن تكون إلا طريقاً سريعاً نحو الفشل، لكن إهمال الإشارة إليها تقصير يصعب احتماله مهما حمل صاحبه من مبررات. لذا اخترت أن اكتفي بملاحظتين: الأولى أن التعلق الكبير بشعر المتنبي، الذي ما انفك القصيبي يعرب عنه، لا ينعكس في شعره بنفس الدرجة التي ألاحظ بها انعكاس تجربة إبراهيم ناجي وعمر أبو ريشة، وبدرجة أدنى نزار قباني على شعره. وأجدني هنا اتفق مع من ينسب القصيبي إلى المدرسة الرومانسية في الشعر، بل ويمكن للقارئ أن يلاحظ سمات عديدة لهذه المدرسة ليس في شعر القصيبي فحسب، بل وفي بعض كتاباته النثرية.

الملاحظة الثانية أن حالة التباعد التي نشأت بين القصيدة الحديثة والجمهور، لاعتبارات ليس هذا محل نقاشها، أسهمت إلى جانب التميز الفني، وشهرة المسؤول، في استمرار بروز قصيدة القصيبي، وأكاد أقول انفرادها ضمن مجموعة قليلة بالشعبية من عموم تجارب الشعر الفصيح الراهنة محلياً.

وبعد، فإن تجربة غازي القصيبي تبقى شاهداً على ما يمكن أن يبلغه المثقف السعودي إضافة وتنويراً، وما يمكن أن يسهم فيه الإداري السعودي من إنجاز يعم خيره الوطن. وتبقى هذه التجربة نموذجاً يغري بالاقتداء الذي يعي تعقيدها ويدرك امتناع تكرارها. وتبقى محل تقدير وإكبار، ومصدر إلهام واعتزاز، دون أن تحجب الأمل بأن تولد تجارب أخرى، أرجو أن تكون أنجح، وأعظم فائدة، للوطن وللإنسان.

طفلٌ على شاطئ (السبعين)*

شعر: جاسم محمد الصحيِّح

طفلٌ على شاطئ (السبعين) يغتسلُ
كذا يَراكَ على (منظارِه) الأمَلُ

(سبعونَ).. مازلتَ تستجلي بواطنَها:
تدنو إلى جوهرِ المعنى ولا تصِلُ

(سبعونَ) (ماذا) و(ماهذا) و(هلْ) (ومتى)
(وأينَ).. حتّى يَملّ السُّؤلُ والجَدَلُ

(سبعونَ).. رَبَّيْتَهَا في الجمرِ مِن لُغةٍ
قد ساومَتْها على أحْزانِكَ، الجُمَلُ

منْ كانَ يعرفُ أنَّ الشِّعرَ فاجعةٌ
فلن يُعاتِبَ منْ أبْكاهُمُ الغَزَلُ!

■ ■ ■



* قصيدة مهداة إلى الشاعر الكبير الدكتور (غازي القصيبي) وهو ينصبُ خيمةَ عمره على هضبة (السبعين)

يا شهقة الضوء في قنديل قافية

تضيئه في ليالي النشوة ، القبلُ

رفقاً بقلبك .. لا تترك قماشته

نهب الأسى ، فخيوط القلب تنفتلُ

وربّما جرعة في الحبّ زائدة

خانته .. أو ربّما همّ به جللُ

ها إنّ روحي - وقد شطّ المزار بنا

غزالة صدّها عن سفحه الجبلُ

هل ذاكرٌ يا (أبا يارا) معانقتي

إيّاك .. والشوق فيما بيننا ثملُ !

غداة زرتك .. والميعاد يسألني

حيران : كيف يزار البدء والأزلُ ؟!

فاستقبلتني (عقود سبعة) وقفت

تقتات من روحك الثّكلى وتنتهلُ

في كلّ (عقدٍ) رأيت الحرب يافعة

ملء الصّبا ، ورأيت الحرب تكتهلُ

حتى إذا انطفأت (تلك) العقود على

ماضيك جلّى بك المستقبل البطلُ

حاشاك تجهل أنّ الشّعر معصية :

يرضى المثول ولكن ليس يمتثلُ

■ ■ ■

جئتَ القصيدةَ منذورًا لمعبدِها
شمعًا تُضيءُ بهِ الرُّؤيا وتشتعلُ

تمشي جراحُكَ في القرطاسِ حافيةً
وهلْ مشى الجرحُ يومًا وهو مُنْتعِلُ؟!

يا كمْ صعدنا على نجواكَ في نغمٍ
سامٍ تُجنِّحُهُ الأوجاعُ والعِللُ

نسري إلى حيث لا إسراءَ يوصلُنا
مهما تَحَرَّقت الأشواقُ والسُّبلُ

عذرًا.. فأسئلةُ (المَّلاحِ) مالحةٌ
والبحرُ.. لا يُجْتنى من طعمِهِ العَسَلُ

هل نحنُ نرحلُ في مجلَى حقيقتِنا
أمْ نحن في غابةِ الأوهامِ نرْتحلُ؟؟!

كلُّ الشَّعائرِ في معراجِنا فَشِلتْ
وظَلَّ يتّحدُ الإنسانُ والفَشَلُ

إنْ لم نكُنْ قد وَصَلْنا الغيبَ ذاتَ رُؤًى
فحَسْبُنا أنَّنا بالغيبِ نَتَّصلُ

حَسْبُ الكمالِ الذي في الأرضِ نَنْشُدُهُ
أنَّا نظلُّ حيارَى كيفَ نَكْتَمِلُ

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

ديوان اليوم

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير



ضيف العدد

موسى بن محمد الأمير

- من مواليد عام 1976م
- جازان – الخضراء الشمالية
- صدر له ديوان (رُوحان)
- له مشاركات تلفزيونية وإذاعية وصحافية

ديوان الأمس ديوان اليوم

ولوجان خفيان:
ولوج إلى النص، وآخرُ فيه

الأول أشبه برحلة مع الغيم، والثاني أشبه باتّقاد طارئ، أو ضوء فاتن يغشى العتمة. الأول مشترك بين الشعراء، والآخر لا يناله إلا البارعون فيه..

الأول سرٌ مفضوح.. والآخر سرٌ من الصعوبة بمكان اقتناص لحظته، مهما كانت عدسة الرؤية الشعرية لدينا.. لسبب وحيد هو أن لحظة الإفراج عن الومض أشبه ما تكون بالغيبوبة!

إن لحظة الغيبوبة تلك.. تتشكَّل من قراءات أو صور شعرية.. وقد تكون وليدة شرعية / شعرية لأبيات تأثر بها الشاعر.. ربما اقتنصها من فلم الحياة.. أو من لوحة نصف مكتملة.. ربما كانت آتية من صوت عقيم فأنطقه الشاعر.. وقد تكون متفجرة من ضوء ما خفيٍّ في ظلمات الذات.. لا أدري بالتحديد! حتى التفكير في سر الغيبوبة الواعية هذه.. قد يوقعني في غيبوبة أخرى لا مناص منها..!

...

وكثيرون هم الداخلون إلى دنيا الشعر .. لكن البالغين قمته قليل .. وقليل جداً..! ذلك أن البارعين في الشعر .. لا يجاوزون قنطرته إلا بعد أن يرضى عنهم أوصياء الشعر .. – وهم العارفون به من النقاد – .

وفي زوايا هؤلاء المختلفين عن غيرهم من كتّاب الشعر يحلو لنا أن نتفكّه قطوفاً دانية .. محاولين الاقتراب أكثر إلى ذهن الشاعر .. نتلمس الإنسان داخله .. ونحوم حول حمى نفسه .. نخترع له موقفاً ونؤلف مشهداً ..

ولذا كان جديراً بشعر أولئك النخبة أن يلتصق بالذاكرة و تحفظه الألسن ..

.....

في المربد من العام 1971م أقبل رجل يرتدي جبة بدويّ.. له وجه قضى منه الجدريّ نُهمته .. عيناه مُطفئتان .. وشَعره أكثّ مُجعد .. سيماء الفقر بادية عليه ..

لاكت الألسن ذكره، واتخذوا منه تساؤلات مضحكة، وأشبعوا الليل بسيرته تخمة..

وبعد أيام.. عاد ذلك الرجل حاملاً إمارة الشعر.. وعاد أولئك النفر يمشون خلفه مطرقي الرؤوس دون أن يبصر إطراقهم..!

هو نفسه أنشد هذه الأبيات:

مثلما يبتدئ البيتُ المُقفّى
رحلةً غيميّة .. تبدو وتخفى
مثلما يلمس منقار السنا
سحراً ، أرعش جفنيه وأغفى
هكذا أحسو يديك .. أصبعاً
أصبعاً ، أطمع لو جاوزن ألفا
هذه أملى، وأطرى أختها
تلك أشهى، هذه للروح أشفى
هذه أخصب نضجاً ، إنني
ضعت بين العشر، لا أملك وصفا

وأنا أيضاً لا أملك وصفاً لما قرأت ..

غالباً تتعسر ولادات قصائد الشاعر لدى انبثاق رحم النص ، فهي كالرحلة الغيمية ، يحار حدسك في أية الغيمات يكون رزق الحياة .. تدنو الغيمات وتبعد .. تبيض وتسود ، حتى يجتاح غيثها .. ومثل ذلك النص الشعري.

وكما (يلمس منقار السنا سحراً) - ولنا أن نتأمل هذه الصورة المبتكرة -.. يلمسه فيصحو السحر صحواً بطيئاً مرتعشاً غير مكتمل .. ثم يعاود إغفاءته.

كالبشرى بتلك الرحلة الغيمية كان استبشار شاعرنا ورجاؤه بالظفر بيديْ فاتنته ، وكالغياب بين التصديق والتكذيب كانت دهشته باقتراب أناملها من شفاهه ليحسوها إصبعاً إصبعاً .. هكذا بكل ما أوتي من فرح ومتعة واستبطاء للحظة والحركة .. يغرق في كل أنملة من أناملها العشر .. يتذوق فتنة خالصة مختلفة في كل واحدة منها .. يصف ويصف ..ويطفح كيل خياله عن استيعاب الفتنة ، فيرتدّ البوح معترفاً بالعجز .

مثل هذا المقطع الشعري الموسيقي الراقص، من الأبيات التي لا يملك فؤادك أمامها غير الخفقان .. ويدك غير التصفيق .. وفمك غير قول : يا سلام .

.. نسيان ..

ذات مساء التقت فتاة بالشاعر بدوي الجبل.. كانا صديقين قديمين.. نادته باسمه ولم يدعها باسمها.. فأنكرت ذلك في نفسها وهمست له: أنسيت اسمي؟! أطرق قليلاً ثم قال: للأسف.. نسيته. ثم غادرا المكان بعد اكتمال اللقاء..

لكن سؤالها لم يغادر قلب شاعرنا .. فكتب إليها:

قالت نسيت اسمي ؟ فقلت لها أُعذُري
ذهب الشبابُ الغضُّ وانقطع الرجا
ذهني تَيَبّس طينُهُ.. حتى غدتْ
تتدحرج الأسماء فيه تدحرجا

اتقد الإحساس الشفاف في نفس الشاعر فلم يطفئه إلا مُزن الشعر.. فأهدانا بيتين غاية في الجمال والرقة والاعتذار والأسى..

أتخيل ذهن الشاعر مخضراً في أدناه.. مقفراً في أقصاه.. تلهو ريح النسيان فيما تقادم منه، فلا تُبقي إلا ما استطالت جذوره في طين ذاكرته.. يتقدَّم العمر به وريح النسيان تلقف ما أمامها.. رويداً رويداً.. تتدحرج المواقف والحكايا والأسماء.. حتى تغيب في خندق النسيان!

.. سفر ..

نعود للبردوني ثانية.. ولن نرتوي من نهره الدفَّاق.. إنه يدعونا لتأمل ديوانه، باحثين عن الإنسان بكل تفاصيله وتناقضاته.. منقبين عن الدرر في جعبة رجل يبصر -وهو الشاعر الكفيف- الشجرة والجبل والوادي والمرض والفقر والغنى والجبروت والانتظار والصمت بآلاف الصور المتخيلة التي أورثته مخزوناً صُوَرياً ضخماً.. وتركت لنا شاعراً لم يكرم التأريخ بمثله إلا على رأس كل ألف عام..

في قصيدته خطرات يقول واصفاً:

فكأن النجوم .. شهقات جرحى
جَمَدت في محاجر الأفق .. تَعْبَى

النجومُ.. شهقاتُ.. جرحى.. لماذا وصف النجوم بأنها شهقات؟ ولماذا شهقات جرحى؟ ثم إنها شهقات جرحى ماذا؟ ربما أراد شهقات جرحى الحب أو الحرب أو هما معاً.. وربما لا. الأسئلة شتى تبدو وتغيب ولا جواب يشفي الغلّة كأنما تعمدت الهروب ..كما يقول:

سؤال يولّي ، سؤال يطلُ
ومن جلدها تهرب الأجوبهْ

ثم يداهمنا سؤال آخر.. ما عُمر هذه الشهقات..؟ ومتى سافرت؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

فأتخيل مشهد الآلاف التي لا تحصى من الناس الجرحى.. الذين غادرتهم شهقاتهم وتأوهاتهم.. فأُصاب بقشعريرة توقفني قليلاً عن الكتابة.. وحين أعود يعاودني سؤالٌ عن مصير هذه الشهقات..؟ فيشير الشاعر بأنها (جمدت) كانت سائلة فجمدت.. وأنها هناك..(في محاجر الأفق) يُلهي الأفق بالنجوم / شهقات الجرحى، الناظرين عنه بها .. ولماذا الأفق وليس السماء .. لا أدري .! ربما لأن الجرحى لا تسعفهم قواهم على النهوض بأبصارهم لتنظر إلى سقف السماء .. فهي خائرة لا تجاوز الأفق .. تماماً كـ «شهقاتهم» الـ «تعبى» التي لم تجاوز قواها حدود الأفق فاعترشت به وجمدت ..! ولماذا استحالت الشهقات نجوماً ..؟ ربما لتهمس ومضاً للمحبوب -أياً كان- بأنها خالدة خلود عشقه الصادق .. ولتكون علامات يهتدى بها في ظلمات غدر الحروب وهجر المحبوب.. تظل شهقات الجرحى المتعبة وامضة في محاجر الأفق .. ووحدي أسقط إلى أرض استسلامي!

... يُتم ..

من أشد المشاعر قسوة على النفس أن تعلم أن يتيماً يجهل يُتمه..! إن عددهم بل إن عددهنّ كثير ؛ إنهن بنات الشاعر/ قصائده .. طرق هذا المعنى الفريد الشاعر عمر أبو ريشة فحكى حالة من الحزن لا تُغتفر للموت، إن الشاعر حين يتأمل مصيراً لبناته كهذا المصير يشقى، وإن كان يسليه عزاءٌ أنهن قد يكنّ أوفى من بني الإنسان في تخليده بعد موته .. فيتحدث عنها قائلاً:

تيتّمتْ وهي لا تدري، ونشوتُها
من كل عنقود ذكرى كنت تعتصرُ
لم يُبلغ الخبر الناعي مسامعَها
عن مثل هذي اليتامى، يُكتم الخبرُ!!

.. ميراث ..

يعلو صوت الموت في حنجرة أبي ريشة ، يمسك بيد المحبوبة التي قضى عمراً في الحب معها ، يوصيها بقصائده النائمة في حجرته، ربما لم يسعفه ارتحاله أو مرضه عن نشرها، وربما خبأها عنها عمداً بعد أن كتبها في خلواته، فلما أحس بدنوّ الأجل أباح عن سره.. فكتب أبياتاً يجدر بي أن أصمت دون ارتكاب تعليق عليها:

إنها حجرتي .. لقد صدئ النسيان فيها ..
وشاخ فيها السكوتُ!
أدخلي بالشموع ..
فهي من الظلمة وكرٌ في صدرها منحوتُ
وانقلي الخطوَ باتّئاد فقد يجفل منك الغبار والعنكبوتُ
عند كأسي المكسور .. حزمة أوراقٍ
وعُمر في دفّتيْها شتيتُ
إحمليها .. ماضي شبابك فيها
والفتون الذي عليه شقيتُ
إقرئيها .. لا تحجبي الخلد عنها
أنشريها .. لا تتركيني أموتُ

وأقف حيث شاء لي الحرف.. وفي القلم ولوع .. حسبي كما قال أبو ريشة :

بعضُ الربيع ببعض العطر يُختصرُ .

حتى عشية فوزها بجائزة نوبل للآداب العام الماضي، كانت الأديبة الألمانية، الرومانية الأصل، هيرتا مولر شبه مجهولة من قِبَل جمهور القرَّاء في العالم، غير أن الجائزة سلطت الضوء على أعمالها، ووضعتها، عن جدارة، في مصاف أعمال كبار الأدباء الألمان الذين نالوا نصيباً كبيراً من الشهرة خلال القرنين الماضيين على مستوى العالم بأسره.
صالح القاسم يسلِّط الضوء على ما صاغ الشخصية الأدبية للروائية مولر بدءاً من طفولتها في رومانيا وصولاً إلى استقرارها في موطنها الجديد ألمانيا. حيث لم يفارقها الشعور بالغربة، فبقيت حساسة بشكل خاص تجاه آلام القمع والقهر الذي تذوقته شخصياً في صباها، أو كانت شاهدة عليه في وطنها الأم، كما يتجلى ذلك في مقتطفات من روايتها الشهيرة «كل ما أملكه أحمله معي».


رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير

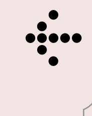
هيرتا مولر
الغريبة التي تحمل معها كل ما تملك.. لغتها

لا غرابة إذا وجدنا الكثير من الكتابات تصف ألمانيا بأنها أرض الشعراء والمفكرين، وذلك لكثرة الأدباء والمفكرين الناطقين باللغة الألمانية المشهورين عالمياً.

والمتصفح لتاريخ ألمانيا الفكري يتلمَّس مبررات هذا الوصف بسهولة. كما أن القارئ العربي يعرف الكثير من روائع الأدب الألماني بفضل الترجمات والدراسات والمقالات المنشورة، إذ اطلع على عدد كبير من روائع الأدب الألماني وأعلامه البارزين في الشعر والمسرح والرواية إلى غير ذلك من الفنون.

ولماذا ألمانيا «بلد المفكرين والأدباء»؟. هناك عوامل كثيرة ساعدت على ذلك: بعضها يتعلق بالتطور التاريخي الطبيعي للشعب الألماني، وبالأزمات والحروب التي مرت بها؛ وبعضها يتعلق باللغة الألمانية نفسها؛ فالمؤرخون يؤكدون على أن الأدب الألماني ظهر قبل ولادة ألمانيا الدولة التي نعرفها اليوم بفضل تنوع الخلفيات الثقافية للناطقين بالألمانية. والأزمات والحروب التي مرت بها كانت هي الأخرى ذات تأثير بالغ في سير الحياة الفكرية.

ففـي القرن الثامن عشر تعرضت ألمانيا لعدد من موجات الإصلاح والتحرر، وظهر عـدد من التيارات الثقافية التي أثـرت فـي الحيـاة الأدبية، ولا يـزال تأثيرها حتـى يومنا هـذا، مثـل مدرسـة إخـوان شلجـل الفلسفيـة، ومدرسة الفلسفة المثالية الذاتية عنـد فيخته، والمدرسة الشعرية التـي انبثقت عنها موجة برلين الأدبيـة ومن أبرز رموزها هينريـش كلايسـت، وأرنسـت هوفمـان، وتطـورت أيضاً الكثيـر من الفنـون الجميلـة والتشكيلية بصـورة لم تكن معروفـة من قبـل. حتى عُد القـرن الثامن عشـر بالنسبة لألمانيا مـن أعظم العصور الأدبية وأزهاها.



غريبة في وطنها الأم بسبب لغتها، وغريبة في منفاها بسبب وطنها الأم

ومـع مستهـل القـرن العشريـن ظهرت مدارس أخرى أبرزها المدرسة الواقعية التـي هدفـت إلـى توطيـد الأواصر بين البشـر، وعبـرت مـن خلالها عـن خيبة أمل مـن الهتلرية مما زاد من انتشارهـا عالمياً بحكم الصـدق والمعانـاة، كما يمكننا أن نلاحـظ في أعمال كافكا مثلاً.

ولا ننسى الحروب الطاحنة التي خاضتها ألمانيا والتي كانـت ذات تأثيـر كبير علـى آدابها. فحـرب الثلاثين عامـاً بيـن الكاثوليـك والبروتستانـت ألقـت ظلالها بوضـوح على العديد مـن الأعمال الروائيـة والشعرية والمسرحية التي راحت تصف أحوال الجنود العائدين مـن هذه الحرب. والحرب العالمية الثانية عام 1945م كان مـن نتيجتها تقسيـم ألمانيا إلـى دولتين، أفرزت كتاباً شيوعيين في ألمانيا الشرقية، وكتاباً رأسماليين فـي ألمانيـا الغربية. وعنـد إعادة توحيـد البلاد عام 1990م، أصبـح كل هؤلاء الأدبـاء يكتبون ضمن الإطار الجغرافي الجديد فظهرت أعمال أدبية تحاسب الذات عما جرى.

أمـا اللغـة الألمانيـة فـلا يقتصـر وجودهـا علـى الألمان القاطنين في ألمانيـا، ولكنها تمتد إلى المجموعات الإثنية التـي تنحدر من أصول ألمانية وتعيش في بلدان مثل النمسا وسويسـرا ورومانيا ومناطـق أخرى مثل بوهيميـا وسليزيا والالزاس، حيـث تُعـد الألمانيـة اللغـة الأم، كمـا هو حال أديبتنا هيرتا مولر: «الألمانية هي لغتي الأم».

هيرتا مولر
صنيعة الاضطهاد والألم

هـي صـوت الأقليـة الألمانيـة فـي رومانيـا نظـراً للقمع والاضطهـاد الذي تعرضت لـه هذه الأقلية فـي عهد رئيس رومانيـا السابق نيقولاي شاوشيسكو، وهـي صوت المرأة التي عانـت كثيراً في تلك الفترة، وهـي بشكل عام صوت المحروميـن، صورت بدقة تفاصيـل حياتهم اليومية بلغة أدبية ساحرة ومؤثرة.

تنتمي الكاتبة الألمانية هيرتـا مولر والمولودة عام 1953م إلـى أقلية ناطقة باللغة الألمانيـة كانت تقطن في محافظة تدعى «بنـات» في جنوب غرب رومانيا. وتـروي الكاتبة أنه لـم يكن يتحـدث الرومانية في قريتها سـوى بعض موظفي الدولـة، فلذلـك تعلمتها متأخـرة في الخامسـة عشرة. ثم درسـت الأدب الألماني والروماني في جامعـة «تيميشوارا» عام 1973م.

مـرت بظـروف صعبة أثنـاء حياتها فـي رومانيـا. فالثورة الشيوعيـة صادرت ممتلكات عائلتهـا عام 1945م، ومن ثم قامـت بإبعاد والدتها -ضمـن 100,000 آخرين من الأقلية الألمانيـة- إلـى معسكـرات العمـل القسـري فـي الاتحاد السوفييتـي. ولم تكد تستلـم أول وظيفة لهـا كمترجمة في أحد المصانـع حتى طردت منه بسبـب رفضها التعاون مع الشرطة السريـة الرومانية، فاضطرت إلـى العمل مدرسة للغـة الألمانية للأطفال، وظلت الاستخبارات تضيق الخناق عليها وتطاردها وتستجوبها من حين لآخر.

إن الظـروف الاجتماعيـة والسياسية التي مـرت بها هيرتا مولر، وكذلك ظـروف الأقلية التي تنتمي إليها كانت قاسية وصعبـة، وحفـرت فـي ذاكرتها أخاديـد عميقة مـن الألم والمعاناة لم تستطع الأيام أن تزيل آثارها رغم هجرتها إلى ألمانيا لاحقاً عـام 1987م، وعيشها لأكثر من عشرين سنة حيـاة غريبـة بالكامل. فبقيـت أسيرة ماضٍ مريـر ومؤلم، ويظهر ذلك بوضوح في كتاباتها.

الغريبة أينما كانت

رسمت هيرتا مولر عن طريق التكثيف الأدبي لوحات معبِّرة عن التغرب؛ فداخل موطنهـا الأصلي رومانيا اكتشفت أنها لا تتحدث بلغة رومانية، وإنما بلغة أقلية.

وظلت تشعر باستمرار أنها ذلك الشخص الآخر، وهي تقول في إحدى مقابلاتها: «بطريقة أو بأخرى تشعر دائماً أنك شخص آخر.. لا يستطيع الإنسان تجاوز الماضي، أو الاستمرار في التظاهر بأنه شخص منتمٍ». وتعبِّر هذه الإجابة عن أقصى درجات الشعور بالغربة. فهي لم تستطع أن تكون مواطنة رومانية مائة بالمائة بسبب عدم تحدثها اللغة الرومانية، ولم تستطع أن تكون مواطنة ألمانية مائة بالمائة لعدم وجود ماض لها في ألمانيا. فكانت رومانية في ألمانيا، وألمانية في رومانيا.

برعت مولر في كل أعمالها بتصوير مشاهد الهجرات القسرية والاقتلاع والتخلي وصعوبة التكيف مع العوالم الجديدة

ولعل أول غربة شعرت بها عندما ذهبت لتعلم الرومانية في المدينة حيث عاشت غربة القروية في المدينة، ثم عندما نبذها مجتمعها إثر محاولتها نشر أول أعمالها «ناديرس» لأنها تناولت صراحة أوضاع القرويين في رومانيا إبان النظام الشيوعي، فلم تتمكن من نشر هذا العمل إلا بعد عام 1982م، بعد أن حذفت منه الرقابة الرومانية الكثير من العبارات.

وفي عام 1987م هاجرت إلى ألمانيا لتلتحق بزوجها الروائي ريتشارد فاغنر الذي كان قد هاجر قبلها، ليقيما معاً في مدينة برلين، وذلك ضمن صفقة إنقاذ الأقليات الناطقة بالألمانية.

إن المتتبع لمسيرة الروائية مولر يلحظ أنها لم تكن أسيرة ماضٍ مرير وحسب، بل أيضاً غريبة عن العالم المحيط بها، ومنسلخة تماماً عن المكان. فأشعرها ذلك أن اللغة الألمانية هي الإطار الذي تعيش داخله، وهي الموطن الحقيقي الذي تلجأ إليه عبر قصصها ورواياتها.

وتعلل سبب تمحور موضوعات رواياتها حول الماضي الذي كانت شاهدة عليه، فتقول: «أنا لم أختر هذه الموضوعات بل هي التي تبحث عني لتخرجني من عالمي، و«أنا أكتب لنفسي لتنقية الأشياء مع نفسي، ولأفهم حقيقة ما حدث، وماذا أصبحت أنا». وكأنها تحاول بذلك ترميم ماضيها المتصدع.

حصلت مولر على أكثر من عشرين جائزة محلية وعالمية مرموقة آخرها جائزة نوبل للأدب عام 2009م. ومن الجوائز الأخرى نذكر جائزة الأدب الألماني للأعوام 1981 و1984 و1985 و1991م، وجائزة اللغة الألمانية عام 1989م وجائزة إمباك دبلن الأدبية الدولية عام 1998م، وجائزة الأديب كلايست عام 1994م وجائزة الأدب الأوروبي عام 2006م وجائزة حقوق الإنسان عام 2009م، وغير ذلك من الجوائز التي لا يتسع المجال لذكرها. ورغم هذه الجوائز والمكانة المرموقة التي كانت تحتلها على ساحة الأدب الألماني لكن شهرتها العالمية كانت محدودة.

وبحصولها على جائزة نوبل تكون هي المرأة الثانية عشرة على مستوى العالم التي تحظى بمثل هذه الجائزة منذ إطلاقها عام 1901م، وصاحبة المرة الثالثة عشرة التي يكرم فيها شخص يمثل الأدب في الدول الناطقة بالألمانية.

من أعمالها: مجموعة قصصية بعنوان حضيض أو «ناديرس»، ومجموعة قصصية بعنوان «تانغو الظلاميين» عام 1984م، و«دير عين» عام 1986م، ورواية «جواز سفر» الشهيرة و«ذيل الثعبان» عام 1989م، ورواية «فبراير بيرفوت» عام 1987م، و«المطلق» 1987م، و«السفر على قدم واحدة» 1990م، و«الشيطان يجلس في المرآة»، و«البطاطا الدافئة فراش دافئ» 1992م، و«الثعلب عندما أصبح صياداً» عام 1992م، ورواية «الحرس تحيط صاحب مشط» 1993م و«بلاد البرقوق الأخضر» 1994م و«الجوع والحرير» وغير ذلك من الأعمال الإبداعية.

وفي كل هذه الأعمال، برعت مولر في تصوير مشاهد الهجرات والاقتلاع والتخلي، فرواياتها «الإنسان طائر تدرج كبير على الأرض» و«فبراير الماضي» عملان يستوحيان الأحداث مباشرة من بيئة ريفية مسكونة بهاجس الفقر والخوف من المجهول. وروايتها «السفر برجل واحدة» تحكي عن صعوبة التكيف مع عالم جديد، ورواية «الاستدعاء» تصور تداعيات امرأة لم تعد تفعل شيئاً سوى تلبية استدعاءات ضابط الاستخبارات الدنيئة.

أما في رواية «بلاد البرقوق الأخضر» فتقدم مولر صورة محزنة للتعقيدات التاريخية للهجرة ووصفاً منفراً للعالم الذي تركته في رومانيا. وتصف ببراعة أيضاً القبح المادي والروحي للحياة في ظل الدكتاتورية، وتتحدث عن الاشتراك في الشعائر الدموية للنظام القمعي الذي لا تسلم

منـه حتى سرقة فضلات الذبائح والبرقوق الأخضر: «لقد أكل الجنود البرقـوق الأخضر بأنفسهم بعيداً عن واجبهم. عادوا إلى الطفولـة يسرقون البرقوق مـن أشجار القرية». وعـن سرقـة فضـلات الذبائـح كتبـت تقـول: «كان كيرت يخبرنـي كل أسبـوع عن المسلـخ. شرب العمال دمـاً دافئاً حين ذبحوا الحيوانات. سرقـوا لحم الأعضاء والمخ.. قال كيـرت إن أزواجهم وأطفالهم شـركاء. استعملت الزوجات ذيل البقرة الصلب كفرشاة للقناني بينما استعمل الأطفال الذيل اللين في ألعابهم».

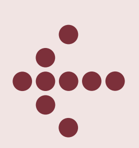
كل ما أملكه أحمله معي

في هـذه الروايـة، تصور مولر حالـة الرعب التـي تعيشها الأقلية الألمانية في ترانسلفانيا من خلال وصف حياة شاب فـي نهاية الحـرب العالميـة الثانية: كيف اعتقلتـه الدورية الروسيـة، وكيف كانت حياته فـي معسكر تجميع المعتقلين فـي رومانيـا. تصف رحلـة اعتقالـه الطويلـة، وحياته في معسكرات الاعتقال الروسية.

«عندمـا تقدَّمـت دوريـة عسكريـة ناحيتـي، كانـت درجة الحـرارة 15 درجـة تحـت الصفـر، وكانـت فـي انخفاض مستمـر. كان ذلك يوم 15 من شهر يناير عام 1945م، عند الساعة الثالثة».

بهـذه العبارات تبـدأ مولر روايتها الرائعـة، ناقلة لنا صوراً من المعاناة المروعـة التي مر بها المعتقلون في معسكرات العمل القسرية الروسيـة في نهاية الحرب العالمية الثانية، التـي تركت «بصمات دائمة من الألم لا يمكن محوها»، على حد تعبير مولر. والرواية مستمدة من وقائع حقيقية تعرض لهـا الشاعـر أوسـكار أثناء سجنـه من العـام 1945 وحتى 1949م.

وجديـر بالذكـر أنه كان مـن المتوقع أن تفـوز بجائزة الكتـاب الألمانـي لعـام 2009م، قبل أن يعلـن عن فوز الكاتبـة نفسها بجائزة نوبل في شهـر أكتوبر من العام نفسه.



مقتطفات

«كل ما أملكه أحمله معي»..
مقتطفات من الرواية

حملت كل شيء معي. في الحقيقة لم يكن لي، وبدا غير ضروريّ كأنه لشخص آخر. فالحقيبة المصنوعة من جلد الخنزير كانت تستخدم صندوقاً للجراموفون، والمعطف الواقي من الغبار كان لوالدي، والمعطف المدنيّ بشرائطه الكثيرة على العنق من جدّي، والسروال من عمي إدوين، ومشدّات السّاق الجلدية من جارنا السيد كارب، والقفازات الخضراء من عمتي فيني. ما كنت أملكه هو فقط الشال ذو اللون الخمري وصندوق الأغراض الضرورية. وحتى هذه، فقد كانت هدايا من عيد الميلاد الأخير.

كانت الحرب لا تزال دائرة في يناير من عام 1945م، وتوقع الهلع في منتصف الشتاء. كنت ضمن المطلوبين للاعتقال من الجيش الروسي، لا أحد يعرف إلى أين سيؤول مصيري. كل واحد من معارفي أراد أن يعطيني شيئاً حتى ولو لم يكن له فائدة، ولم يكن من شيء ليساعدني.

في سن السابعة عشرة كنت أريد السفر بعيداً، لكني لم أتوقع أن تتحقق هذه الأمنية ضمن قائمة المطلوبين. كنت أريد الخروج بأية طريقة من بلدتي الصغيرة. فالحجارة هناك كان لها عيون. لم أكن خائفاً، ولكن قلقاً خفياً شعرت به. وبدلاً من الخوف، انتابني تأنيبُ ضمير لأنني كنت راضياً عن وجود اسمي ضمن قائمة المطلوبين، في حين كان أقاربي منزعجين من ذلك تماماً؛ وخائفين من حدوث مكروه لي في الغربة.

سابقاً؛ أي قبل ذهابي إلى المعسكر بقليل، وبعد عودتي منه عام 1968م، حيث غادرت بلادي بشكلٍ نهائي، كانت مواعيد الغرام تؤدي إلى سجن لا تقل مدته عن سنوات خمس، هذا لو أمسكوا بي متلبساً.

أتدرب على أفضل الجمل التي يمكن أن أقولها في حال اعتقالي، فعلى تهمة مثل: ضُبطتَ متلبساً بالجرم المشهود، حضّرت ألف إجابة وادّعاء بغيابي عن المكان. وبخاصة أنني من الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بالكلمات، وحين أحاول ذلك أعبّر بطريقة مختلفة.

عشت الخوف قبل المعسكر وأثناءه، وبعده لمدة خمسة وعشرين عاماً متواصلة، الخوف من الدولة والخوف من العائلة. الخوف من السقوط المضاعف. أن تعتقلني الدولة بوصفي مجرماً وأن تطردني العائلة بوصفي عاراً، وفي ضجة الشوارع أنظر في مرايا واجهات العرض، في نوافذ البيوت والقطارات، وفي مياه الينابيع وبرك الماء الصغيرة، أنظر ولا أصدّق.

كان أبي معلم رسم، وحين كنت أسمعه يلفظ كلمة «أكواريل» كنت أرتجف كأن أحداً رفسني بقدمه. وقتذاك كنت أعرف الحد الذي كنت قد تجاوزته. قالت أمي ونحن على طاولة الطعام: لا تطعن حبة البطاطا بالشوكة فتفتّتها، خذ الملعقة، الشوكة تستعمل لتقطيع اللحم. ما علاقة اللحم بالبطاطا والشوكة؟ عن أي لحمٍ تتكلم أمّي؟.

كنت أريد الرحيل حتى ولو إلى معسكر العمل القسري. ما كان يؤلمني هو هجر أمي، لم تكن تعرف ما يدور بعقلي، سوف تفكر بي كثيراً، أكثر مما أنا أفكر بها أثناء غيابي.

فرحت لأنهم لن يأخذوني إلى الحرب، ولن يأخذوني إلى الجبهة في مثل هذا الثلج. رحت أحزم حقائبي بشجاعة الغبي. مشدات جلدية برباطات، سراويل فضفاضة، معطف بنطاقٍ حريري. لا شيء يناسبني منها. قلتُ في نفسي، على أية حالٍ العالم ليس حفلة تنكُّرية، والأمر ليس مضحكاً لمن يتوجب عليه السفر إلى روسيا في قلب هذا الشتاء.

كانت الدورية المؤلفة من شرطيين، أحدهما روماني والآخر روسي ومعهما القائمة، تدور على المطلوبين من بيت إلى بيت. لا أدري إذا كانت تلك الدورية قد نطقت كلمة معسكر عندنا في البيت. أو إذا كانت هي اللفظة التي قيلت. وإذا قالوا كلمة أخرى، فلن تكون سوى روسيا. أما إذا كانت كلمة



معسكر فعلاً، فإنها لم ترعبني. فقد كنت ما أزال أخبئ في أعوامي السبعة عشر طفولة ساخطة حمقاء.

أكواريل ولحم.. من الكلمات التي تركت أثراً في نفسي. أما كلمة معسكر فلم أكن ألقي لها بالاً. أتذكر قصة الطعام والبطاطا والشوكة، صرخت أمي من نافذة الشرفة: إذا لم تأتِ فوراً للأكل واضطررت لمناداتك مرة أخرى فابق حيث أنت. ولأنني لم أكن أصعد إليها في الحال وأبقى برهة أطول في الدار، كانت تقول لي حين أصل إليها: تستطيع الآن أن تجهز حقيبتك المدرسية وترحل أنّى شئت وتفعل ما شئت في هذا الكون. ثم تجرني إلى الغرفة آخذةً حقيبة الظهر الصغيرة حاشرةً فيها قلنسوتي الصوفيّة والجاكيت. فأسألها: ولكن إلى أين أذهب؟ ألست ابنك؟

لم يكن في عائلتنا حقائب. وعندما ذهب أبي إلى الجبهة لأداء الخدمه الإلزامية في الجيش، لم يكن هناك ما يتوجب تجهيزه، كان العسكري يحصل على كل شيء مع البدلة العسكرية، ما عدا بعض الحاجات الخاصة بالسّفر وحاجات أخرى ضدّ البرد. لم نكن نعرف لماذا يتوجب علينا التجهيز، ولم يكن المرء لحظتها يملك ما يمكن أن يقول.

بعد أن جلبت أمي الغرامافون من حجرة الجلوس ووضعته على طاولة المطبخ، قمت بتحويل صندوقه إلى حقيبة بواسطة مفكّ البراغي. وأبقيت البطانة الداخلية ذات اللون المخملي الأحمر مثل لون الثّعلب في مكانها.

وضعت على أرضية الحقيبة أربعة كتب: فاوست بجلده الكتّاني، زرادشت، فاين هيبر ذي القطع الصغير ومجموعة مختارات شعرية من القرون الثمانية الأخيرة. لم آخذ معي أية رواية، فالرواية يقرأها المرء مرة واحدة. وضعت فوق الكتب علبة الاستحمام: زجاجة ماء كولونيا ومعجون حلاقة وماكينة حلاقة يدوية وفرشاة حلاقة وصابون غسيل لليدين ومقص أظافر. وإلى جانب العلبة، وضعت زوج جوارب صوفية طويلة حتى الركبة بني اللون ومرقّع، وقميص فانيلا أبيض وأحمر وسروالين داخليين قصيرين من قماش مضلّع. ثم وضعت فوق كل ذلك من الأعلى الشال الحريري الجديد كي لا يتجعّد من شدّة الضّغط، ذلك الشال الأحمر النبيذيّ المخطّط من ذاته وبذاته، والذي تراه مرّة لماعاً ومرة معتماً. هكذا امتلأت الحقيبة. أما الصرّة: فقد كانت عبارة عن بطانية أخذتها من البيت من الصوف المخطّط بالبيج والأزرق الفاتح، ورغم كبرها لم تكن تدفئ. لففت داخل البطانية معطفاً أغبر اللون لونه من لون خلطة الفلفل والملح، مهترىء من كثرة الاستخدام، وزوج مشدّات جلدية صفراء قديمة جداً، من أيام الحرب العالمية الأولى.

كيس الخبز كان عبارة عن علبة لحم مملّح من ماركة «سكانديا» وأربعة سندويتشات وبضع قطعٍ بقايا كعك من عيد الميلاد ومطرة ماء عسكريّة مع كوب للشرب.

وضعت جدتي حقيبة الغرامافون والصرّة وكيس الخبز قرب الباب، وهكذا أصبح متاعي جاهزاً وينتظر قرب الباب. فالشرطيان أعطياني منتصف الليل موعداً لاعتقالي.

لبست ثيابي: سروالاً داخليّاً طويلاً وقميصاً من الفانيلا ذا لون طحيني مخضر ومخطط، وسروالاً فضفاضاً رماديّاً كنت قد حصلت عليه من عمّي إدوين كما سبق وذكرت، وسترة قماشيّة بأكمام محاكة على التريكو وزوج جوارب صوفيّة وزوج أحذية خاصّة بالجبال...

ربطت حذائي الجبليّ وجلست على الطاولة أنتظر منتصف الليل. جاء منتصف الليل، لكنّ الدورية تأخرت. كان يجب أن تمضي ثلاث ساعات قبل أن تأتي تلك الدوريّة. وقت طويل يصعب على المرء تحمّله. وقفت أمّي تحمل بيديها معطفي ذا الرباط المخمليّ الأسود. دلفتُ فيه بمساعدتها. بكت أمي، وحين لبست قفازاتي الخضر. وعند المدخل الخشبي تماماً حيث لصق عدّاد الغاز، قالت جدتي: «أعرف أنك ستعود».

مقتطفات



استقرت هذه الجملة في قلبي من دون قصد مني. وأخذتها معي من دون تخطيط إلى المعسكر. لم أعرف يومها أن هذه الجملة سترافقني. كان لها وقع كبير في نفسي؛ عملت وعلَّمت فيَّ ما لم تستطعه كل الكتب التي حملتها. «أنا أعرف أنك ستعود» عبارة أصبحت تلامس شغاف القلب وتحارب ملك الجوع. ولأنني عدت فعلاً، فإنه يحق لي أن أقول: مثل هذه الجمل تساعدك في المقاومة للبقاء على قيد الحياة.

كانت الساعة الثالثة من ليل الخامس عشر من كانون الثاني، يناير عام 1945م، عندما حملتني الدورية معها، وكان البرد هو السيد يومها، ودرجة الحرارة لا تتجاوز الخمس عشرة تحت الصفر وكانت في انخفاض مستمر.

حملتنا شاحنة ذات مقطورة مغطاة عبر المدينة الخالية، وأنزلتنا في صالة المعارض، وهي صالة خاصة باحتفالات الساكسونيين (الأقلية الألمانية التي تعيش في رومانيا)، حوّلوها إلى نقطة تجمّع الموقوفين. وفي تلك اللحظة، كانت تزدحم بنحو ثلاثمائة إنسان تكوّموا الأرض فوق حصائر وأكياس القش. واستمرت الشاحنات بالوصول من القرى المجاورة لتفرغ حمولاتها من البشر حتى الصباح حيث بلغ عدد المعتقلين نحو الخمسمائة. كان من الصعب إحصاء الناس كلّهم رغم وجود الضوء المشتعل طوال الليل، لأن الجميع في حركة مستمرة يبحثون في المكان عن معارفهم، وبالتالي لا يمكن رؤية الجميع.

سمعنا عن تجنيد نجارين لتفصيل عربات خشبية جديدة مثل تلك التي تنقل فيها الحيوانات. وعن تجنيد عمال آخرين لبناء مدافئ أسطوانية في العربات، وآخرين لفتح ثقوب المراحيض في أرضياتها. الأحاديث تدور بلا توقف بأعين نصف مفتوحة. وأعين حزينة دامعة بهدوء. كانت رائحة الهواء تذكرك برائحة الصوف العتيق، واللحم المشويّ ذي الدّهن الكثير، ورائحة كعك الفانيلا. خلعت إحدى النساء منديلها، كانت امرأة قروية، ضفرت شعرها في جديلة على خلفية رأسها ثم طوتها مرتين وثبتتها في المنتصف مرفوعة بمشط عاجيّ نصف مقوّس. أسنان المشط العاجيّ تختفي في شعر الجديلة ومن طرفه المنحني تبرز زاويتان كأذنين صغيرتين محدبتين. وهكذا بدت خلفية رأس المرأة بجديلتها السميكة وأذني المشط مثل قطّة جالسة. أمّا أنا فجلست أتفرّج بين الأرجل الواقفة وأكوام الأمتعة المكدّسة. واستولى النعاس علي بضع دقائق ورحت أحلم:

رأيت أمي معي في المقبرة، كنّا واقفين أمام قبر جديد، وسط القبر تماماً تنمو نبتة متوسطة الطول مثلي ولها أوراق كالفرو. توجد على ساقها ثمرة على شكل كبسولة ذات مقبض جلديّ مثل حقيبة صغيرة.

الكبسولة مفتوحة بعرض إصبع ومحشوة بمخمل أحمر كجلد الثعلب يشبه بطانة صندوق الغرامافون. لا نعرف من مات. تقول أمي: خذ الطبشورة من جيب المعطف. ليس لدي طبشورة، أرد. وعندما أدسّ يدي في جيبي أجد فيها فعلاً قطعة طبشور من النوع الذي يستعمله الخيّاطون. فتقول أمي: يجب علينا كتابة اسم قصير على الحقيبة، ليكن روت. لم نكن نعرف أي أحد بهذا الاسم. أكتب: روت. كان واضحاً في الحلم أنني متّ، لكنني لم أكن أريد قول ذلك لأمي. انتفضت واقفاً لأن رجلاً مسنّاً في يده مظلّة مطريّة جلس فجأةً إلى جانبي على كيس القشّ وهمس في أذني: سوف يأتي صهري أيضاً. كانت الصالة محاطةٌ بالحرّاس من كل جانب. لن يسمحوا له بالدخول. ما زلنا في المدينة وهو لا يستطيع المجيء لا إلى هنا ولا إلى البيت. على كل زر فضي من أزرار سترته كانت هناك صورة طائر يطير، وكان الطير إما بطةً أو قطرساً، وقفت المظلة كعصا بيني وبينه. سألته: «هل ستأخذها معك؟»، ردّ عليّ: «هناك يسقط ثلجٌ كثير، أكثر حتى من هنا».

أخبرونا متى وكيف علينا الخروج من صالة التجمّع إلى محطة القطار، ومتى يسمح لنا بالخروج من الصالة. بالنسبة لي، كنت أريد أن تبدأ الرحلة إلى الروس حتى ولو كانت بعربات نقل الحيوانات، حتى ولو كانت مصحوبةً بصندوق الغرامافون وكل هذه الصرر. لم أعد أعرف كيف وصلنا إلى المحطة. كانت عربات نقل الحيوانات عالية، ونسيت الطريقة التي صعدنا بها إلى تلك العربات. استغرق سفرنا أياماً وليالي طويلة، وبدا السفر وكأننا أمضينا فيه كل حياتنا، حقيقة لم أعد أتذكّر المدّة التي استغرقتها رحلتنا.

على الطرف الأمامي للمقطورة، ثمة رجال ونساء، شباب وكهول بأمتعتهم. وثمة دردشة وصمت، أكل ونوم، وبدأت هنا وهناك محاولات فرفشة، لقد أصبح الجميع يرى واقعه بعين ويهرب منه بالأخرى.

قول آخر

المعركة..
بين المريدين فقط

كانت المعارك الأدبية بين طه حسين وعباس العقاد «حرباً باردة» أو «خفية»! فلم تشتعل بين الفارسين الكبيرين خصومات عنيفة كالتي كانت بين أترابهما الألدَّاء! بل إن كتب الأدب تخبرنا أنه جرت بينهما مجاملات كثيرة، منها: أن طه حسين أهدى كتابه «دعاء الكروان» إلى العقاد صاحب ديوان «هدية الكروان»! كما أن العقاد خالف رأي حزبه «الوفد»، ودافع عن طه حسين أثناء محنته التي أعقبت صدور كتابه «الشعر الجاهلي»!

والسؤال المطروح هو لماذا لم تشتعل المعارك الحامية بين هذين الأديبين، على الرغم من أنهما مختلفان تمام الاختلاف في كل شيء، حتى كادا ألا يلتقيا أبداً على أي شيء؟! فمرجعية هذا الفكرية تتقاطع مع مرجعية ذاك، وهما ينتميان إلى مدرستين متنافرتين! فالعقاد يمثِّل الشخصية العصامية الجادة الأصيلة، في حين يمثِّل طه حسين الشخصية التشكيكية والمرتمية في أحضان الغرب! وشخصية العقاد لا تعرف المزايدة أو التلوّن أو الازدواجية، أما طه حسين فكان يجيد التكيّف حسب طبيعة الظروف!

لم يكن العقاد يرغب في خوض معارك مع آخرين، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، كأن ينزلق أحد الكُتَّاب مزلقاً خطيراً لا يمكن السكوت عليه، أو أن أحد الأدباء بدأ المعركة وأعلن الخصومة، فهنا تكون الواقعة قد وقعت بالفعل! مما يضطر العقاد إلى استخدام كافة أسلحته الخفيفة والثقيلة، ولا يسحب قواته من أرض المعركة إلا إذا أجهز على خصمه نهائياً. وكان طه حسين يخشى قلم العقاد، فلم يعرض له إلا لماماً وفي حذر شديد!

نقائص طه حسين في مرآة العقاد!

ومع ذلك؛ فإن للعقاد رأياً معيناً في صاحبه وفي منهج تفكيره وأسلوب كتابته، فمثلاً، كتب يقول: «أسلوب طه حسين هو أسلوب الإملاء الموقَّع الذي يجعل السكوت والابتداء فواصل ونغمات.. فهو يفكر ليُملي، ويُملي ليزاوج بين فواصل».

ويتناول طه حسين كتاب «أبو نواس» للعقاد، فيقول في نقده: «إن علماء التحليل النفسي لهم مذاهبهم في البحث يخطئون فيها ويصيبون وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب، فتستقيم لهم حيناً، وتخطئهم حيناً. أما الأدباء فيذهبون في ذلك مذهب التقليد والمحاكاة لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد، والعلم لا يجوز فيه التقليد».

كذلك عندما أصدر العقاد كتابه «رجعة أبي العلاء» قام طه حسين بنقده. فرد عليه العقاد بقوة! وبالرغم من هذه المناوشات بين الأديبيْن الكبيريْن؛ إلا أنه لم تحتدم المعارك الحامية بينهما. فقد كتب طه حسين كلمة في وداع العقاد سنة 1964م استهلها بقوله: «ما أشدّ ما كان بينك وبيني من خصام في السياسة أحياناً وفي الأدب أحياناً، وما أحلى ما كان بينك وبيني من مودة وإخاء..».

يبقى سؤال لا بد منه

ولكن على الرغم من انتهاء المعارك الأدبية بين طه حسين وعباس العقاد سواء كانت باردة، أو ساخنة.. فإن العداوة بين أتباع الأديبين أو بين «المدرستين» ما زالت مستعِرة، وهي عداوة ظاهرة مستحكمة، ومحتدِمة على أشدّها سواء في المعاهد والجامعات، أو في المنتديات والصالونات الأدبية، وحتى على صفحات الجرائد والمجلات، وانتقلت تِباعاً إلى الفضائيات والكواكب الأخرى! فهل هذا من الاختلاف المحمود أمْ من الخلاف المذموم؟ وهل يمكن أن يلتقي الطرفان على نقاط مشتركة؟ وهل يمكن أن تفلِح الوساطة بين المعسكريْن المتناحريْن؟!

لا يتوقع أحد حدوث أي توافق بين الفريقين.. إذ لا يبدو أن أياً من الفريقين سيقبل الصلح مع الآخر مهما كان نوع «الوساطة» التي سترعى مثل هذا المؤتمر التصالحي!

ذلك، أنه ثبت يقيناً أن أتباع طه حسين أشد لدادة، وأكثر تطرفاً.. بالإضافة إلى أن «أجندتهم» خارجية! أي إنهم يحتكمون إلى «لويس» أو «شارل»، ولا يحتكمون إلى «الجاحظ» أو «الزمخشري» حتى لو كان الأمر في مسائل الطهارة والصلاة!

ومما يؤخذ -أيضاً- على هذا المعسكر التغريبي، أنه ما زال مؤمناً بأخطاء -شيخهم- وخطاياه، حتى تلك التي تبرأ منها ككتاب «الشعر الجاهلي»، و«مستقبل الثقافة» وغير ذلك! من جهة أخرى فإن «العقاديين» أو أتباع العقاد معروفون بالحدَّة والصرامة المبالغ فيها، والتمسك الشديد بمواريثهم الفكرية والثقافية، وليسوا على استعداد للتخلّي عن حبة واحدة من مسبحة العقاد.. حتى لو بلغت الدماء ركب الخيل!

ومما يؤخذ على هذا المعسكر العقادي، أنه لم يستطع بعد أن يفهم مرامي العقاد ومقاصده الفكرية والثقافية، فلم يكن «شيخ الطريقة» منعزلاً عن الحياة، ولا متقوقعاً في ذاته؛ كما هو حال معظم «مريديه»! بل كان أكثر الناس انفتاحاً على الثقافات والحضارات الأخرى!

محمّد عبد الشّافي القُوصي



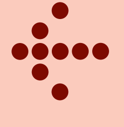
التوأم

نحن نحتفي بالاختلاف ونعزّز الفروقات، توّاقينَ إلى إبرازها بأي ثمن، لأن وجودنا الذي يؤسّس للحياة تماماً كما يصوغها بشكلها الإنساني يقوم على التمايز والتعددية. فالحياة لا تستقيم بلون واحد.. إن الحياة لا تحيا بالتطابق، وكلمة فرد – التي تشير إلى الشخص الواحد – هي جذر الفرادة والتفرّد التي تعني الاختلاف المُرام. ومع ذلك يأتي مفهوم التوأم ليتحدّى الاختلاف، ويجعله في كثير من الأحيان أكثر إثارة منه، بل ربما يحيل التماثل والتطابق إلى اختلاف قائم بذاته.

أن تكونَ مختلفاً أمر عادي جداً. أما أن تكون مطابقاً، شقاً مماثلاً مشتقاً من ثنائي، توأماً بشرياً لآخر وربما لثالث ورابع، صورة لآخر أو لآخرين كما تبدو الصورة في المرآة، فهذا هو «الاختلاف» المثير بحد ذاته. فالتماثل البشري التوأمي المنسوخ يسوق لنا عبرةً لا تخلو من ورع: يا لغرائب الحياة!

في هذا الملف، تأخذنا **حزامة حبايب** إلى عالم التوأم بكل مضامينه، حيث الواحد هو مثيل للآخر، قرين له، مرآته التي يعاين فيها نفسه، حتى وإن أصرَّ على أنه «غير».

Flickr



في التعريف القاموسي المقنّن، التوأم هو القرين وهو الشبيه بمعنى التماثل الشكلي أو التطابق الجسدي، قبل أن يتم استثمار المصطلح ومطّه ليشمل القرين النفسي والروحي، ليس بمعنى التماثل والتطابق فحسب وإنما بمعنى التكامل والاحتواء. فتوأمك هو الآخر الذي يكملك، يملأك، حتى كأنّك دونه تراك ناقصاً لا محالة. و«التوأم» أيضاً كمفردة تأتي بمعنى الصنو والنظير واللصيق، متخطياً التشابه والتماثل إلى الاندماج والالتحام.
وإذا لم نكن توأماً لآخر أو توأماً لشيء ما، لعاطفة خبيئة، لحقيقة مواربة، لحياة ممكنة وقابلة جداً، فإن في داخل كل منا مساحة تحتاج إلى توأم ما يكمله ويتكامل معه.

في الخارطة الثقافية البشرية واسعة الامتداد، حيث تقتات المخيلة الإنسانية على اللامنطق واللامعقول أكثر من ارتياحها إلى حصافة العلم الجاف، فإن التوائم الذين يبدو أن الجسد والروح مستنسخان مرتين وأكثر فيهم أثارت -كظاهرة- حالة من الدهشة تراوحت بين البهجة والخشية، بين القبول والرفض، بين اغتباط الفكرة ومعاداتها. وعبر التاريخ، وقف الإنسان يتأمل التطابق الخلقي، مطوراً تفسيراته وقناعاته إزاءها. فأبناء حضارة المايا رأوا في التوائم -خاصة المتطابقة- نعمة، منبهرين بفكرة جسدين متماثلين تماماً، معتقدين بأن أزواج التوائم فعلياً إنما روح واحدة تشظّت وانقسمت إلى اثنين أو أكثر. وفي روما القديمة، فإن أسطورة رومولوس وريموس، الشقيقين التوأمين، اللذين ربتهما ذئبة وأسسا مدينة روما جعلت من ولادة التوائم الذكور نعمة، لكن التوائم الإناث كان ينظر إليهن كعبء؛ وسيء الطالع هو من يُرزق بهنّ؛ ذلك أنه بحسب نظام المهور الأوروبي الغابر كان يتعين تأمين مهر مضاعف للبنتين التوأمين في الوقت عينه!

وفي أوروبا خلال القرون الوسطى التي وسمها الجهل وغلفتها الظلمات في جلّ جوانب الفكر والحياة، كان الويل ثم الويل لمن تحمل بتوائم، خاصة إذا كانا توأمين غير متطابقين أو ذكراً وأنثى، فهذا البرهان القاطع على أن كل واحد منهما جاء من أب مختلف، وهو ما يعني أن الوالدة زانية وتستحق الموت! فكم يا ترى عدد النساء اللاتي رُحن ضحايا مظلمة الجهل؟! نستطيع فقط أن نتخيل!

ونذهب إلى إفريقيا الغربية، ففي أجزاء واسعة منها يحتل التوائم مكانة مميزة في الثقافة الشعبية. من بين هذا الشق الأثير من إفريقيا مالي، إذ تعتنق إثنيّتا بامانا ومانينكا العديد من المعتقدات والممارسات التي تعلي من قيمة التوائم وتضمن بقاءهم، حيث تتراوح معدلات إنجاب التوائم في هاتين الإثنيّتين بين 15.2 و17.9 لكل ألف ولادة طبيعية، دون الخضوع لأية مساعدة طبية. ويُنظر إلى التوائم في حضن البامانا والمانينكا باعتبارهم «كائنات» خارقة، يتمتعون بقوى غير عادية، تُقدم من أجلهم القرابين من الدجاج والدماء وجوزة الكولا الغالية وذلك لحمايتهم من الأذى ودرء الشرور عنهم.

أشكال وأنواع

تتصدر مفردة «التوأم» القواميس والمعاجم في معناها العلمي الأكثر تداولاً، فيُعرّف التوأم بأنه أحد طفلين يولدان من حمل واحد. وقد يكون التوأمان «متطابقين» أو «متماثلين» أو كما يشار إليهما علمياً بـ «Monozygotic»، أي يتطوران من بويضة ملقحة واحدة تنقسم مشكلة جنينيّن، أو قد يكون التوأمان «شقيقين» أو «غير متطابقين»، حيث يشار إليهما علمياً بـ «Dizygotic».

وفي العادة ينجم هذا النوع من التوائم غير المتطابقة حين يتم زرع بويضتين ملقّحتين بصورة مستقلة ومنفصلة في جدار الرحم في الوقت


رومولوس وريموس، الشقيقان التوأمان، اللذان ربتهما ذئبة

Corbis

نفسه، فيكون الشبه بين التوائم هنا كالشبه المتوقع بين الأشقاء، أو قد لا يكون ثمة شبه قريب فيما بينهم! والحديث عن الشبه يدعونا للوقوف عند مصطلح «Zygosity» العلمي، الذي يشير إلى درجة التطابق في الخريطة الجينية للتوائم. يمكن في هذا السياق تحديد خمسة أنواع أو أشكال من التوائم، الثلاثة الأكثر شيوعاً منها توائم غير متطابقة، وهي على النحو التالي:

- توأمان ذكر وأنثى، وهما الأكثر شيوعاً من بين كافة أنواع التوائم. وتشكل هذه الحالة قرابة خمسين في المئة من التوائم غير المتطابقة.
- توأمان أنثيان غير متطابقين، حيث يشكلان حوالي ربع التوائم غير المتطابقة عموماً.
- توأمان ذكران غير متطابقين ويشكلان قرابة الربع من بين التوائم غير المتطابقة.

أما النوعان الآخران الأقل شيوعاً فهما:

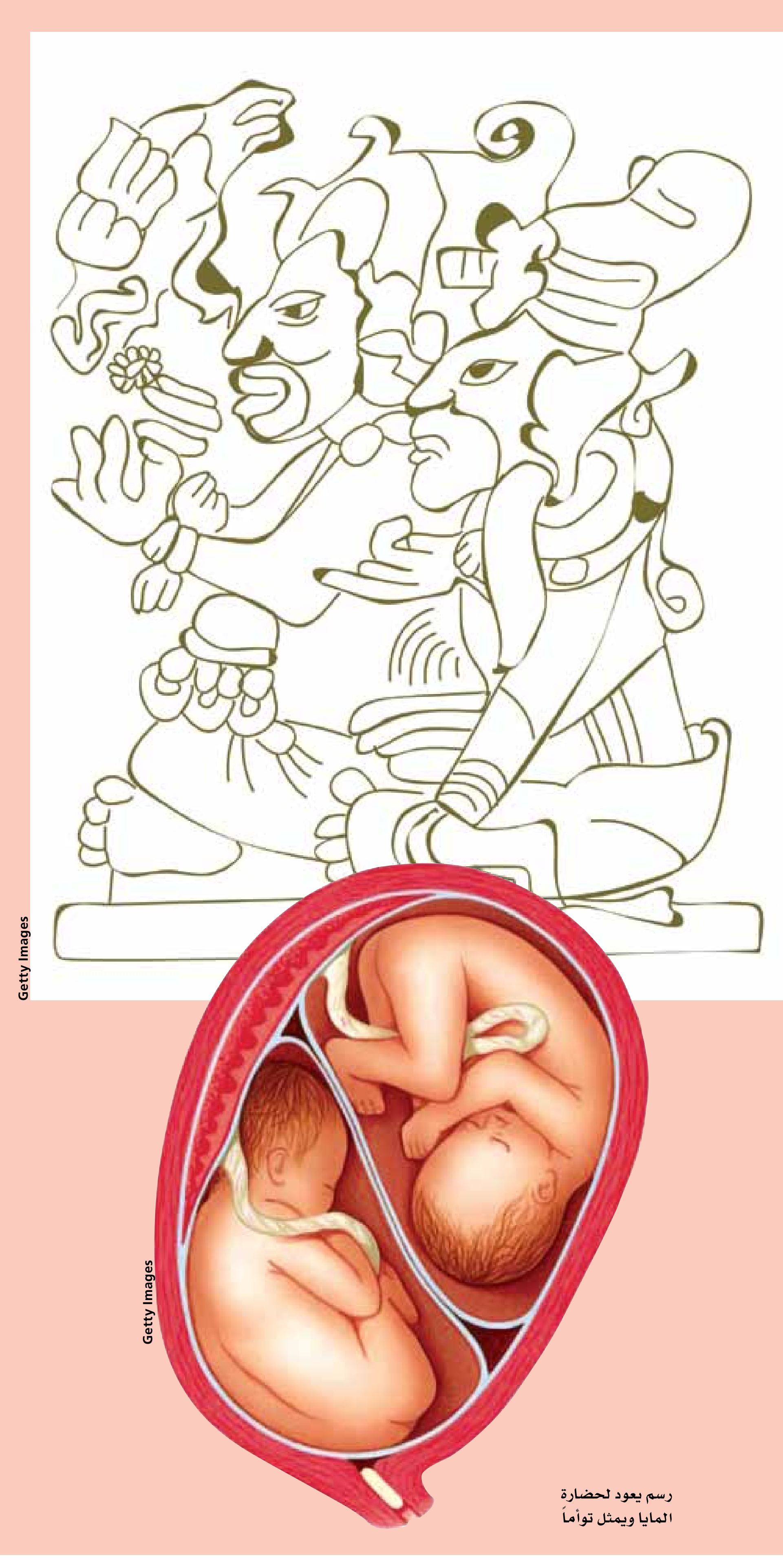
- التوائم الأنثوية المتطابقة.
- التوائم الذكرية المتطابقة (وهما الأندر من بين كافة أنواع التوائم).

وفي هذين النوعين، فإن التوأمين، سواء أكانا ذكرين أم أنثيين، متطابقان جينياً، أي لهما الخريطة الجينية نفسها.

في اللغة الإنجليزية يشار إلى التوائم بـ «twins» وهو مصطلح مشتق من الكلمة الألمانية القديمة «twin» أو «twine»، التي تعني «اثنان معاً»، ولعل هذا ما جعل مصطلح التوائم عند الكلام عنه أو الإشارة إليه يوحي بالثنائية، وهي ثنائية خرجت من الرحم البشري إلى رحم المجاز؛ فبات التوأم كمصطلح يستخدم للإشارة إلى شق مماثل من اثنين، وجه مطابق لآخر، ونصف مكمّل لثانٍ.

التوائم في الغالب -وضمن سياق التعريف السائد للمصطلح- ثنائية، وبصورة أقل شيوعاً قد تكون ثلاثية ورباعية وخماسية وأكثر، وهو أمر لم يعد يُقابل في السنوات الأخيرة بكثير استهجان مع انتشار تقنيات التخصيب الصناعي، التي يفترض أنها اشتُقّت في المنطلق لمعالجة العقم المؤقت أو معوقات الحمل، والتي أحالت رحم المرأة إلى حاوية تتسع لعدد كثير من الأجنة – قد تصل في بعض الحالات إلى عشرة في صفة كنا – حتى عهد قريب – نخالها «أرنبية» أي مقتصرة على الأرانب!

والحق أنه حتى تاريخه، سجِّلتْ حالتان لثمانية توائم بشرية ولدوا أحياء؛ الأولى هي حالة توائم «عائلة تشاكوو»، وهي عائلة أمريكية من أصول نيجيرية رزقت في ديسمبر من العام 1988م ثمانية توائم، بعدما حملت الأم بمساعدة التلقيح الصناعي. وتألّف التوائم من ست إناث وولدين، وتوفيت إحدى الإناث بعد وقت قصير من ولادتها، وعاش التوائم السبعة. أما الحالة الثانية فمسرحها الولايات المتحدة أيضاً حين وضعت الأمريكية نادية سليمان ثمانية توائم، ستة أولاد وبنتين، دفعة واحدة وذلك في يناير من العام 2009م، بتدخل طبي أيضاً، مسجلةً رقماً قياسياً في عدد التوائم الذين وُلدوا من بطن واحدة وما زالوا


Getty Images

Getty Images

رسم يعود لحضارة المايا ويمثل توأماً

حتى اليوم على قيد الحياة. وثمة حالات محدودة لحمل بتسعة توائم، حيث ولد عدد من الأطفال أحياء وإن عانقوا الحياة لأيام محدودة. كذلك، تضم السجلات الطبية الموثقة حالات حمل بدأت بعشرة أجنة وأحد عشر وخمسة عشر جنيناً، جميعها ناتجة عن التلقيح الصناعي أو التقنيات الطبية المساعدة في الإنجاب. على أن هذا لا يعني أن ولادات التوائم لا تتم إلا بالتخصيب أو بالتدخل الطبي، فهناك حالة موثقة لحمل طبيعي باثني عشر جنيناً وإن لم يولدوا على قيد الحياة.

ندرة الشبيه.. والزمن القريب البعيد!

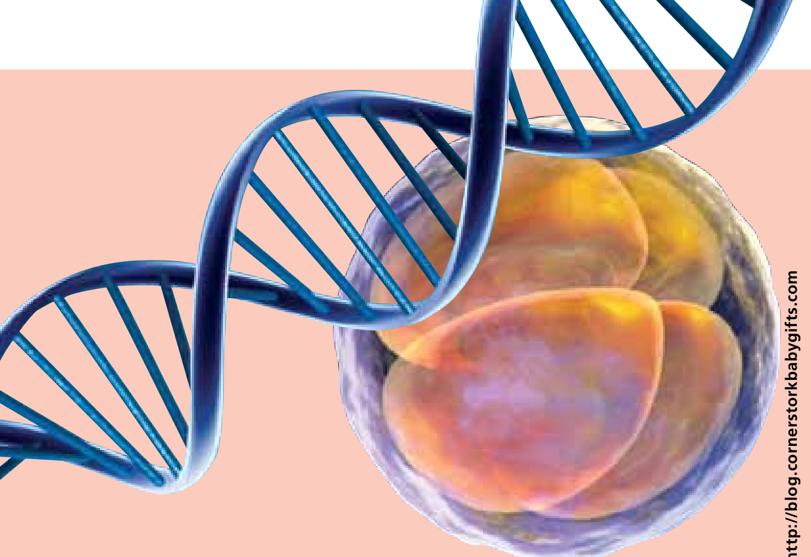
إذا كان شبيهك، الذي يحمل خريطة جينية تطابق خريطتك، أمراً يثير الشهية إلى النظر والتسليم بعجائب الخلق فما بالك بشبيهين وربما أربعة؟! الثابت أن التوائم الثنائية المتطابقة من أندر ولادات التوائم بأنواعها؛ فمن بين كل ألف ولادة طبيعية يولد ثلاثة أزواج من التوائم الثنائية. لكن الأندر منها يقيناً هي التوائم الثلاثية المتطابقة والأكثر ندرة التوائم الرباعية المتطابقة. فبالنسبة للتوائم الثلاثية، فإن ولادة واحدة من كل 8,000 ولادة طبيعية ينجم عنها توائم ثلاثية (غير متطابقة). أما فرصة ولادة توائم رباعية فلا تزيد على 1 لكل 730,000 ولادة طبيعية! في العادة تنجم التوائم الثلاثية أو الرباعية عن أكثر من بويضة، بويضتين أو ثلاث، وقد تنقسم البويضة الملقحة إلى اثنتين مشكلةً توأمين متماثلين في حين يتشكل التوأم الثالث أو الرابع غير المتطابق عن بويضة مستقلة. لكنه في حال التوائم الثلاثية المتطابقة، فإن البويضة الأصليّة الملقّحة تنقسم إلى اثنتين، ثم تنقسم إحدى البويضتين الناجمتين ثانية، مشكلة ثلاثة توائم متطابقة. في حالة التوائم الرباعية المتطابقة، وهي الأندر جداً، يحصل انقسام ثالث. أو قد تنقسم البويضة الأصلية الملقحة مرتين مشكّلةً أربعة أجنة، وقد يعيشون جميعهم كتوائم رباعية متطابقة أو يموت أحد الأجنّة ليستقرّ الأمر عند ثلاثة توائم متطابقة.

وكانت دراسة ألمانية استغرقت خمسة عشر عاماً وشملت 8,220 ولادة طبيعية (أي غير قيصرية) قد عمدت إلى قياس الفترة الزمنية الفاصلة بين ولادة التوائم، حيث قُدِّر هذا الفاصل بـ15 دقيقة في المتوسط في



www.angelasjournal.com

التوائم الثمانية الذين وضعتهم الأمريكية نادية سليمان



http://blog.cornerstorkbabygifts.com

معظم الحالات (75.8 في المئة)، في حين تراوح بين 16 و30 دقيقة في 16.4 في المئة من الحالات، ووصل إلى 31 – 45 دقيقة في 4.3 في المئة من الحالات، في حين بلغ هذا الفاصل الزمني 46 – 60 دقيقة في 1.7 في المئة من الحالات، وتخطى هذا الفاصل الزمني الساعة في 1.8 في المئة من الحالات. ومع ذلك ثمة حالات نادرة قد يولد فيها التوائم بفاصل زمني يقدَّر بعام.. نظرياً على الأقل؛ كأن يولد أحد توأمين مثلاً في الدقائق الأخيرة من شهر ديسمبر بينما يولد الثاني في الدقائق الأولى من يناير، أي مطلع عام جديد. وهو ما حصل مع الأمريكية سوزان غوديكي، التي ولدت توأمها الأول كاترين في الساعة 11:56 مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر 1991م، ثم وضعت توأمها الثاني جيسيكا في الساعة 12:14 فجر أول يوم من العام 1992م. ولا تستغربوا إذا عرفتم أن الفارق –نظرياً أيضاً– بين ولادة توأم وشقه قد يصل إلى عقد من الزمان؛ فها هما التوأمان المتطابقان مارسيلو وستيفانو فيلاسكو قد وُلدا بفارق سنوات عشر وذلك عندما أبصر مارسيلو النور في أحد مستشفيات فلوريدا بالولايات المتحدة في الدقائق الأخيرة من العام 2009م في حين تبعه شقيقه ستيفانو في الدقائق الأولى من العام 2010م. أما الأشد عجباً بلا شك هو أن يكون الفارق بين التوأمين ألفية بأكملها.. أي نعم كما هو في حالة التوأمين الأمريكيين المتطابقين آرون ولوك هيغنبير غر! فقد وُلد آرون عشية رأس السنة في العام 1999م، تبعه شقيقه لوك في الدقيقة الأولى من العام 2000م، أي مطلع الألفية الثالثة.. صحيح أن الفارق العمري بين التوأمين قد يكون دقائق، لكن الفارق النظري هو ألف عام!

عوامل «التوأمة» وأسبابها

يُقدّر عدد التوائم في العالم بـ125 مليوناً، وذلك وفق أحدث بيانات جُمعت في العام 2006م، وهو ما يشكِّل تقريباً نحو 1.9 في المئة من تعداد السكان العالمي. ومن بين هؤلاء، يبلغ عدد التوائم المتطابقة –الثنائية والثلاثية– قرابة عشرة ملايين نسمة، وهو ما يشكِّل قرابة 0.2 في المئة من تعداد السكان العالمي، و8 في المئة من إجمالي عدد كل التوائم.

العديد من النظريات تناولت ظاهرة التوائم وأسبابها، لكن أياً منها لم تتوصل إلى سبب أكيد، حاسم وناجع، يفسر حدوث «التوأمة»، التي ظلت تراوح في دائرة الغموض، خاصة فيما يتعلق بولادة التوائم المتطابقة. ولا يبدو أن التقدم العلمي الهائل، الذي سهَّل الولادات بالجملة، قد نجح

من غرفة العمليات إلى بطولة الرواية

في التاسع والعشرين من إبريل من العام الجاري، جرى فصل التوأمين الملتصقين الأردنيين محمد وأمجد في مدينة الملك عبدالعزيز الطبية في الرياض. وكان على رأس فريق الجرَّاحين الذين أجروا عملية الفصل الناجحة، وزير الصحة نفسه الدكتور عبدالله بن عبدالعزيز الربيعة، الذي حظي بشهرة عالمية لنجاحاته المتكررة في فصل التوائم الملتصقة منذ ما قبل أن يصبح وزيراً للصحة في فبراير من العام الماضي.

وإن لم تثر عملية فصل الطفلين محمد وأمجد ضجيجاً إعلامياً كبيراً، بخلاف بعض العمليات السابقة، فمرد ذلك على الأرجح هو تكرار النجاح نفسه. إذ إن الدكتور الربيعة كان قد أجرى أكثر من 20 عملية فصل ناجحة حتى عشية تعيينه وزيراً للصحة في المملكة. الأمر الذي جعل منه بطلاً لرواية أوروبية، من تأليف الأديبة الرومانية دومينيكا أليزل، تعبيراً عن امتنانها وانبهارها بما قام به من أعمال.

ومعلوم أن الدكتور الربيعة هو من مواليد الرياض، 11 نوفمبر 1954م، بدأ بدراسة الطب عام 1972م في كلية الطب بجامعة الملك سعود، وحصل على الترتيب الأول في دفعته عند تخرجه عام 1979م. ثم انتقل إلى جامعة ألبرتا بكندا حيث حصل على الماجستير، ولاحقاً على درجة الزمالة في جراحة الأطفال من جامعة دالهاوسي الكندية عام 1987م.


Getty Images

الوزير الدكتور عبدالله الربيعة في غرفة العمليات

وبعد عودته إلى المملكة، تقلَّد الدكتور الربيعة مناصب عديدة في مستشفى الملك خالد الجامعي في الرياض، وفي المركز الطبي وقسم الجراحة في مستشفى الملك فيصل، ومستشفى الملك فهد بالحرس الوطني بالرياض، قبل أن يصبح المدير العام التنفيذي للشؤون الصحية بالحرس الوطني عام 2003م. وأدت نجاحاته المهنية وشهرته في إجراء أصعب العمليات الجراحية (فصل التوائم السيامية) إلى تعيينه وزيراً للصحة في 14 فبراير 2009م.

والوزير الطبيب الربيعة حائز على وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى، وكان سبق له أن حصد جوائز عديدة منها جائزة أفضل بحث في جامعة ألبرتا الكندية عام 1985م، وجائزة أفضل طبيب مقيم في الجامعة نفسها وجائزة أفضل مدرس بكلية الطب بجامعة الملك سعود بالرياض عام 1989م.

وإضافة إلى عضويته في جمعيات طبية سعودية وعربية وكندية، اختارت «الأكاديمية الوطنية الفرنسية للجراحة» عام 2007م الدكتور الربيعة ليكون عضواً فيها من ضمن تسعة جرَّاحين هم الأكثر تفوقاً في العالم.



Getty Images

جدارية إعلان عملية فصل التوأم السيامي في الرياض

بـإمبراطورية ميم
تجربة ثلاثة توائم متطابقين



مهند ومحمد ومثنى مع والدهم

علاوة على المسحة الجمالية الغرائبية التي يشكّلها حضور التوائم متطابقي الخلقة في أي محفل أو تجمّع، فإن المواقف الطريفة التي قد تحدث نتيجة هذا التشابه كفيلة بإثارة إرباك وتشويش، وإن كان من النوع المحمود ذلك أنه يثير الابتسام في العيون والانشراح في النفوس. وكأن التشابه رباني الصنع وحده لا يكفي، حتى يأتي التشابه المتعمد في الأسماء ليجعل الإرباك مضاعفاً، كأن يكون الاسم مبتدئاً بالحرف نفسه، كما هي قصة التوائم الثلاثة مهند ومحمد ومثنى، الذين يشكّلون فيما بينهم «إمبراطورية ميم» في عائلة صالح حزين.

يستذكر صالح حزيّن، وهو أب لثمانية أبناء، ولادة توائمه الثلاثة في العام 1987م، معترفاً بالقلق الذي تلبسه وترقبه القادم من المسؤوليات المترتبة على رعاية ثلاثة أطفال دفعة واحدة، ترتيبهم الأصغر بعد الولد البكر وأربع بنات. فقد تمّ تحويل منزله إلى غرفة طوارئ مع إقامة معسكر داخلي شارك فيه جميع أفراد العائلة وقسمٌ لا بأس به من العائلة الممتدة بالاعتناء بالتوائم. تشاركنا أم محمود، زوجة صالح، جانباً من المواقف الطريفة التي صنعها توائمها، وأول ما يخطر في بالها يوم أن قامت بتحميم مهند مرتين، معتقدة أنه مثنى في المرة الثانية، وذلك في شهرهما الأول من حياتهما المليئة بالأحداث المثيرة. وكانت أم محمود قد تعمدت في البدء إلباس أبنائها ملابس متماثلة في صغرهم قبل أن تلقى معارضة من جدّتهم بحجة دفع الحسد عنهم. وحتى «الحصبة» أبت إلا أن تزورهم ثلاثتهم في ذات الوقت، ثم أُدخل الثلاثة لاحقاً المستشفى في المكان والزمان عينهما لإجراء عملية استئصال اللوز، وسط دهشة الأطباء من كون حجم اللوز المستأصلة واحداً.

في المدرسة، وفي موسم الامتحانات، كان أحد المعلمين يتجول بين الطلاب، ليفاجأ بطالب يجلس إلى يمين الصف تارة، وإلى يساره تارة أخرى، قبل أن يصطدم بوجود الشخص نفسه في مؤخرة الصف! أياً ما كان عليه الأمر، لم يكن الثلاثي المرح يستغل التشابه «الشكلي» في الغش، مؤكدين بأنهم طيلة سنوات الدراسة حافظوا على مستوى علمي متقارب. وتشاء واحدة من مفارقات الحياة الكثيرة أن يحصل مهند ومثنى على معدل متقارب للغاية في شهادة الثانوية العامة، بفارق علامة واحدة بين معدليهما.

وكان كل من مهند ومثنى قد التحقا بجامعة اليرموك في مدينة إربد بالأردن، في كليتين مختلفتين، ورافقتهما في تلك الأثناء نوادر جمة. منها أن أحد زملائه استغرب ذات مرة قيامه بتغيير ملابسه بين المحاضرات قبل أن يكتشف هذا الزميل أنه كان يأخذ محاضرتين إحداهما معه والأخرى مع مثنى! ويسوق محمد -التوأم الثالث- واحداً من المواقف التي واجهته ذات مرة قائلاً: «ذهبت إلى محل حلاقة لقص شعري، وبعدها بيومين ذهب مهند إلى المحل نفسه ليتفاجأ الحلاق من سرعة نمو شعري قبل أن يشرح له مهند أننا ثلاثة توائم، لكن هذا لم يمنع الحلاق من الذهول عندما رأى مثنى لاحقاً. عندئذ، اتفقنا على أن يقصد كل واحد منا محلاً مختلفاً تجنباً للخلط الذي قد يقع فيه الحلاق».

وها هو محمد أيضاً يدحض الاعتقادات الشائعة حول التوائم، ومن بينها أنهم يمرضون سوية وينامون ويستيقظون في موعد واحد؛ فالتوائم، وفقاً لمحمد، يختلفون في المزاج والأحوال النفسية، ويقتصر التشابه فيما بينهم على الجانب الخارجي. «فلكل منا ذوقه المختلف ورؤيته المميزة للحياة، على الرغم من ارتباطنا الكبير مع بعضنا بصورة أكثر من تلك بين الأشقاء غير التوائم».

يمضي محمد شارحاً: «لا يشترط في كل التوائم الإحساس ببعضهم البعض، فشقيقاي وأنا مرتبطون شعورياً بشكل لا يوصف، لكننا مختلفون في الشخصية والتفكير، وهذا ما لا يفهمه الكثير من الناس. فيستمرون في التعامل معنا كشخص واحد، صحيح أننا نستمتع بتطابقنا شكلياً وبالإحساس والارتباط، لكن أكثر ما يضايقنا تعامل الآخرين معنا على نحو موحد». يثني مهند على كلام شقيقه قائلاً: «تسبب هذا الشيء في بخس حقنا في المدرسة، فكنا ننال الدرجة نفسها بصرف النظر عن المستوى فقط لأننا توائم..!».

من جانبه، أكثر ما يضايق مثنى هو مناداة أفراد عائلته له باسم أحد شقيقيه لعدم قدرتهم على التمييز فيما بينهم على الرغم من مرور 23 عاماً على ولادتهم، مستدركاً: «حتى أفراد أسرتنا أنفسهم يخلطون بيننا، فكيف بالآخرين؟!». ويستغرب التوائم الثلاثة الأسئلة الساذجة التي يطرحها الناس من نوع: كيف يعيش التوائم؟ هل يتشاجرون؟ هل يمرضون في الوقت نفسه؟ ولعل أكثر ما يزعج مهند هو تبني الناس موقفاً واحداً إزاءهم، «فعندما يخطئ أحدنا نحاسب كلنا!».

يختم مثنى بقوله: «مهما كبرنا ومهما اختلفنا، سنبقى شخصاً واحداً لدى العائلة والأصدقاء والغرباء».



مهند ومحمد ومثنى

تماماً في استيعاب التطابق المرآتي للبشر. ومع ذلك، ظلّت التوائم المتطابقة حقيقة شبه سوريالية مبهمة، فإن العلماء تمكنوا في الطرف الآخر من التوصّل إلى فهم وتحليل أكبر لظاهرة التوائم غير المتطابقة أو الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها.

من جملة هذه الأسباب عامل الوراثة؛ فالحمل بأكثر من جنين يعني أنه يتعين على الأم أن تكون قادرة على إفراز أكثر من بويضة، وهذه المقدرة قد تكون سمة متوارثة عن الأم. كذلك، فإن المرأة التي تكون هي نفسها توأماً غير متطابق لديها احتمال أكبر من غيرها لإنجاب توائم متطابقة بمعدل الضعف.

من العوامل الأخرى المرتبطة بظاهرة إنجاب التوائم عمر المرأة ووزنها؛ فالنساء الأكثر وزناً والأكبر سناً -فوق 35 عاماً- أكثر ميلاً لإنجاب التوائم من الشابات، وذلك نظراً لارتفاع مستويات الهرمون المعروف بـ «الهرمون المحفز للجريب» والمشار له اختصاراً بـ «FSH»، وهو هرمون ينظِّم عملية التكاثر في الجسم. ومع اتجاه العديد من المجتمعات إلى تأخير سن الزواج، على خلفية تبني أنماط حياتية ثقافية مستحدثة، وبالتالي ارتفاع سن المرأة عند الزواج والإنجاب، فمن المرجح أن تكون ولادات التوائم مرشحة لازدياد عددي واضح مستقبلاً.

إلى ذلك، لا يمكن أن نغفل التخصيب الصناعي كعامل أساسي في «فورة» ولادات التوائم المتعددة؛ فبفضل هذه التقنية لم يعد الحمل بتوائم يُصنّف في خانة الندرة أو الطفرة الحياتية، مع ولادة 21 زوجاً من التوائم لكل ألف ولادة تقريباً. وهناك بالطبع عوامل بيئية ذات تأثير بيّن، فتحسّن الرعاية الصحية ونظام التغذية يلعبان دوراً حيوياً في تعزيز الحمل بالتوائم والحفاظ على صحة الأجنة في الرحم واستكمال الحمل دون معوقات أو عقبات.

نتناول أيضاً عاملاً رئيسياً طالما شكَّل موضع اهتمام لدى الباحثين والعلماء في الأنثروبولوجيا الحيوية ألا وهو العرقية أو الجنس؛ فقد ثبت أن الأصل العرقي يلعب دوراً حيوياً في تحديد نسبة التوائم غير المتطابقة مع وجود أعلى نسبة في هذا الخصوص لدى النساء المنحدرات من أصل إفريقي. بحسب إحصائية موثقة فإن معدل إنجاب الإفريقيات للتوائم غير المتطابقة 1 لكل 70 ولادة، في حين يبلغ هذا المعدل لدى النساء ذوات الأصل القوقازي 1 لكل 88 ولادة، وعند النساء اليابانيات الأصل 1 لكل 150 ولادة، أما النساء اللاتي ينحدرن من أصول صينية فيبلغ المعدل لديهن 1 لكل 300 ولادة.

وبما أننا مفتونون بالعجائب، نتوقف أخيراً مع عجيبة بشرية لامرأة، فلاحة روسية، دخلت التاريخ بوصفها المرأة التي أنجبت أكبر عدد من الأولاد في حياتها، حيث رزقت بـ 79 طفلاً في القرن الثامن عشر. ففي الأعوام بين 1725 و1765م، شهدت 27 عملية ولادة توائم، ضمت 16 زوجاً من التوائم الثنائية، وسبع مجموعات من التوائم الثلاثية، وأربع مجموعات من التوائم الرباعية!

قدرٌ ملتصقُ الخطى

إذا كان الشبيه المطلق، الذي يقابلنا، يتحدّى مفهوم الاختلاف، فإن الشبيه الملتصق بنا، الملتحم بحياتنا – بالمعنى المادي والحسي للالتحام – يكاد ينسف مبدأ الفرادة، لا لأن «الآخر» يشبهنا فقط بل لأنه ليس «آخر» منفصلاً عنّا، وقد يتغذّى على بعض أعضائنا، فيكون وجوده مشتبكاً – حدّ الألم – بوجودنا.

يمنح التوأمان الملتصقان – أو «التوأمان السياميان» بحسب التوصيف الشائع – الحياة شراكة بيولوجية ونفسية غاية في التعقيد، وهي شراكة تبدأ في الرحم وقد تنتهي في اللحد، إلا إذا فُصل الكائنان بتدخّل جراحي، عادة ما يكون محفوفاً بالمخاطر.

علمياً، يُعرف التوأمان الملتصقان أو السياميان بتوأمين متطابقين حدث التصاق أو التحام في منطقة ما من جسديهما أثناء تشكلهما في الرحم، وبما أنهما متطابقان فهما إما ذكران أو أنثيان. ثمة نظريتان تفسّران هذه الظاهرة؛ الأولى وهي الأكثر قبولاً ورواجاً تعرف بنظرية «الانقسام غير المكتمل»، حيث إن البويضة المخصَّبة التي يفترض أن تنقسم إلى بويضتين مشكلةً توأمين متطابقين لا تنقسم بالكامل، فيكون الانقسام أو الانشطار جزئياً الأمر الذي ينجم عنه توأمان ملتصقان في المنطقة التي خاصمها الانقسام. أما النظرية الثانية، التي لا تلقى حماسةً كبيرةً في الأوساط العلمية، فتعزو الأمر إلى ما يعرف بعملية «الاندماج»؛ وفيها تنقسم البويضة الملقّحة، لكن الخلايا الجذعية تعثر على خلايا تشبهها في التوأم الآخر وتعمل على دمج التوأمين معاً.



التوأمان التايلنديان اللذان كانا وراء تسمية الملتصقين بـ «السياميين»

http://ancientgreeksandcircusfreaks.blogspot.com

أصل تسمية السيامي

قد يكون كل من إنغ وتشانغ بانكر أشهر توأمين ملتصقين في التاريخ. وكان التوأمان الملتصقان من عند منطقة الصدر قد ولدا في العام 1811م في سيام (تايلاند حالياً). واكتشفهما تاجر بريطاني يدعى روبرت هانتر في العام 1829م، فاصطحبهما معه في جولة عالمية ليكونا «فرجة» للخلائق مقابل بعض المال. وفيما بعد، تخلى التوأمان السياميان عن وكيل أعمالهما البريطاني ليعملا في سيرك بي. تي. بارنوم الأمريكي، فجابا أوروبا والأمريكيتين، مقدمين عروضاً ترفيهية، محققين شهرة عالمية، ومتكسّبين من وراء «خلقتهما»، قبل أن يستقرا أخيراً في ولاية كارولينا الشمالية كمواطنين أميركيين ويتزوجا شقيقتين وينجبا 21 ابناً. ولقد ودع التوأمان الحياة في اليوم نفسه في يناير (كانون الثاني) عام 1874م، إذ أصيب تشانغ بذات الرئة وتوفي أثناء نومه، ولحقه شقيقه إنغ بعد ثلاث ساعات رافضاً أن يتم فصله عن شقيقه، بعدما استدعت العائلة طبيباً ليقوم بالعملية على أمل ألا يلحق بشقيقه، مصراً على انتظار النهاية التي رسمها القدر له مع شقيقه: فقد عاشا معاً وعليهما أن يموتا معاً. بسبب ندرة هذه الحالة في ذلك الزمان واشتهار التوأمين، بات يطلق على التوائم الملتصقة عموماً بـ «التوائم السيامية»، نسبة إلى موطنهما سيام، وهي تسمية لا تزال سائدة، على الرغم من نبذها علمياً. تشريحياً، كان تشانغ وإنغ ملتصقين بكتلة من اللحم وبجزء من الغضروف مع التحام كبديهما في منطقة الجذع. بمقاييس الطب العصري، كان بالإمكان جداً فصلهما دون أن تشكل العملية خطورة كبيرة على أي منهما.

كظاهرة، فإن ولادة التوائم السيامية نادرة، حيث تتراوح نسبتها بين مرة كل خمسين ألفاً إلى مرة كل 200 ألف حالة ولادة. وتقدّر الأبحاث أن من 40 إلى 60 في المئة من التوائم السياميّة يموتون عند الولادة، وأن 35 في المئة يظلون على قيد الحياة يوماً واحداً، علماً بأن معدل نجاة التوائم السيامية يتراوح بين 5 إلى 25 في المئة، حيث تشكّل الإناث الغالبية ضمن هذا المعدّل بنسبة تقدر بـ 3 إلى 1 في المئة.

أنواع الالتصاق

ويمكن تقسيم التوائم الملتصقة إلى أنواع في تصنيف يشير إلى المنطقة من الجسد التي يوجد فيها الالتصاق أو الالتحام.

ميلي وكريستين ماكوي

wikimedia

مـن أنـواع التوائـم الملتصقـة الأكثـر شيوعـاً النـوع المشـار إليـه علمياً بـ «متحـد الصدريـن والسرّتيـن»، حيث يكـون الجسمان ملتحميْن من الجـزء العلوي من الصدر وحتـى الجزء السفلـي منه، وغالباً ما يتشارك التوأمان هنا القلب، وقـد يتشاركان الكبـد أيضـاً أو جـزءاً من الجهـاز الهضمي. ويشكّل التوائـم السياميـة الذيـن يولدون ضمن هذا النوع من الالتصاق مـا نسبته 28 في المئـة من مجمـوع الولادات. وهنـاك النـوع المعـروف بـ «متّحـد الصدريـن»، وفيه يكون التوأمـان ملتصقيـن مـن أعلـى الصدر وحتـى أسفل البطـن، ودائماً ما يكون القلـب مشتركاً في هذه الحالات. ويشكّل النوع المعروف بـ «متّحد السرّتين» 10 في المئة من الحالات، حيث يكون التوأمان متصليْن من الجزء السفلي من منطقة الصدر، دون أن يكون القلب مشتركاً وإن كان التوأمان يتقاسمان هنا الكبد والجهاز الهضمي والحجاب الحاجز وأعضاء أخرى. والنسبة ذاتها نشهدها في النوع المعروف بـ «التوأمين الطفيليّين»، وهما توأمان ملتصقـان بصـورة غير متناسقـة أو على نحو غير متماثـل فيكون أحد التوأميـن ضئيلاً، أقل اكتمـالاً وتشكلاً، ومعتمداً في بقائـه على التوأم الأكبـر حجماً. كذلك، وضمن أنـواع التوائم السياميـة يبرز نوع يدعى بـ «متّحـد القحفين» حيـث يلتصـق التوأمان من الجمجمـة، بجسمين منفصلين.

فـي هذا السيـاق، يمكن فصـل التوائم السيامية بتدخّـل جراحي، وهو تدخل تتـراوح درجة صعوبته بين اليسير نسبياً إلى المعقّد جداً، حسب المنطقـة التي يوجد فيها الالتصاق وحجم الاعتماد المشترك للتوأمين على الأعضاء الحيوية للجسم. ومعظم جراحات فصل التوائم محفوفة بالمخاطـر وقد تنتهـي بوفاة أحد التوأمين أو كلاهمـا، خاصة إذا كانا ملتصقيـن من منطقة الرأس الحساسة. ولعلنـا نذكر الحكاية المؤلمة للشابتين الإيرانيتين لادان ولاله بيجاني الملتصقتين من الرأس، حيث أصرتـا على إجراء عملية فصل كي تشقّ كل واحدة منهما الحياة التي تريـد، فلقد كانـت لاله تتطلع إلى العمل كصحفيـة في طهران في حين أرادت لادان متابعـة دراستهـا العليـا فـي القانون في شيـراز، مسقط رأسيهمـا الملتصقين! وإذ رفض أطبـاء كثر إجراء الجراحة «القاتلة» للشابتين وافق طبيـب سنغافوري يدعى كيث غو على المضي قدماً فـي المغامـرة بعدما كان قـد نجح في فصل توأميـن نيباليتين ملتصقتين من الرأس. وأجريت الجراحة الخطرة جداً في مستشفى رافيلز بسنغافورة في السادس من يوليو 2003م تحت إشراف فريـق من الأطبـاء قوامه 28 جرّاحـاً عالمياً وطاقـم مساعد تألف من أكثـر من 100 شخـص، واستغرقت الجراحة أكثر مـن عشرين ساعة، تبيَّـن في الأثناء أن عملية فصـل الجمجمتين أعقد بكثير مما تصورها الأطبـاء. فتوفيت لادان على طاولة الجراحـة وتبعتها شقيقتها لاله بعد تسعين دقيقة.

فـي المدوّنـات التاريخية، يمكن تتبّـع أول رصد للتوائـم الملتصقة في حضـارة الموشـي التـي ازدهـرت شمالي البيـرو في الحقبـة من 100 إلـى 800 ميلاديـة، حيث تم تصوير التوائـم الملتصقة في منحوتاتهم الخزفيـة في العـام 300 ميلادية. علـى أن أقدم حالة موثقـة لتوأمين ملتصقيـن تعـود إلى العام 945 للميلاد حين تم جلـب شقيقين توأمين ملتصقيـن من أرمينيا إلـى القسطنطينية، عاصمـة الدولة البيزنطية آنـذاك، لإجراء تقييم طبي لهما. كذلك، كانت الشقيقتان الإنجليزيتان ماري وإليزا تشالكيرست مـن أوائل الحالات الموثقة تاريخياً في سجل التوائـم الملتصقـة، إذ كانتـا ملتصقتين من الظهـر وعاشتا من العام 1100 وحتى العـام 1134 ميلادية. ومن التوائـم السيامية التي حققت شهرة، وإن لم تـواز شهرة الأخوين تشانغ وإنغ، الشقيقتان الأمريكيتان الزنجيتان ميلي وكريستين ماكوي، اللتان وُلدتا في زمن العبودية بولاية كارولينـا الشمالية بالولايات المتحدة فـي العام 1851م، فتعلمتا الغناء والعزف الموسيقي، وامتهنتـا مجال الاستعراض الفني مكتسبتين لقب «العندليـب ذات الرأسيـن». وتوفيتا في العام 1912م جـرّاء إصابتهما بالسل، بفارق 17 ساعة بين كل منهما! حالياً، يعد الشقيقان الأمريكيان روني ودوني غاليون، المولودان في العام 1951م، أكبر التوائم الملتصقة في العالم سناً. هما الآخران استغلا «خلقتهما» في التكسب من ورائها قبل أن يتقاعدا في العام 1991م.



photolibrary

التلقيح الصناعي داخل المختبرات

تـوأم الـروح

مـن وقت لآخـر، نتعثّـر بتعبير «تـوأم الـروح» أو «توأم النفـس»، أو حتى «توأم القلـب»، فيحيلنُا إلى تأويلات وترجمـات عدة للمصطلـح، الذي يبـدو فانتازياً أو مجازياً، وهو كذلك وأكثر.

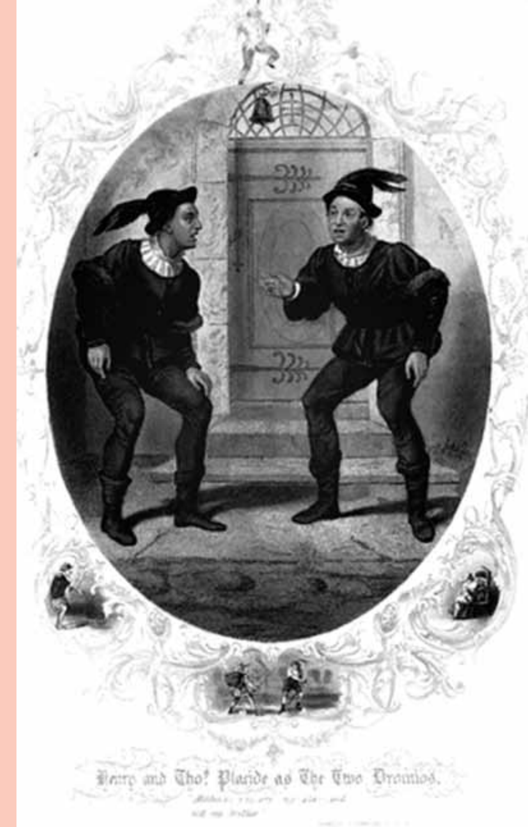
Getty Images

فـي تعريفــه لتــوأم الروح، كتب الفيلســوف اليوناني أفلاطون، قبل أكثـر من ألفيــن وخمسمائة عام، يقــول: «حين يلتقــي أحدهم نصفه الآخـر، النصف الفعلي لذاته، يضيع الاثنان في حالة مذهلة من الحب والصداقة والحميمية، فلا يغيب أي منهما عن بصر الآخر ولو للحظة.» على مـدى قرون من الفكر البشري، جـاب الفلاسفة والمنظرون قارة «تـوأم الروح» الملأى باحتمالات الكشف لإضفاء الصبغة الرومانتيكية علـى هـذا المصطلح. في تعريـف عام، يـكاد أن يكون مجمعـاً عليه، فـإن توأم الروح هو الشخص الذي نقع في شـراك روحه وقلبه وفكره، فيأسرنـا ولا نـود أن نقاوم هـذا الأسر، هو الشخص الـذي نبثه محبة عميقة، صافية، خالصــة، فنستشعر في حضرة وجوده أن وجودنا هَامَ وظل يهيــم ليستقر في نهاية المطاف عنده أو لعله كان مودعاً لديه في كشـف ظل مؤجلاً إلى أن التقيناه. هو شبيهنـا، وفي الوقت عينه يكملّ نواقصنــا، فيسدّ فراغاتنا دون انحشار، ويعبئنا دون فيض أو نقصان، هــو الشخص الذي حين تـراه تعتقد أنه جاء من ماضيك، أو تشكّل من ثنايا روحك أو نُسج من جدران فؤادك لأنه يقرؤك، يترجمك، يفهمك، ويسهـب في شرحـك دون أن تقول كلمة، هو أنت بقـدر ما أنت هو؛ هو الشخـص الذي يطرق حياتك، يتصفـح فصولك الآنية والآتية، فيوغل في معانيك عميقاً.

وقد لا تكون لفظة «توأم» مجانية، فتوأم الروح شبيهك من مبدأ المرآة، أي إنك ترى نفسك في الآخر، فيكون توأمك النفسي والروحي والعاطفي والفكـري، أياً ما كانت طبيعة التوأمة التي تميل إليها أو تميل هي إليك. ضمــن هذه العلاقة الوشائجية التوأمية، نستطيع أن نصنف ثلاثة أنواع مما يميل البعض إلى تسميته بـ «علاقات المرآة»، أي العلاقات التوأمية؛ فهنــاك المرآة التي تريك مــا كنتَ عليه، فتعطيك الفرصة لترى ما آلت إليــه حياتك حتى الآن، وبالتالــي تضع الخطط للتغييــر. إن توأم الروح الذي يفد إلى حياتك -بعد ماض غير شيق- يجب ألا يجعلك تندم على ما فات أو تنوح على الأمس، فهو ترجمة للمقولة بـ «أن يأتي الخير متأخراً أفضل من ألا يأتي أبداً». أما النوع الثاني من العلاقات فهي المرآة التي تعكـس لك الطريق الـذي تسلكـه الآن، فتبين لك القضايـا العالقة في حياتك والمسائل التي يتعيَّن عليك أن تعمل عليها، فكنتَ معمياً عنها إلا أن فتح توأم روحك عينك عليها. ونخلص إلى النوع الثالث من العلاقات التوأميّة وهو النوع الذي يعكس إمكاناتك، فتظهر لك لمحة مما تستطيع أن تكونه إذا أردت، فيكون توأمك هنا ملهمك ومحفزك.

أيـاً كانت تفسير المرآة هنا، فمـا أن تتشكل العلاقة حتى تكون الرابطة بيـن طرفيها كتلـك التي تجمع التوأميــن المتطابقين لا لجهــة التشابه الشكلـي وإنما للتشابـه النفسي، فيكون كل طرف علـى دراية وإحساس بمشاعـر الآخـر وأفكاره ورغباتـه واحتياجاته، فيقرأها قبـل أن تُطبع، ويلبيها قبل أن تُطلب.

لتـوأم الـروح والنفـس فـي الشعـر مكانـة، إذ استنطق حراس الكلمة وشعراؤها المعاني الغافية في توائم قلوبهم..



Corbis

ملصق لمسرحية «شكسبير» Comedy of Errors

تتوقف ذاكرتنا القريبة عند قصيدة «توأم الروح» للشاعر الأمير عبدالله الفيصل، رحمه الله، حيث يقول:

«يا توأم الروح ونور البصر
ضاقت مني الروح بهذا السفر
وغشت الوحدة عيني فما
يؤنس عيني كل هذا البشر».

وكتب الشاعر المصري إبراهيم ناجي في قصيدته «خطاب» مناجياً:

قَبَّلْتُ خطَّك ألْفا ... ولم أدَعْ منه حرفا
قد كنتِ توأم قلبي ... وكنتِ في الغيبِ إلفا

وله أيضاً في «ساعة لقاء»:

درجَ الدهرُ وما أذكرُ بعدَكْ غيرَ أيامِكِ يا توأم نفسي!
وأنا الطائرُ! قلبي ما صبا لسوى غصنِك والوكر القديمْ

وها هي الشاعرة السورية سنية صالح تتماهى مع ابنتها، توأم ذاتها، في قصيدة «الذاكرة الأخيرة»، إذ تمنحها كل الحب، في وداع آسر:

أيتها الذات التوأم
يا أجنحةَ المحيط وزفيرهُ المنعش
ستحملك جزره إلى المتصوفة والهائمين
والسرياليين
ستنقلك إلى أحلام الماء وأشواق الربيع
بينما تغافلني ريح المنعطف
وتخطف غباري

ونقرأ للشاعر المصري عاطف الجندي في «أشواق الجازورينا»:

لا تحسبيني
قد نسيتُ كما نسيتِ العابرينْ
أو لم تكوني
توأمي في الجُرحِ
قافيةَ القصيدةِ
وابتداءَ توهجي

أما «التوأم» بمعنى الحبيب فترسم الشاعرة اللبنانية سوزان عليوان مواصفاته على النحو التالي:

منذُ أن اكتشفتِ الظلامَ
و خوفَها من الظلامِ
في ليل الغربةِ القاسي الطويل
و هي تنتظرُهُ
فارسًا
بعينيْن لوزيَّتيْن
و قلبٍ من سُكَّر
بلمسةٍ
يعيدُ الفرحَ مُهْرًا
على جبهتِهِ هلالٌ
في صهيلِهِ سماءٌ من نجوم.



أفلاطون وتعريفه لتوأم الروح

Corbis

Corbis

أرض التوائم



www.medindia.net

www.randafricanart.com

تُعد بلدة إيغبوأورا، في جنوبي غرب نيجيريا، عاصمة التوائم في العالم أو أرض التوائم! فهذه البلدة موطن لجماعة عرقية كبرى تعرف باسم «يوروبا»، تتميز بأنها صاحبة أعلى معدل في إنجاب التوائم غير المتطابقة في العالم، إذ يبلغ معدل ولادة التوائم هناك 45 لكل ألف حالة. بحسب الثقافة اليوروبية، فإن التوائم يضفون السعادة والصحة والرفاه على الأسرة. وعند ولادتهم، تقام الولائم احتفالاً بالبركة التي هلّت على البيت، حيث تتم دعوة كافة أهل القرية وربما القرى المجاورة.

ودائماً ما يُطلق على التوأم الأول - سواء أكان ولداً أم بنتاً - اسم «تايوو»، الذي يعني «الأول الذي يتذوق العالم»، في حين يطلق على التوأم الثاني اسم «كيهيندي»، وهو ما يعني «الواصل بعد الآخر». وعلى الرغم من ولادته أولاً، إلا أن «تايوو» يُعد أصغر التوأمين، حيث يفترض أن شقيقه الأكبر «كيهيندي» قد أرسله خارجاً كي يرى كيف يبدو حال العالم له، وما إن يعطي تايوو إشارة بالبكاء، حتى يتبعه كيهيندي.

في اليوم الثالث لولادة التوأمين، يقوم الوالدان بزيارة عرّاف القرية الذي يقدِّم للأم سلسلة من الإرشادات والتعليمات بشأن كيفية تعاملها مع توأميها؛ لجهة الألوان التي يجب أن يلبساها أو يتجنباها، والطعام الذي يُنصح به أو الذي يجب حظر تناوله، والحيوانات التي تشكل خطراً عليهما، وغير ذلك.

يؤمن اليوروبا بأن كلا التوأمين يتقاسمان روحاً واحدة، لذا في حال توفي أحدهما عند الولادة فإن حياة الآخر تكون معرضة للخطر، بسبب اختلال توازن الروح. لمواجهة هذا الخطر يتعين القيام بطقس خاص، حيث يتم تكليف نحات بحفر تمثال خشبي صغير، كبديل رمزي لروح التوأم الفقيد. ويتعين على الأسرة رعاية التمثال، كما لو كان كائناً حقيقياً، فيتم إطعامه وتحميمه وإلباسه، ذلك أن حمايته ورعايته تكفل إقصاء الخطر عن التوأم الذي ظل على قيد الحياة. وفي حال غيَّب الموت التوأمين معاً، يتم حفر تمثالين لهما ليتمثلا روحهما، فتظلّ تحفّ الأسرة في غيابهما.

Corbis

إلى ذلك، من غير المعروف سبب استشراء ولادات التوائم وسط اليوروبا؛ فثمة علماء يعزون الأمر إلى الوراثة، بالنظر إلى الروابط العائلية والقبلية الوشيجة، مع ثبوت دور العامل الوراثي في ولادات التوائم المتطابقة. على أن بعض العلماء يزعمون أن للأمر علاقة باستهلاك كميات كبيرة من نوع معين من البطاطا الحلوة التي تعرف بـ «اليام الأبيض»، حيث تحتوي على هرمون الفيتوستروجين الطبيعي الذي قد يحفز المبيضين على أن يفرز كل منهما بويضة.

التوائم في السينما كثير من الضحك9 قليل من الجد

لا يمكن للتوائم وما يوحونه من أفكار ومواقف، تصطدم فيها كل أشكال اللامعقول، أن تغيب عن خيال السينما الشره دوماً للعجيب. حين أطر فِلم «التوأمان» الشاشة الفضية الهوليودية في العام 1988م، وجد الجمهور نفسه أمام مفاجأة غير متوقعة، فقد جسد دور الشقيقين التوأمين كل من الممثل «سابقاً» آرنولد شوارزينغر (حاكم ولاية كاليفورنيا الأمريكية حالياً) والممثل المخضرم داني دي فيتو. وجاء اختيار النجمين، متناقضي الخلقة تماماً، للعب دور التوأمين متعمداً. فهما أبعد ما يمكن أن نفكر فيهما كشقيقين، فما بالكم بتوأمين؟! فببنيته العضلية الضخمة أو المتضخمة، وبطوله الفارع يبدو شوارزينغر ضغف حجم دي فيتو، الذي لا يزيد طوله على المتر ونصف المتر! لكن الطرافة لا تتوقف هنا، فالشقيقان اللذان وُلدا من تجربة تخصيب تمت في المختبر -بحسب حبكة الفِلم- وفُصل بينهما عند الولادة تطرح الأول بوصفه التوأم الوديع، المتأمل، الساذج والأخلاقي، بينما يتقمص الضئيل دي فيتو، شخصية التوأم «البلطجي» المحتال، الذي يحاول الإفلات من الرقابة الأخلاقية لتوأمه الضخم!



التوائم في السينما.. قليل من العلم وكثير من الكوميديا

ومن الأفلام ذات النهكة الكوميدية التي تناولت المفارقات الناجمة عن التطابق التوأمي فِلم «عمل كبير» (1988م) بطولة الممثلتين الأمريكيتين بيتي ميدلر وليلي توملين. تدور قصة الفِلم حول زوجين من التوائم الأنثوية يولدان في المستشفى نفسه لعائلتين، إحداهما ثرية والأخرى فقيرة، وينتهي الأمر بالممرضة إلى الخلط بين المواليد الأربعة، في حبكة شائكة، تتصاعد حين تلتقي الفتيات الأربع بعد أربعين عاماً لتقع كل واحدة على شبيهتها، بعد سلسلة من الأحداث والمواقف والمصادفات التي لا يمكن نسجها إلا سينمائياً.

وهناك أيضاً فِلم «مصيدة الأبوين»، الذي قُدِّم في نسختين؛ الأولى في العام 1961م والثانية في العام 1998م، حيث تقمصت النجمة الأمريكية ليندسي لوهان في النسخة الحديثة من الفِلم دوري توأمين متطابقين لأسرة مزقها الطلاق، فتعيش إحدى التوأمين مع والدها في أمريكا فيما تظل الأخرى في كنف أمها في لندن، دون أن تدري أي منهما أن ثمة نصفاً آخر يطابقها عبر الأطلسي! وحين تلتقي التوأمان الطفلتان صدفة في مخيم صيفي، تكتشفان الحقيقة وتتخذان على عاتقهما مهمة إعادة المياه إلى مجاري العلاقة بين أبويهما، وبالطبع وعلى الطريقة الهوليودية تنجحان في مهمتهما بامتياز!

والحق أن معظم الأفلام، التجارية الطابع، استثمرت الشبه التوأمي في كوميديا هزلية، قلة منها نجحت في احتلال مكانة مميزة في إرث الشاشة الفضية الذي يُعتدّ به. من الأفلام النادرة التي طرحت التماثل التوأمي بما يكتنفه من توافق نفسي وروحي وصراعات داخلية جمة على نحو آسر فِلم «اقتباس» (2002م)، بطولة النجم نيكولاس كيج والممثلة المخضرمة ميريل ستريب. يجسد كيج في الفِلم دور كاتب سيناريو يُدعى تشارلي كوفمان يجد صعوبة في اقتباس رواية بعنوان «لص الأروكيد» وتحويلها إلى نص سينمائي، فيستعين تشارلي بشقيقه



الاحتفاء بالتطابق



حول العالم، ثمة أيام مخصصة للاحتفاء بالتطابق والتماثل من خلال مهرجانات واحتفالات وعروض ترفيهية تستقطب كل أنواع التوائم، الثنائي والثلاثي والرباعي، الغريب والأغرب، في مشهد عجائبي يجعل البصر متحفزاً للدهشة على الدوام. وقد يكون مهرجان «أيام التوائم»، الذي تستضيفه سنوياً بلدة توينزبيرغ في ولاية أوهايو الأميركية هو الأشهر في العالم.

انطلق هذا المهرجان في دورته الأولى في العام 1976م، بمشاركة 36 مجموعة من التوائم، واليوم أصبح المهرجان، الذي يقام سنوياً في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر أغسطس، يستقطب أكثر من 3000 مجموعة من التوائم، من كل الفئات والأنماط، يفدون إليه من مختلف أنحاء أمريكا ومن خارجها. في حدث هو الأضخم من نوعه عالمياً. تضم أيام المهرجان فعاليات ومسابقات ترفيهية عدة من بينها مسابقة للمواهب ومواكب استعراضية في احتفالية صاخبة، يتبارى فيها التوائم على اجتذاب الأنظار الحائرة في محيط من التشابهات المربكة، خاصة إذ يحلو للتوائم ارتداء أزياء متشابهة، فيخال المرء نفسه كأنه مطوق بمرايا تنقل له الصورة نفسها مرتين وثلاثاً وربما أربع مرات. قد ينطبق على بلدة توينزبيرغ Twinsburg المثل القائل بأنها اسم على مسمى بالمعنى الحرفي للتسمية، فـ twins تعني «توائم» في حين أن burg تعني «بلدة» بالعامية، وهو ما يعني أنها بلدة التوائم، أو إذا أردنا التماس الدقة فإن اسمها يعني – حرفياً– بلدة التوأمين! نعم.. تعود التسمية إلى العام 1819 ميلادية حين استوطن شقيقان توأمان متطابقان هما موسيز وآرون ويلكوكس بلدة حديثة التأسيس عُرفت باسم ميلسفيل. ولقد اشترى التوأمان الوافدان من ولاية كونيكتيكت، قطعة أرض مساحتها 16 كيلومتراً مربعاً، وبدآ يبيعانها قطعاً صغيرة بأثمان زهيدة لاجتذاب مستوطنين جدد، ثم عرض التوأمان التبرع بقطعة أرض لتكون ميداناً عاماً للبلدة ومبلغ 20 ألف دولار أمريكي لبناء أول مدرسة لقاء تغيير اسم البلدة من ميلسفيل إلى توينزبيرغ، أي بلدة التوأمين!

ومن احتفالات التوائم الصاخبة في العالم «مهرجان التوائم الأوروبي» الذي يُعقد سنوياً في آخر عطلة نهاية أسبوع في يوليو في إيطاليا، حيث يجتذب ألف مجموعة، تقريباً، من التوائم الثنائية والمتعددة. وكان المهرجان قد دُشّن في مدينة ريميني الإيطالية في العام 2000 قبل أن ينتقل في العام 2004م إلى متنزه «كانيفا ويرلد» الترفيهي عند بحيرة غاردا، شمالي إيطاليا. ويمكن للتوائم أيضاً المشاركة في «مهرجان يوم التوائم الفرنسي» الذي انطلق في العام 1994م، وهو أكبر تجمّع للتوائم في أوروبا، حيث يقام في بلدة بلوكادو بإقليم بريتاني في فرنسا في منتصف أغسطس من كل عام، ويؤم المهرجان الذي يستمر يوماً واحداً فقط ألف مجموعة، تقريباً، من التوائم من مختلف المشارب.

وهناك أيضاً مهرجان التوائم الثقافي الذي تحتضنه العاصمة الصينية بكين في مطلع أكتوبر من كل عام، بحضور مئات التوائم الذين يشاركون في عروض الغناء والرقص والفنون القتالية، في احتفالية بهيجة تشكّل ذروة احتفالات البلاد بالعيد الوطني.

توائم متطابقة من كل الأجيال



التـوأم دونالد، وهو كاتـب سيناريو أيضاً، لكنه أكثـر تصالحاً مع نفسه مـن شقيقه الذي يبـدو أنه يرى حياتـه في مرآة محبطة. فـي النهاية، ينجح تشارلي في فك لغز الحكاية، بمساعدة توأمه، قبل أن يلقى دونالد حتفه.. بموت دونالد، النصف الآخر، يتوازن تشارلي، لا لأنه فقد شقيقه بل لأن شقيقه كأنـه ضحى بنفسه في سبيل تعافي روحه المعذبة.. هذه التضحية تفك «عقدة الكاتب» لدى تشارلي فينجح في كتابة نصه!

ولنختـم مع مقاربـة كوميدية طريفـة للتوائم، من خـلال فِلم «ملتصق بـك» (2003م)، الذي يتنـاول حكاية شقيقين ملتصقيـن من الجنب، علـى طريقة التوائم السيامية. كل من شاهـد الفِلم يكتشف أن مقاربته خيالية، ذلك أن التوأمين الملتصقين في الفِلم يجسِّدهما النجمان مات ديمـون وكريـغ كينير، وهو أمـر يدخل في خَانة اللاممكـن، لأن التوائم السياميـة متطابقـة! ولا يمكن أن يكون الشقيقـان فيها مختلفي الخلقة علـى طريقة ديمون وكينير! ومـع هذا يحقّ للسينما مـا لا يحق لغيرها! لكن قصة الفيلم الطريفة كفيلة بأن تجعلنا نتسامح مع المقاربة العلمية الخطـأ لمفهـوم التوائـم الملتصقـة، خاصـة وأن الفِلم يعالـج بحيوية العلاقـة الأخوية التي لا تُفصـم حتى حين ينفصم الجسمان بعد عملية جراحيـة يخضعـان لها واضعيّـن حداً لحياتهمـا المتلصقـة. إذ يظلا ملتصقين «حبِّياً» مهما حصل!

التوأمة مستعارة للمدن

مـن أكثـر المجـالات التي يستعـار فيهـا تعبيـر «التوأمة» خـارج عالم المواليـد هو توأمة المدن، الذي يـكاد يُختصر في مفاهيم اليوم بوجود بعض الاتفاقات التنمويـة أو الثقافية ما بين مدينة وأخرى على مستوى بلديتها، وغالبـاً ما تكـون إحدى المدينتين فقيرة بحاجة إلى المساعدة والأخرى غنية طامحة إلى مد نفوذها.

ولكـن هناك مدنـاً عديـدة في العالم هي في الواقـع توائم بفعل نشوئها فـي ظـروف تاريخية واحـدة وعلى مسافـات متقاربة جـداً حتى حدود الالتصـاق، مثل مدينة بودابسـت التي تشكّلت من مدينتـي بودا وبست



commons.wikimedia.org

الجسر الذي يفصل بين «بودا» و«بست» المدينتان اللتان شكلتا العاصمة «بودابست»



forum.sportal.com.au

أبراج بتروناس التوأم

اللتين نشأتا أولاً كمحطتيـن تجاريتين صغيرتين متقابلتين على ضفتي نهـر الدانوب، قبل أن تنمـوا لتصبحا مدينة واحدة هـي اليوم عاصمة جمهورية المجر.

ومن توائم المدن التي نعرفها أكثر من غيرها هي المدن الثلاث: الظهران والخبر والدمام، التي نشأت في وقت واحد وعلى مسافات قريبة جداً من بعضها وبفعل ظرف تاريخي واحد (اكتشاف النفط في المنطقة الشرقية من المملكة). وكما هو الحال في معظم الأحيان تنمو هذه المدن التوائم لتلتصق ببعضها وتصبح عملياً حاضرة مدينية واحدة.

أما توأمة المدن بقرار، أي نسج مشاريع تنموية وروابط ما بين مدينتين بعيدتيـن عـن بعضهمـا، وفي معظـم الأحيـان تنتميـان إلـى ثقافتين



مختلفتيـن، فهي ظاهـرة قديمة، ظهرت أولى أشكالهـا في العام 836م عنـد توأمة مدينة لومان الفرنسية مع مدينة بادربورن الألمانية. وطوال القـرون الوسطى كان ثمة أشكال مختلفة من التوأمة، كأن تنضم مدينة إلـى مدينة أخرى بعيدة عنهـا في تبعيتها لحاكم واحد بفعل الميراث أو الزواج وما شابه ذلك.

أما أول توأمة مسجلة في العصر الحديث فتعود إلى العام 1920م، وهي بين مدينـة بوا-دو-نور الفرنسيـة وكايلي الإنجليزيـة.. وغداة الحرب العالميـة كثرت عمليات التوأمة بين المدن، خاصة بين المدن الأوروبية ومـدن البلدان التـي كانت خاضعـة للاستعمار الأوروبـي.. وتتخذ هذه التوأمـة في الغالب شكل مشاريع تنمويـة، وأوجه نشاط ثقافية مختلفة، وطبعاً بعض «المساعدات».

ومـن المجالات الأخرى التي يستعار فيها تعبيـر التوأم، هو عالم البناء والأبراج، عندما يرتفع مبنيان في الوقت نفسه متشابهان حتى التطابق، بحيـث يكمِّل الواحد شخصية الآخر. ومـن أشهر توائم الأبراج هذه في وقتنا الحاضِر، هما برجا كوالالومبور الشهيرين.

التخاطر على طرف العلم على حافة الخرافة

مـن وقـت لآخر، يطفو جـدل حـول «التخاطـر»، أي الاتصـال النفسي والعقلي عن بعـد بين التوائم. وفي الغالب، يوحي التخاطر بمعنى هائم وغائم، يحيله إلى خرافـة أو أقرب إلى حكاية فولكلورية منه إلى العلم. لكـن بعض العلمـاء الشغوفين بقدر محتمل مـن الخرافة يتبنون نظرية «التخاطـر التوأمي»، من منطلق أنه شكل من أشـكال التواصل النفسي بيـن التوائم، مدعوميـن في قناعاتهـم بعدد من التجـارب الشخصية لتوائـم استشعـروا خطراً يحيـق بشقّهم الآخر، مرآتهـم التي يرون في تهشّمها تهشماً لهم!

ثمـة العديد من الأمثلـة والروايات على التواصل النفسـي بين التوائم، التـي تدعم نظرية التخاطـر التوأمـي أو تضفي شيئاً مـن المصداقية عليها.

مـن بين الروايـات التي احتفظ بها الباحثون فـي سجلاتهم – بانتظار إيجاد تفسير غير مُختَلف عليه – ما يلي:

- كانـت شقيقتـان توأمـان بالغتان تتواصـلان معاً عبـر الإنترنت، حيـث تقيم إحداهمـا في بلجيكا بينمـا تقيم الأخرى فـي الولايات المتحدة، حين اكتشفتا أن كلتيهما ابتاعتا البنطلون نفسه في اليوم نفسه من العلامة التجارية نفسها. كذلك، اكتشفتا أن إحداهما ألم بهـا مغص شديد فـي الوقت عينه الذي باغتـت فيها آلام المخاض الثانية.
- وقـع رجل، فيما يشبه الانهيـار، على كرسي قابضاً على صدره في الوقـت نفســه الذي أصيب شقيقـه التوأم فيه برصاصـة قاتلة، علماً بأن توأمه كان يقطن على بعد نحو خمسين كيلومتراً منه.
- حرقـت طفلة تـوأم في الرابعة مـن العمر يدهـا، وأصيبت توأمها المتطابق بتقرح غير معروف سببه في الموقع نفسه!

وثمـة قصص موثقة عـن توأمين فُصلا عند الـولادة، بحيث تربيا في كنـف أسرتين مختلفتيـن، وحين يلتقيان بعد سنـوات يتفاجآن بحجـم التماثلات التي تجمعهمـا ليست في الشكل فقـط وإنما في منحـى الحياة، وقـد تكون حكايـة «التوأمين جيـم» الأشهر والأكثر دهشـاً. فلقد تم الفصل بين التوأمين الأمريكيين المتطابقين جيم لويـس وجيم سبرينغر وهمـا رضيعان في أسبوعهمـا الرابع، حيث تبنـت أسرة مختلفة كل طفل على حدة. والتـم شمل التوأمين وهما فـي التاسعة والثلاثيـن من العمر، وهـو لقاء تكشفـت عنه غرائب وعجائـب لم تذهـل التوأميـن فحسب وإنمـا الباحثين فـي جامعة مينيسوتا أيضاً.

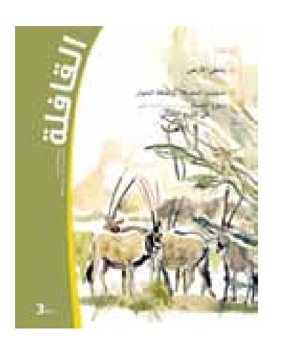
فمـن التشابهات العجيبة التي جمعت بين التوأمين، إلى جانب الحقيقة بأن كلاهما حملا الاسم الأول نفسه ولديهما الطول نفسه والوزن عينه، ما يلي:

- حين كانا طفلين، كل منهما كان لديه كلب اسمه «توي».
- كلاهمـا تزوج مرتين، حيـث كان اسم الزوجة الأولـى لكل منهما «ليندا»، كما كان اسم الزوجة الثانية لكل منهما «بيتي».
- أحد التوأمين أطلق على ابنه اسم «جيمس ألان» (James Allan)، فـي حين أطلق التـوأم الثاني على ابنه اسم «جيمسـ ألان» (James Alan) مـع فارق في الكتابة من خـلال إضافة حرف «إل» زائدة على «ألان» في أحد الاسمين.
- كلاهما يقضمـان أظفارهما كعادة، كمـا أن كلاً منهما يعاني من الصداع النصفي.

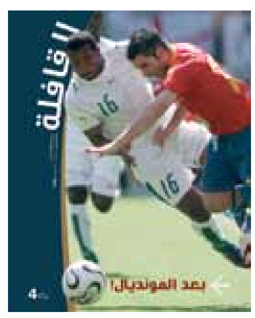
بالطبع، ثمة فروقات بين جيم الأول وجيم الثاني، لكن التماثلات -التي جمعـت حياتيهمـا حتى في خضـمّ فارق زمنـي يصل إلى نحـو أربعين عاماً- ظلَّت لها الغلبة.



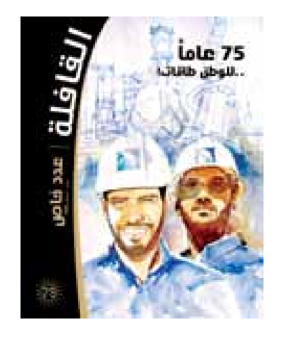


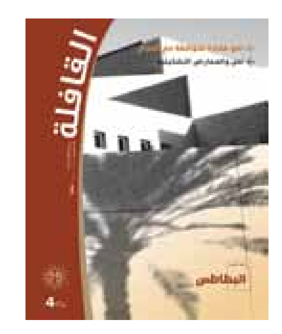




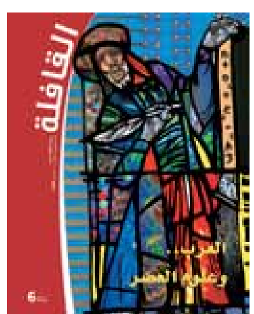


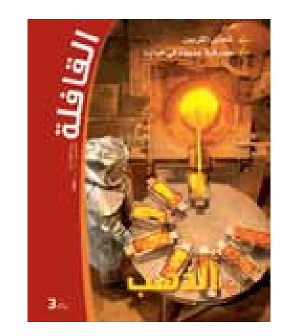












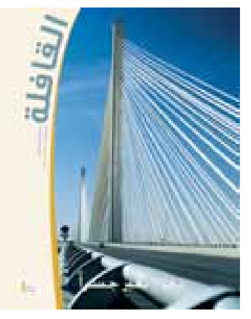




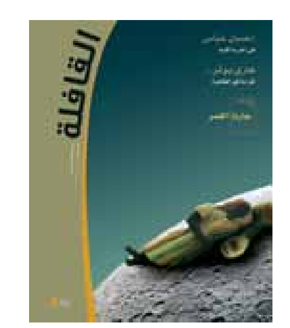
















www.saudiaramco.com





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين

عن أرامكو السعودية

يوليو - أغسطس 2010

المجلد 59 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311

المملكة العربية السعودية

www.saudiaramco.com